

زيجمونت سكوشنز

و
دومينو
بلون
الاحم

رواية

ترجمة: أمين منظور

سفا
SEFSafa PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSafa.NET

زيجمونت سكوشنز

دومينو بلون اللحم



ترجمة

أمين منظور

سفا
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

أمين منظور / كاتب ومترجم مصري، يكتب في مجالات الفلسفة والسينما وتاريخ الأفكار. كما يساهم حاليًا في مشروع مجلة "حكمة" الإلكترونية لتعريب "موسوعة ستانفورد للفلسفة".

مُومينو بلون اللحم

طبعة 2020

رقم الإيداع: 2021/17207

الترقيم الدولي: 978-977-821-171-9

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعللي

إخراج فني

علاء النويهى

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is full translation of MIESAS KRASAS DOMINO (Flesh-Coloured Dominoes) copyright © by Zigmunds Skujiņš 1999.

This book was published with the support of the Latvian Literature platform together with the Ministry of Culture of the Republic of Latvia.



Kultūras ministrija



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

سكوشنز، زيجمونت
دومينو بلون اللحم: رواية / زيجمونت سكوشنز، ترجمة أمين
منظور
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٠
٣٦٨ ص، ٢٢ سم
تدمك ٩-١٧١-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص اللاتفية
٢- القصص التاريخية
أ- منظور، أمين (مترجم)
ب- العنوان

٨٩١، ٩٣٣

رقم الإيداع: ٢٠٢٠ / ١٧٢٠٧

* ملحوظة عن السياق التاريخي للنص: احتُلت لاتفيا من قبل الاتحاد السوفيتي ثلاث مرات، الأولى في 1918-1920 أما الثانية 1939 - 1941 على إثر معاهدة مولوتوف-ريبنتروب بين ستالين وهتلر، ثم احتلها الألمان بعد إعلانهم الحرب على الاتحاد السوفيتي، ثم عاد السوفيت واحتلوها مُجددًا منذ نهايات الحرب العالمية الثانية وحتى عام 1991.

(I)

لم أعرف يوماً أبي أو أمي. أتذكر حين كنت صغيراً، أن المسألة طُرحت على مائدة عشاء يحضرها ضيوف؛ فأجاب جدي أن أوزما رحلت بعيداً بصحبة سيرك مُتنقل ما، وأنها اختفت كالحصاة في قاع البئر. ومنذ ذلك الحين، صارت جدران بئرنا الرطبة والمُظلمة ترعبني، خشية أن أرى جثة امرأة غارقة. وتحولت مسألة والديّ إلى مُعضلة مُجدداً، عندما كلفتنا مُعلمة المدرسة الابتدائية ببحث عنوانه ”أسرتي“. فضحك جدي ساخراً: اكتب أن أمك أميرة سيامية⁽¹⁾، وأن أباك هو شارلي شابلن. وقد كُتبت شيئاً قريباً من ذلك بالفعل. وحينما أعادت المعلمة كُراساتنا، مازحتني بأنني سأصير كاتباً ذات يوم، إرنست هوفمان القادم. لكن غريمي، فابيان نجل القنصل إيجل، قضى الفسحة بطولها وهو يُشكك في أن يكون لأطفال هذا الجنس من الأمهاتِ آباء. وأن جدي، ليس أكثر من حُوذي فقير يكسب لقمة عيشه من نقل الموتى.

حُضت مع جدي حديثاً مُطولاً في تلك الليلة، وقد انقسم جوابه إلى شقين مثلما تنشق أطراف الراية المرفرفة أو اللافتة.

لم يحدث أبداً أن أتى طفل للعالم دون أب، أما المسألة المتعلقة بمن والده أفضل من الآخر، سواء والدي أو والد فابيان، فإنه يُمكن تسويتها

1- نسبة إلى سييام، وهو الاسم الرسمي لمملكة تايلاند حتى سنة 1939 م

فقط، بحصاد البذور التي زرعها كل منهما.

”يأتي الأطفال من البذور إذًا؟“.

”وكيف لا؟ بالطبع من البذور.“.

”وأين تنبت تلك البذور؟“.

”في أخاديد الحياة أيها الأبله، وهل من مكان آخر؟“. حدّق جدي بي مُندهشًا.

”أخاديد الحياة؟، لا بدّ أنك تمزح“، انفعل جدي: ”لدينا سبعة أفراس، وثلاثة فُحول في الحظيرة، ولم يخطر ببالك أين تنبت بذرة الحياة؟“.

ارتبطت الأساليب الغريبة والعتيقة لجدي، بالدقة الصارمة، كما ارتبط خياله الجامح بالمعرفة عميقة الجذور. من الممكن ألا تدلّ أساليبه عن كونه عتيق الطراز بالفعل، وإنما عن ازدرائه للامتثال. لأنه لم يرغب في فعل شيء بالطريقة السهلة. أيضًا، لقد احتاج العالم حسب رأيه إلى الترفيه، وإلى المزيد من المسرح.

عندما كان المُغني موريس شيفالييه يؤدي عروضه في باريس، كان يتسكع في الأرجاء بقبعة من القش مُسطحة الحواف، الشيء الذي لم يعد أحد يفعله اليوم. وحين كان جدي يعمل على العربات، كان يرتدي إما برنيطة إنجليزية لونها رمادي فاتح، أو إحدى قبعاته الطويلة العديدة. وفي الطقس البارد، كان يخرج لجمع الحطب ملفوفًا في عبائه البالييرينية التي تغطي كتفيه. ويَطلي المقاعد في الباحة مرتديًا قفازات بيضاء. هكذا، بدت رغبته في ارتداء القبعات مدفوعة ببعض الخيلاء البشرية: كان جدي وسيمًا، ولكن شعره كان ينحسر،

وهي حقيقة حاول إخفاءها سواء وَعَى بذلك أم لا .

لقد تعلّمت الكثير عن أفضل الأشياء التي يُمكن مُقارنة شخصية جدي بها، ربما آلة تسجيل النقود المُستقرة بفخر فوق مكتب البارونة. دون شك فإن آلات النقود الحديثة أكثر عملية، لكن هذه الآلة القديمة كانت عملاً فنياً مرموقاً بحق. إذ كانت مصنوعةً من معدنٍ فضي، ومنقوشة بسلسلة من الزهور. وعندما تَسحب المقبض، وتضغط الأزرار، يندفع درجها الخشبي الأحمر مصحوباً بدقة جرس.

في الصباح التالي، قال جدي إنه سيوصلني للمدرسة في طريقه إذا أردت. كانت العربة الصغيرة مُلغزة بشكل لا يُصدّق، تُشبه في بعض جوانبها الأفراس السوداء التي كانت تجرّها. أما الآن، ولكوني أكبر سنّاً وأكثر حكمة كما يُفترَض، فإنني قادر على أن أستوعب بصورة أفضل، ما عدُّ آنذاك ببساطة أفكاراً غامضة. إن الأشياء التي نعتبرها جميلة، ليست في غالب الأحيان سوى علامة على الانسجام. أو براعة الإتقان – وليكن جسدَ امرأة، أو قارباً أشرعته مُفردة بالكامل، غزالة تَعُدو، أو سيارة فارهة. أشياء تلمسنا كدفء الأفران، أو كنسمة هواء.

لقد كان الإحساس الذي انتابني عندما لمست باب العربة المتلائنة، مُثيراً بقدر معانقة حبيب بعد غياب سنوات. حيث تَنهد الكرسي الأحمر البارد المصنوع من جلد الماعز بهدوء تحتي، وجلست بين نافذتين كريستاليتين، مثل ملك يتربع على عرشه. بينما أشرقت شمس مايو الزاهية، وصنَع صفٌّ من أشجار الكرز المتفتحة حول سور العربة الحجري موجة بيضاء يُمكنك التزلج فوقها.

خرج جدي من الباب الجانبي الصغير. مُرتدياً معطفاً جديداً لونه أزرق فاتح، مُعبراً عن خصوصية المناسبة. وفوق رأسه، بالطبع، قبعة

حريرية طويلة.

انحرفت العربة في قوس صغير نحو باب المدرسة قبل خمس دقائق فقط على بدء الصف. فكانت نافذة أحد الفصول مفتوحة، حيث جلس أليس صديق فابيان متأهبًا مثل قطة سمينة، مُصوَّبًا ضوء الشمس نحو أعين الفتيات العابرات باستخدام مرآة جيب. ليتوارى عن النافذة بمجرد أن رأى العربة، وتقفز على الفور عدة رؤوس أخرى وتحل محله، مثلما يقفز العصفور من الساعة.

في تلك الليلة، تحدثت مع جدي مُجددًا.

”هل تعرف ماذا قال فابيان؟ لقد تراجع عن وصفك بأنك فقير. لكنه تمسك بأن رائحتك تشبه الإسطبل، وأنا كذلك.“

”ها-ها-ها، أخبره بأن رائحة الإسطبل ليست أسوأ ما قد يحصل للمرء. فالحماسة، رغم ذلك، أنتن. وأن الدخول إلى قاعات قصر باكينجهام أسهل من الدخول إلى إسطبلاته. واسأله لو كان على علم بأن إرنست بيرون دوق كورلاند، والوصي على عرش الإمبراطورة الروسية أنا إيفانوفا، هو حفيد رئيس إسطبلات عزبة كالنزيمس. واسأله أيضًا: من الدوق، ومن هو رئيس الإسطبل؟ وما كل تلك الفوارق المؤقتة والمبتذلة مقارنةً بتاريخ البشرية. ففي خلال مئة أو مئتي عام من الآن (وهي مجرد نفس واحد في عمر الأبدية) سيختلف معيار التقييم. فما هو الدوق مُقارنةً بداروين، أو كانط، أو هارفي؟ وكما في ملحمة توراندوت، سينحاز التاريخ لمن يقدر على فك أحجيته.“

أنصتُ لجدي في صمت، دون قبول أو رفض. لكنه قرأ ملامحي، فبدأ أنه فهم عدم استعدادي لخوض هذا النوع من النقاشات الآن، لذا، فتح

دُرج الطاولة، وأخرج رزمة من أوراق اللعب.

”هل ترى“ قالها وهو يفرد الأوراق على الطاولة. ”على كل جيل أن يتعلم اللعبة من الصفر، لكن يُوجد كذلك المنحة الوراثية. حيث بإمكان لاعب ماهر أن يلد أطفالاً، يرثون نسخة مُطوّرة من مهاراته. هل تظن بأن أفراسنا الجميلات سَقطنَ من السماء؟ إنها وراثه! لا يهم أين أنا، سواء في الكنيسة أو السوق؛ سوف يظل بإمكانني كشف الغبي من على بعد عشر خطوات. إن الغباء، والجهل، والعنف يطفحون على ملامح البشر. قد تخدعك الكلمات، أما الأيدي فلا“.

امتلك جدي ما دعاه بـ”شركة تأجير العربات“. ولذلك، فإن تعليق فابيان اللاذع بشأن نقل الموتى، لم يأت من فراغ، لأننا امتلكننا بالفعل نُعوشًا، كانت ترقد في الضوء الخافت في سقيفة العربات، بين المركبات الكبيرة، والعربات الكوبية ذات الكرسيين، وعربات اللانداو المكشوفة، والفائتون التي أجّرها الزبائن في حفلات الزفاف والتعميد والتناول. مثلما امتلكننا منصات للنعوش؛ بيضاء وسوداء، والتي يُمكن ربطها بأربعة أو حتى ستة أحصنة. لكنها لم تكن أكثر من مُجرد عربات دفن، لم تختلف عن تلك المستعملة أيام موزارت، وروبسبير، وكازانوفا.

كان المطار على بعد كيلومتر واحد من القصر، حيث تُحلّق الطائرات الخاصة والتجارية فوق الفناء يوميًا عند الإقلاع أو الهبوط. لكن جدي كان ليتفلسف قائلًا بأن الأزمنة تتقاطع دائمًا في المحصلة.

لقد مثل خروج منصة النعش ذات الحصانين إلى ”العمل“ استعراضًا حقيقيًا. النعش مُطوّق بالورود، وسطح العربة الباروكي مُدعم بعوارض سميكة، ومُزيّن بستائر صَدَفِيّة، وبسَعف النخيل المُذهّب. أما الخيل فمكسوّة بشرائط ملامسة للأرض، وقد طوّقت صدورها باقات الزهور.

بينما يجلس حُوزيَّ في معطف أسود طويل وقبعة هلالية الشكل من القرن الثامن عشر على مقعده. بالإضافة إلى أربعة حوزيين آخرين يرتدون ذات المعاطف السوداء والقبعات الهلالية، كانوا يسرون على جانبي المنصة طوال موكب الجنازة.

جلس الرجال على حواف العربة الفارغة أثناء مُغادرتها الفناء، لكن، بينما تأرجحت أقدامهم جيئةً وذهابًا بتأرجح العربة، كان بمقدوري أن ألمح أرجلهم أسفل المعاطف، لمحاتٍ تخدش مصداقية العرض برمته: سراويل من طراز القرن العشرين (ربما ابتاعوها من يهودي ما بشارع مارياس أو من سوق السلع المستعملة الملاصق للسوق المركزي) وعلى كل، فإن ملابسهم لا يمكن أن تعود لأبعد من الحرب العالمية الأولى.

احتجزتني تلك الاستعراضات المُخيفة، والمبهمة، والمريبة للحياة والموت بإحكام داخل قبضتها، ولم يُخفّف من وطأتها عامل المرح فيها. لقد كانت مسرحًا، لكن حيث مَثَل البشر الحياة بدلًا من المسرحيات، أما من حملتهم النعوش إلى المقبرة، فلم يكونوا هنا كي يتلقوا التحية بعد العرض.

انتمت دارنا أيضًا، إلى حقة موزارت، وروبسيير، وكازانوفا. لم تكن قصرًا، بالرغم من كونها أكبر مباني العزبة. وإنما مبنى بسيطًا مُكونًا من طابقين وله سطح باروكي مكسو بالقرميد، وتتوسطه مدفأة كبيرة. وقد منحته الخطوط الأنيقة والتقسيمات الموزونة لمساحاته جمالًا طبيعيًا، وكذلك فعل الباب الخشبي المنقوش، والزخارف المعدنية على شكل نباتات، بالإضافة إلى شيش النوافذ المُفرد. أما نحن -أعني بذلك نفسي، وجدي، والبارونة، والعمّة ألما- فقد سَكْنَا بأحد جناحيّ الدار الكبيرة. بينما سَكَنَ الطيَّار وأسرته بالجناح الآخر. أو بالأحرى، سَكَنَتْ

زوجة الطيار وولده هناك، لأن الطيار كان يُحلّق عادة بطائرته ”الزغب الأبيض“ مُفردة المقعد، التي بناها بنفسه، إلى إفريقيا وجزر الكناري، أو بورنيو، وكان بإمكانك دومًا معرفة وجهته عبر قراءة الصفحة الأولى من الجريدة.

اشترك كلا جناحي الدار في المطبخ والمدفأة الضخمة. لكن عندما أمسكت البارونة بالطيار وهو يقطع رقائق من ضلع خنزيرها المُدخن، انتهت المشاركة، وتم استبدال الباب المؤدي للجناح الآخر بحائط. وكنا نُحدثهم عبر الهاتف في حالات الضرورة.

لقد استعملنا مصابيح الزيت والغاز للإضاءة، لأنه لم تكن ثمة كهرباء بالمنزل. وفي الطابق السفلي، بجوار غرفة البارونة، توجد غرفة، كانت تُدعى لسبب مجهول بـ ”المخزن“. مع أنها لم تكن أكثر من غرفة تغيير ملابس خاصة بالخدم. وقد احتوت جدرانها على دواليب كبيرة، تم بناؤها في مكانها على الأرجح، لأن إدخالها من الباب لم يكن ممكنًا، ولم تعد الأقفال الحديدية الضخمة الخاصة بها تُستعمل، غالبًا لضياعها منذ مدة طويلة. أما بخصوص الأشياء المُخزنة داخل تلك الدواليب، فكانت عبارة عن بعض العباءات الباليرينية التي تلف الكتفين، وملابس السُوّاس، وأردية الكهنة السميكة، ومعاطف فراك، وسترات للحقل ذات أزرار لامعة. كما امتلأت الأرفف بالقبعات الطويلة، والبرانيط الإنجليزية، وقبعات الصيد المُخملية. واستقرت باروكات الشعر المُستعار فوق حوامل خشبية خاصة بها: غطتها طبقة من الغبار وخيوط العنكبوت، فبدت مهجورة منذ زمن بعيد. في حين اكتظت أركان الدواليب بأشرطة المُوهير السوداء، وشرائط الحِداد الخاصة بالقبعات، كما انتصبت بين النوافذ مَرايا مُضَبَّبة ذات أُطر فينيسية، وقد تناثرت البُقَع هنا وهناك

فوق وجوها الشاحبة.

أحياناً كنت أتسلل إلى المخزن، لأقف أمام المرايا، حيث أتخيّل نفسي الأدميرال نيلسون، نابليون بوناپرت، أو جاليفر، جورج واشنطن، أو الكاردينال ريشليو. وبإضافة محتويات هذه الدواليب إلى محتويات باقي الغرف -أي البطّانية، ويد المقشّة، والمناشف، وأدوات المطبخ- تصير الاحتمالات بلا نهاية. فعبر مخيلتي، كان بمقدوري أن أصبح الكابتن مورجان قرصان الكاريبي، أو فارساً، روبنسون كروز، أو جندياً لاتفيّاً قديماً.

علمت البارونة بلعبة التّقمص خاصتي، حتى إنها كانت تجاريني في بعض الأحيان، فتفتح الباب وتُغلقه وكأنها شبح، أو تصنع إيقاعات مُخيفة بالضرب على الكرسي. وكنا نرمق بعضنا بعضاً بنظرة تأمّرية، حيث تضع البارونة إصبعها أمام شفّتيها في إشارة للصمت، وتخطو بحذاءها طويل العنق في حذر، ثم تتسلل بهدوء للخارج مثلما دخلت.

تكفّلت العمة ألما بالطبخ، والتنظيف، وغسيل الملابس، وكانت تُقدّم نفسها للغرباء بصفة مديرة المنزل. لكنها لم تكن تحتل البارونة، ولا مُجرد رؤيتها، وكانت تصفها بالألمانية المجنونة في غيابها، كما هدّدت مرة في الأسبوع على الأقلّ بأنه "إذا استمر ذلك، سأرحل". ولم تكن لديّ فكرة في ذلك الوقت عما تعنيه بذلك ولم أحاول اكتشافه.

لم تطرأ تغييرات ملحوظة على حياتنا، فبينما واصلت العمة ألما إطلاق تهديداتها. واطّبت البارونة على تصرفاتها غريبة الأطوار. إذ كانت ترتدي سراويل ركوب الخيل، والأحذية الطويلة إلى الركبة صيفاً وشتاءً. كما دخنت السجائر وارتدت ربطات عنق رجالية. وفي الوقت نفسه، كانت تتجول بشعرها المُموج، مُدثّرة بشذا عطورها المحفوظة

داخل قَنان صغيرة. لقد وُلِدْتُ وترعرعت بنفس الدار، كما عاشت فيها خلال الحرب الكُبرى والفوضى التي أعقبت انتقال السلطة.

لم تحظ البارونة بعائلة. وبشكل عملي، فإن الدار لا تزال ملكاً لها. أما علاقتها بجدي فكانت مُعقدة، فمن ناحية، كان جدي مُستأجراً عندها، ومن ناحية أخرى، فقد عملت البارونة لدى جدي مديرة لأعماله.

لقد وقعت مقبرة عائلتها بمدفن على قمة تلة صغيرة بحديقة المنزل، كان عبارة عن سرداب خرساني بباب من الحديد ويحرسه أسدان من الرخام. وقد دُمّر الباب الحديد في عهد بيرموندت، وتصدّعت التوابيت الحجرية. وفي المقابل، فقدَ الأسدان رأسيهما على يد البلاشفة. وعندما كنت في المدرسة الابتدائية حُرِبَ القبر من قبل بعض ”المُشاغبين“، الذين دفعوا أغطية التوابيت إلى الأرض، وأشعلوا النيران أمام الباب، تاركين أربع أو خمس جماجم عند العتبة الحجرية. كما نثروا بقية العظام على امتداد واجهة القبر، بجانب الأسمال الرثة وكسر الدانتيل. فكان ذلك أشبه برُكام انفجار.

التقطت البارونة الأجزاء كلها، ورتبتها بشق الأنفس، ثم نظفتها وأعادتها إلى الأكفان. حتى الجماجم رتبها حسب جثث أصحابها، وقد سألتها إذا كانت متأكدة من أنها قد وزعتها بالطريقة الصحيحة. فماذا لو أنها أخطأت وخلطت بين الجماجم؟

”أوه، لا“ أجابتنني، أنا أعرفهم، فهذا بودو، وهذه يزيلوت، وانظر هذا أولريش وذاك أوغسطين.. لقد نسيت العدّ من كثرة ما توجب عليّ إعادتهم! يُمكنك القول بأن عظام البشر فريدة من نوعها تماماً مثل البشر أنفسهم“.

”لكن، ماذا لو لم تكوني هنا؟“.

ضَحكتُ البارونة ضحكة ماكرة، وأشارت بشفرتنا السرية حيث ضغطت سبابتها فوق شفيتها قائلة ”هذا بالضبط سبب وجودي هنا“، كانت البارونة تُخيفني بعض الشيء، لكنها أيضاً، كانت تجذبني إليها بطريقة يصعب فهمها.

لم يكن لغرفة البارونة مثل الجناح الخاص بنا، فكانت عبارة عن كهف من الأسرار، حافل بالكنوز الاستثنائية والغريبة، حيث توفّر للبارونة دائماً صندوق جديد لتفتحه، أو دُرج سري آخر داخل خزانة من طراز لويس السادس عشر. حتى إنه بإمكانني تحيّل خطابات مكتوبة بالريش، ومختومة بالشمع المُذاب. كما يمكنني تثبيت وسام استحقاق حقيقي صادر عن دوق كورلاند فوق معطفي، أو تعليق ميدالية حقيقية لجمعية الماسونيين الأحرار السرية حول رقبتني. لم أكن أفهم الكثير من أحاديث البارونة معي، لكن حتى ذلك خلق جواً متوافقاً مع شخصيتها؛ ضحكها المكتوم عند استكشاف الأشياء الغريبة، أو ميلها العجيب للنوم فجأة أثناء الحديث ومداعبة أذني بلطف، بل في غاية اللطف بطرف إصبعها.

لم تستعمل البارونة مصابيح الزيت ولا الغاز، بل استعملت الشمع. شمعة واحدة في بعض الأحيان، وأحياناً اثنتين أو ثلاث. حتى اكتظت غرفتها بالشمعدانات.

”لا أطيّق الزيت ولا الغاز“ قالت، ”عندما تدع رائحةً خبيثةً تدخل الغرفة فإنها تطغى على كل شيء آخر. انظر، كم هي جميلة رائحة خشب الصندل! أو ذاك الدفتر المصنوع من الجلد. تحترق الشموع بُبُل، ولكلُّ منها طابعه الخاص“.

يُمكنني رؤية الشموع داخل غرفة البارونة وهي تُومض فوق
شمعداناتها الفضية، بل أستطيع حتى أن أستنشقها وهي تبكي بدموع
من الشحم المُنصهر الأصفر، بينما تتمايل أفكارني في صور مرحلة مثلما
تفعل أبخرة السجائر التي تدوم بعد انطفاء اللهب.

(2)

هل تعتقد أن القرن الثامن عشر هو جزء من الماضي السحيق؟ لكن، ربما لَمَسَ مقبض الباب ذاك، شَخْصٌ عَرَفَ فولتير شخصياً، أو الماركيز دو ساد، روبسبيرير أو ديدرو، كاليوسترو، أو كاثرين العظيمة، كانط أو مونهاوزن. لقد كان ذلك بالأمس فقط.

صحيح، لقد اختفت محارق الساحرات، لكن التنوير والفكر العقلاني ما زالا مُختلطين بالشعوذة والسحر، ويذهب المتعلمون إلى مجالس تحضير الأرواح، مُتبعين شعائر غامضة بغرض الوصول إلى حقيقة أسمى.

تزهو الخيمياء، ويضيق العالم بالمؤمنين في القوى السرية، ورموز القبالة، و"حجر الفلاسفة". وبينما يُراقص الرجال المهندمون السيدات الأنبيقات برشاقة في القاعات السابحة تحت أضواء الشموع، وتتساقط قطرات الشحم الساخنة من الثُريّات فوق الأعناق المُنخفضة لفساتينهن. يهتاج مصاصو الدماء العِطّاش في توابيتهم المدفونة داخل الأقبية الباردة، تعتصرهم الرغبة في التسلل ليلاً من مقابرهم وافتراس الأحياء.

ثم سرعان ما تصعد الميكنة على مسرح العالم، مع تطوّر المحركات البخارية. يُوجد خلاف حول تصنيف المقصلة -يربط البعض بين اختراعها ونهضة الميكنة، في حين يربطها البعض بتأثير الحركة الإنسانية المُتزايد، ثم هنالك الماسونيون الأحرار وأصحاب الصليب

الوردي- أبطال أوروبا الموحدة، وأصحاب الهوى نفسه: أممية أشقاء
الفكر باسم "التنوير الروحاني والرفاة".

اكتسبت العلاقات طابعاً مُفتعلاً ومُتكلفاً. وكلما ارتقت الدائرة
الاجتماعية، تداعى الشعور بالخجل. فداخل منازل النخبة والمحاكم
الملكية، صار الزواج غريباً مثل تنورة الكرينولين الداخلية المنفوخة،
والتي صارت ترتديها النساء المُبالغ في زينتهن، أما الأخرى فلم
يكن يمس أفخاذهن سوى الهواء، وأصبحت الملابس الزائدة لأصحاب
المرض والعجائز.

تحظى الخليلات والعشيقات بالاحترام، ولم يعد الزواج أكثر من إجراء
قانوني، في حين "يُجرب" الرجال والنساء بعضهم بعضاً مثلما يُجرب
المرء صنفاً جديداً من البسكويت.

تُرى، هل أنا مخطئ؟ وهل من الحُقم التحدث عن عصور فاضلة وأخرى
فاسقة؟ هنالك اعتقاد بأن التوازن الكوني مُصان بفعل توازن قوى الإيجاب
والسلب، وربما يحتوي المجتمع البشري على توازن مُشابه بين كل من
الدوافع الإيجابية والسلبية، والتي تتبدل مظاهرها فقط دون الجوهر.

لقد دُوّنت مغامرات جوزيبي بالزامو، أو الكونت أليساندرو دي
كاليوسترو، أو الكوبتا العظيم Great cophta كما كانوا يدعون، إلى
درجة أن إضافة صفحة واحدة أخرى إلى تلال الوثائق المكتوبة عنهما،
ستكون أشبه بتسلق قمة الجبل الأبيض لوضع حفنة من الرمال فوقها.
لا أنوي الحديث عن كاليوسترو لشيء سوى لأنني أرغب في لفت الانتباه
إلى أولئك الذين لم يجدوا بعد مكاناً بالأرشييف. وكذلك، التأكيد على
مجموعة من الحقائق قد تثير الاهتمام، وتُشجّع الناس على التأمل في
الحاضر والمستقبل.

في 21 مارس من عام 1779، وفي إحدى جلسات استحضار الأرواح التي عقدها كاليوسترو في يلجافا (ميتاو) على ناصية شارع أودين على الجانب المقابل للكنيس اليهودي، كانت فايتروت فون بريغن - التي تزور ابنة عمها بنفس المدينة- تتبّع مصير زوجها النقيب إبهارت فون بريغن، والذي اختفى في الحرب ضد الأتراك منذ مدة طويلة.

تنسب فايتروت إلى منطقة فيدزيم؛ وهي من الفرع البلطقي لعائلة ليغن الألمانية. كما كان إبهارت فون بريغن، نبيلًا من فيدزيم المنضمة حديثًا إلى إمبراطورية النمسا-الروسية، وكان ينحدر بدوره من عائلة من المحاربين الساكسون الذين قاتل أسلافهم منذ الحروب الصليبية بفلسطين.

قاتل إبهارت ضد الوثنيين الأتراك، تحت الراية الروسية، فترقى سريعًا: من مُتدرب إلى مُرشح، ثم حامل راية، وملازم أول. وعندما تزوج فايتروت فون هان، سليلة ليغن من ناحية أمها، كان في الخامسة والعشرين من عمره، وقد بلغ رتبة نقيب والقائد العام لفوج فرسان الدوق الأكبر قسطنطين. لكن فجأة، انتهى كل شيء.

كانت المعركة الأخيرة قبل معاهدة القسطنطينية حاسمة لمصير الضابط الشجاع. ففي خطاب مواساة، أرسله اللواء الكونت سوفرين علمت البارونة أن فون بريغن مات بشرف في القتال.

أصابته -لسوء الحظ- دانة مدفع لدرجة أنه "لم يبق شيء لدفنه".

لم تستوعب البارونة الخبر، لدرجة جعلتها تنكره. فهل يُعقل أن يختفي إنسان من الوجود حتى لا يبقى شيء منه؟ لا مهماز، أو أزرار، ولا حتى إبزيم حزام، هل هذا ممكن؟ بل هو الرُعب بذاته. لقد اعتقد

قدامى اليونان والرومان بأن الجثة غير المدفونة تظل هائمة على امتداد نهر ستيكس لمئات السنين، دون أن تجتازه، وقد اعتقدوا بأنه لا بدَّ على الأقل، من نثر ثلاث قبضات من الرمال فوق جسد الميت. وأن مديني الضرائب، ولصوص المقابر، والمُنترحين والخونة هم فحسب من لم يستحقوا شرف دفنهم. فلماذا وجب على إبهارت مُشاركتهم في هذا العقاب؟

تحت ضوء شمعة داخل مجلس الأرواح، حدّق الكوبتا في كرتة البلورية، هامساً بالتعازيم بصوت خفيض، ثم مسح العرق الذي على جبينه، وتحدث بصوت مكروب:

”البارون على قيد الحياة، إنه فقط لا يستطيع الوصول إليك“.

ثم أعلن كاليوسترو فجأة انتهاء الجلسة، وغادر مُتجهًا إلى محفل ”المُنتمين“ المصري. وبينما أشفق الرجال بالغرفة على البارونة المضطربة مما سمعته للتو، فإن غالبية النساء تبعن كاليوسترو. إن الفكرة التي سبق أن اقترحها، أي تشكيل محفل ماسوني في يلجافا، يقبل عضوية النساء، كانت في جوهرها توددًا أنيقًا لهن. والتودد، كما هو معروف، هو الخيار الأفضل لكسب قلب امرأة.

وبعد أن تماكنت نفسها من أثر الصدمة، اتجهت البارونة إلى دار ضيافة النبلاء لمقابلة كاليوسترو، حتى تعرف المزيد عن مصير زوجها. لكن كاليوسترو أحبط مسعاها، فخلعت البارونة خاتمًا ماسيًا من إصبعها وعرضته عليه.

”إنك تغرينني تمامًا مثلما أغرى الشيطان مُخلصنا“. ابتسم الكوبتا

العظيم ابتسامة خبيثة. ”لستُ كُلِّي القدرة، وإنما عليّ التقيد بإرادة القوة العليا“.

”أيها السيد المُحترم، إنها مسألة حياة أو موت“.

دسّ الكونت الخاتم في جيبٍ سري أسفل ربطة عنقه التي زينت معطفه المخملي.

”سواصل جلسة استحضار الأرواح بالغد“.

في اليوم التالي، اكتظت القاعة بالحضور، ومن قصر يلجأفا؛ حلت أنا دورثيا الشابة خطيبة الدوق بيتر بيرون ضيفةً على المجلس قبل وقت قصير على بدايته. لقد طلب كاليوسترو من البارونة أن تصبر، إذ تتطلب أمثال تلك المهام العسيرة، قدرًا رفيعًا من الحساسية صعبة المنال.

أحسّ الجمهور بشيء ما، وكانت السيدات المختنقات بالمشدات الضيقة يلهثن بأنفاس قصيرة، ويُحركن مراوحهن بعصبية. أما الرجال فبللوا أنوفهم وشحوم آذانهم بالكولونيا.

وأخيرًا، التقت عينا فايتروت فون بريغن القلقة بعيني كاليوسترو، ففهمت أن الساحر مستعد. ومن جديد، تأرجحت الشمعة الوحيدة بالغرفة أمام ناظرها.

”إذا اكتشفت الأرواح بأن زوجي حي، لكنه عاجز عن القدوم إليّ، فهل تتلطف الأرواح وتسمح لي، عبر خادمها المُبجل، بأن أعرف في أي مكان يكون البارون الآن، وماذا حدث له؟ رجاءً، أتوسل إليك“.

احتلّ كاليوسترو مكانه خلف الشمعة. ومن جديد، سألت خرزات

العرق اللامعة فوق جبهته المرشوشة بالبودرة. وهذا مفهوم بالنظر إلى حرارة الغرفة، وحيث كان الجميع يتعرق أيضاً. لكن كاليوسترو سحب منديلاً حريراً من كُمّه، ماسحاً العرق من على جبينه، ثم رمى المنديل في الهواء بدلاً من إلقائه على الأرض، ليمتد القماش الأبيض ويرتفع كطائرة ورقية، وينكمش عند اصطدامه بالسقف، وأخيراً يتهاوى بهدوء على كف كاليوسترو الذي تراقصت عيناه واهتزت رأسه من جانب لآخر لوهلة. سَكَنَ بعدها تماماً، وكما لو كان يتلو فقرة من كتاب، تحدث بلامبالاة باردة قائلاً ”حيث كان هنالك اثنان، الآن هنالك واحد، هليون، مليون، ألبيرانيون“.

”يا أوزوريس المهيب! وأنوبيس المهيب! وباستيت المهيبة! أيتها الأرواح الحارسة! حيث كان هنالك اثنان، الآن هنالك واحد..“.

تداعى جسر الأمل الذي امتد مؤقتاً فوق الهاوية، تاركاً فايتروت فون بريغن مندهشة، ومُحِبطة، ومُنكسرة. لقد حاولت استجواب كاليوسترو عقب المجلس، على أمل إيجاد بعض التفسير لكلماته الغريبة، لكن دون جدوى. فقد أجابها الكوبتا العظيم قائلاً: ”استمري بالبحث!“.

لم تحظ البارونة بالسلام. لأن نقيق الضفادع وعويل القطط حرماها الراحة، ومن ثم، فقد غادرت صباحاً رفقة وصيفتها بون سبريت صوب ريجا مُستقلتين مركبةً جماعية، في رحلة قصيرة مُرهقة توافقت مع مزاجها الحالي.

اندفعت الجياد مع إشارة البوق، وتقدمت بسرعة مُروعة ناثرة الطين والحصى. يُشاع أن ملك فرنسا يُخطط لحظر المركبات في المناطق حيث تشكل خطراً على المجتمع، وقد تناقلت الصحف القصص حول الأبقار، والكلاب والبشر الذين دهستهم تلك المركبات. فبينما تسير

العربة على مَهَل، تقطع المركبة الجماعية الطريق بشراهة وحشية.

ذهبت البارونة إلى دار فروسية ريجا، بهدف التقصي عن زوجها البارون. فأخبروها بنفس الكلام عن أنه قد توفي في ميدان المعركة قرب مدينة كالاماخاتشا، وأن مُعاهدة أُبرمت مع تركيا، وعلى إثرها دُفِن القتلى، وأُطلق سراح الأسرى، كما عاد الفوج لثكناته بمدينة سان بطرسبرج.

”هل يُمكن استقصاء مزيد من التفاصيل؟“.

”في مقدور البارونة مُراسلة القيادة العامة أو زيارة مكتب القائد العام، إن لم تكن قد فعلت ذلك بالفعل“.

”لكنهم مستمرّون في إرسال رواتبه إليّ“.

”بلى، فهذا معاشك كأرملة على الأرجح“.

”لا“ هزت البارونة وجهها الطفولي.

لكن الوجه الطفولي لم يكن وجه طفلة، بل وجه اعتيادي لأنثى. إن البارونة في السابعة والعشرين من عمرها، أسفل باروكة كبيرة على الموضة، تعلوها قبعة أكبر.

”عن أي شيء تتحدث! لقد أخبرني أحدهم أن البارون حي! وحتى يُعرف قبره فإنني...“.

هز مستشار دار الفروسية كتفيه، ثم اعتدل مُطرقاً برأسه وباروكته في تواضع، كما لو أنه يستعرض ضفيرته المعقودة بمؤخرة رأسه.

وسرعان ما كتبت فايترت فون بريغن خطاباً إلى مكتب الدوق

الأكبر، ومن ثم قررت انتظار الرد القادم من سان بطرسبرج هنا في أحد فنادق ريجا. وقد استلمته بالفعل بعد أسبوعين. لكنه لم يزد عن خطاب الكونت سوفورين في شيء. سوى في عبارة وردت بنهاية الخطاب، ولفتت انتباه البارونة، ألا وهي ”أثناء اجتياز النهر، ضربت قذيفة تركية القارب، الذي كان ركابه هُـم: النقيب إبهارت فون بريغن، والبارون بارتولوميس أولست فرايهر أوف بورتنيكي، رفقة جواده“.

والآن، ليس أمامهما سوى العودة إلى المنزل، ففي مرحلة ما، مثل ذلك كل ما رغبت البارونة في أن تفعله، لكن العبارة التي تحكي عن القارب، التصقت بذهنها. لقد كانت مُخطئة في تعقب آثار البارون بمفرده. فقد اتضح أن عائلة أولست أوف بورتنيكي تعاني من نفس المشكلة، وربما يُساعدونها في فهم ما حصل.

وذات نهار جميل من إبريل، ومدفوعة بإلهام مفاجئ، استوقفت البارونة عربية من أمام مكتب البريد، قاصدة بورتنيكي رفقة بن سبريت. امتلأت الطريق بالحفر والمطبات التي أعقبت ذوبان الجليد، حتى إنهم استبدلوا الجياد ست مرات إلى أن وصلت العربية أخيراً إلى بورتنيكي قبل منتصف الليل بقليل.

لكن، تبين أن عائلة السيد أولست لم تعد تسكن في نفس المنزل الواقع على مسافة كيلومتر واحد من الكنيسة. وهكذا، ساءت معنويات البارونة، فلم تعد واثقة في صحة ما تفعله، أي أن تمر فجأة على منزل أشخاص غرباء في منتصف الليل، وبأن تنكأ جروحاً ربما كانت في طريقها للشفاء بالفعل.

كانت ليلة هادئة، ومرتسمة بظلال منحنية، حيث كشف القمر عن المرج العريض الأخضر والأكواخ التي حوله. وقد خطر للبارونة أن فيدزيم

سوف تأخذ وقتًا حتى تتعافى من سنين الحرب والخراب الطويلة. لكن ليس في مقدرة الجميع بناء المنازل الجديدة مثل بارونات آيزاكراوكل، وبيلافا، وستوكمانيس. بل إن كثيرًا من العائلات النبيلة غادرت منازلها إلى بيوت المزارع. أما الحانات، فكان يُعاد بناؤها بالطبع، هي ومجالس الأخويات الدينية كذلك.

هاجت الكلاب حول العربة، ثم خرج من أحد المنازل رجل ذو لحية، يرتدي معطفًا طويلًا فوق قميص وسروال كتاني أبيض، حاملاً سيفًا بدا في يده أشبه بالعصا، فابتعدت الكلاب بمجرد قدومه.

”اسمح لي بأن أقدم نفسي. أنا فايتروت فون بريغن، اعذرني من فضلك على إزعاجكم في مثل هذا التوقيت، لكن هل بإمكانني التحدث مع الليدي بارتولوميس أوف بورتنيكي؟“.

تفحص الرجل عيني البارونة الحادثتين، دون أن ينبس ببنت شفة، وخشيت البارونة من أنه لم يفهم حديثها بالألمانية. لكن اتضح العكس.

”للأسف، لن يكون ذلك ممكنًا، لأن الليدي تعيش في ريفال.“.

”حقًا؟“ لم تُخفِ البارونة قنوطها.

”لكن، ربما قد يساعدك الفرايهير.“.

”الفرايهير؟“.

”نعم، النقيب أولست.“.

”تقصد بارتولوميس أولست؟ لكن ... معذرة، فأذناي تطنان من أثر

الرحلة ... هل السيد هنا؟“.

” نعم، إذا جاز القول“.

لقد داهمها الخوف والقرف، كما لو أن عنكبوتًا كان يسرح فوق صدرها العاري. فكيف يتحدث المرء إلى شخص أصابته قذيفة مدفع؟ وفي الوقت نفسه، أدركت أن رحلتها لم تضع هباءً، وأن الأمور اتخذت مسارًا جديدًا، وأنها على وشك اكتشاف شيء مهم.

ساعد ذو اللحية السيدتين على مغادرة العربة، فلم تحتل البارونة الوقوف من أثر الرحلة، وربما أيضًا، بسبب ما سمعته للتو. وقد رفعت فستانها ومعطفها حتى تعبر من الباب الأمامي إلى داخل المنزل الذي اكتسى بالظلام وبمزيج من الروائح، فلم يُدهشها ذلك، لأن المكان لم يكن قصرًا، وبالتالي فإن علف الماشية كان يُعد بالضرورة في المطبخ.

انتمت فايتروت فون بريغن إلى القرن الثامن عشر، حيث تعودت على وجود طبقة كثيفة من الروائح التي تُحيط بأي نشاط يقوم به البشر -تلك الروائح التي يُمكن كبحها فقط- بقوة العطور الباريسية أو العبير المحلي للقصبة العطري المطحون وحشيشة الدود المُجففة.

غادر ذو اللحية لبرهة، ثم عاد وهو يحمل شمعدانًا نحاسيًا ذا شموع دهنية مُتقدة. ولذا، صار بمقدوره الآن مشاهدة الغرفة العريضة، بدعائمها الخشبية المُنخفضة، وفي وسطها مائدة طويلة مع مقاعد على كلا الجانبين. بالإضافة إلى ساعة إنجليزية صغيرة ذات حامل، ولوحة زيتية مُؤطرة لرجل في زي فارس.

” سأذهب لإعلام السيد بمجيء السيدة؟“.

”بارونة فون بريغن“.

” فون بريغن“ تتمم ذو اللحية، وقبض على شمعة مثبتاً إياها فوق رأسه، ثم اختفى عبر الباب الموجود بنهاية الغرفة.

ومرة أخرى، داهم البارونة شعوراً عارماً بالخجل، أو ربما الغرابة. وذلك بالرغم من انعدام أي بوادر قد تدعو للقلق. في ما عدا الأصوات المعتادة لاحتكاك كرسي بالأرض أو صرير الأرضية. إلى أن عاود بروميثيوس الظهور مجدداً مع شمعة فوق رأسه.

” تفضلي بالجلوس، سوف يأتي السيد حالاً“.

هذه المرة، اختفى الرجل ذو اللحية عبر الباب المؤدي للفناء، وانتظرت البارونة عاجزة عن التقاط أنفاسها، فكاد المشد الذي ترتديه يخنقها، كما واصلت جلد نفسها بالتفكير، دون أن تعلم من أي شيء بالضبط كانت تحاول حماية نفسها.

وأخيراً، فُتح باب الغرفة فبرز منه جسم أحذب عبر المدخل المُنخفض، كان يختلط بظله الخاص. وقد اعتدل في قامته بمجرد أن عبر الباب، فبدأ أطول من السابق، بل أطول بمراحل، يا إلهي، يا له من قوام. كما كان شعره رمادياً طويلاً أشبه بشعر مستعار، وتلتمع أسفل شاربه المفتول ابتسامة بيضاء وسنٍ أمامي مُعوج، أمّا أنفه فكان بارزاً، وحاداً، ومشحوناً كحجر، ولم تلاحظ بوجهه أي ندوب.

حدقت البارونة فيه بعيون مُتسعة، فكانت كالذي التقى دَباً على قارعة الطريق. وإن كانت تُبجل هذه الاحتمالية في ما مضى، أي مقابلة الدب، حتى إنها كانت تتمناها. لكن لما صار الدب حقيقة أمامها الآن، فإنها لم تستطع استيعاب ذلك الوحش غير المؤلف، قانعة بالتساؤل عما قد يحدث بالمستقبل.

”مساء الخير سيدتي البارونة، إنه لشرف لي“ كان صوت النقيب مُنتظماً وهادئاً. ولم تهتز الطلاقة الدافئة لكلماته، مع القليل من التكلّف الذي يصعب ملاحظته في نبرته ، كما لو أنه يُداعب حصاناً، أو طفلاً جالساً على حجره. اقترب النقيب من البارونة، وانحنى مُقبلاً يدها، في لفّة مألوفة ولائقة هدأت من روعها.

”رجاء اعذرنا لإزعاجك في هذا الوقت المتأخر، لقد قدّمنا مباشرة من ريجا. لقد كُنْتُ بصحبة زوجي في قارب.. عندما...“.

”سيدتي، أليس من الأفضل أن تخلعي معطفك أولاً؟ لا بدّ من أنك مُتعبّة وجائعة. أحسب أنك لا تنوين مواصلة سفرك على الفور. فممنزلك، إن لم أكن مخطئاً، بعيد عن هنا“.

”لكن، ليس من المُلائم البقاء بعد منتصف الليل دون سابق إخطار بوصولنا. لقد باغتتني الرغبة في لقاء زوجتك بعد استقبالي خطاباً من مكتب القائد العام بالأمس، ذكر فيه أنك قاسيت نفس مصير إبهارت. فتصوّرت أن زوجتك سوف تكون حزينة مثلي، لكن رؤيتك بدلاً منها كانت مفاجأة عظيمة“.

هزّت بون سبريت رأسها للمرة الألف، مُصدقةً على ما قالته البارونة للتو، وهي نائمة على الأرجح.

”بالتأكيد أتفهّم ذلك! سيكون غريباً بالنسبة لزوجة نبيلة الذهن مثلك أن تتصرف بطريقة أخرى. فعلاً، لقد عبّرت النهر بصحبة بريغن، وعموماً فإن اجتياز الأنهار ليس عملاً ممتعاً. لكن لماذا ما زلنا واقفين! فالضيوف سيبقون ضيوفاً بغض النظر عن التوقيت“.

صَفَّقَ النقيب بيديه.

”إدا! كاسبرز!“.

حضر الرجل ذو اللحية إلى الغرفة، في كامل هندامه المَكُون من سُترة وحذاء طويل. وتبعته امرأة مُسنة في ملابس رمادية بسيطة لكن مع بُونيه حريري رائع يغطي رأسها. ويبدو أنها ارتدت ملابسها في عجالة، إذ برزت مشابك شعرها من البونيه.

”أعدوا السفارة! وأنتِ يا إدا، أحضري بعض النبيذ، لكن قبل أي شيء، اصطحبي السيدات إلى حجرة الضيوف حتى يسترحن من عبء الطريق، وحيث سيبتن الليلة أيضًا.“.

كانت البارونة مُرتبكة.

”إننا...“.

”لا داعي للجدال سيدتي! فقط إنسان متوحش من سيتركّن ترحلن مُباشرة بعد هذه الرحلة الطويلة، وفي تلك العتمة. وقبل هذا وذاك، فإن لكِ عذرك“.

”عُذري؟“.

”نعم، إنه عذر الزوجة المُحبة. ولذلك، لن تفكري بالرحيل حتى تحلّي كامل اللغز“.

”لا، لن أفعل. بون سبريت! بون سبريت!“.

”هل رأيت! كان فولتير محقًا، فالمنطق لا يفشل أبدًا“.

حدّق النقيب بالبارونة مُداعبًا أطراف شاربه المفتول، وكأن الشارب

نفسه مُبتسماً مثل شفاهه الخشتتين. ثم حضرت البارونة بعد قليل إلى العشاء، وهي ترتدي ثوباً بسيطاً مُقلماً، وأسود اللون بالطبع.

أُعدت الطاولة الكبيرة لثلاثة أفراد، لكن بون سبريت اعتذرت بحجة توقعها من الرحلة.

وبينما كانت إذا تُقدم الطعام، انطلق صوت أشبه بالرصاصة، ما جعل البارونة تصرخ.

”لا بأس، لا بأس“ طمأنها النقيب، ”إنه ذلك النبيذ الفرنسي الجديد، الشامبانيا، هي مفعمة بالحوية لدرجة الانفجار في حضرة السيدات.“ فارت الكؤوس برغوة بيضاء.

”كاسبر، إذا، أليس كل شيء على ما يُرام! يُمكنكم الذهاب إذا“، أدار النقيب رأسه مُخاطباً إياهم، ثم استقام مُجدداً ناحية البارونة. ”الكأس الأول، في صحتك!، يحظى حجاج الصليب بمكانة مُعتبرة في هذا العالم. لكنني أمتدح حُجاج القلب من أمثالك! وجميعهم مدفوعون بالقوة نفسها. في صحتك وصحة الحب، أيتها البارونة! عسى ألا تضيع رحلتك هباءً.“

اقترب النقيب منها، ضارباً كأسيهما.

”أوه، لذيذ! كم من متعة في هذا الكأس!“.

ثم أكلوا، وشربوا، وتسامروا، وشعرت البارونة بأن القلق الذي سجنها حتى اللحظة داخل قوقعة خانقة، قد تصدّع وانحل. نعم، هي لا تزال مُضطربة، لكن لوعة حالمة وحلوة رغم المرارة، دون ضغط، أو خجل. لقد أرادت أن تُعبّر عن نفسها، وأن تحكي عن مشاعرها نحو إبهارت،

وأن تُشارك خواطرها وخبراتها. وقد اتضح أن النقيب أولست إنسان ودود، ومُحادث بارع.

لقد تعارفنا بواسطة عمتي، الكونتيسة سترافنسكا، خلال حفلة راقصة عقدها البارون مجدنس. كان إبهارت يؤدي رقصة البيرغوردين ببراعة. واحتفظ بصحبتني حتى رقصنا الكُونتر الإنجليزية والإيكوسيز. وعندما حان أوان افتراقنا حدثته: ”أهذا كل شيء؟“، فأجابني: ”لا، فقد وقعتُ في الحب“. واتفقنا أن يترك الجيش عقب زفافنا. لكنه أجابني بأن شرفه العسكري يتوقف على بقاءه بالجيش إلى أن ينتصروا على تركيا. ”كم انتظرتُه! وكي أمل ورعب..“.

هل تبوح البارونة بكل هذا للنقيب أولست؟ بالتأكيد هي تفعل، لكنها تبوح أكثر لنفسها. إن حكايتها تلتهمها، وبمجرد أن تنطق بها، تبدو الكلمات وكأنها تقتطع أجزاءً منها فترميها بعيداً. لكن، ربما هي تتحدث بدافع الجُبْن، أو الخوف، أو بغرض تعيين حدود المجهول، والذي قد يؤول لأفضل مما كانت على وشك سماعه.

جلس النقيب في وضعية هادئة، مُتكئاً بمرفقه على الطاولة، وسانداً فكه الكبير المربع بإحدى يديه، بينما حمل الكأس بالأخرى.

”لماذا أضيع الوقت برواية قصتي، في حين أن ما أرغب به حقاً، هو الإنصات إلى ما ستقوله.“

”لا تصير الحقيقة أقل مصداقية إذا ما وُضعت بجانب حقيقة أخرى.“

”سيدي النقيب، إنك تعرف سبب زيارتي.“

للحظة، تحوّلت نظرة أولست عن البارونة، فسحب يده بعيداً عن فكه،

ثم وضع الكأس على الطاولة.

ماذا ينوي؟ لا شيء، لقد رفع يديه في صمت، مادًا كفيه نحو البارونة، كما لو أنه يقول: حسنًا، طالما أن هذه رغبتك.

”سأبدأ بمقدمة مختصرة..“. شعرت البارونة به يحدق فيها مُجددًا، مُترصدًا إياها، كما لو أنه قد رفعها للتو من على الأرض، سامحًا لها بسيطرة محدودة على نفسها. مثلما كان والدها يرفعها من إبטיها، فلا تقدر على أكثر من تحريك ذراعيها وساقها في الهواء. وهو إحساس مُخيف ومُثير على السواء.

”جميعنا قرأنا القصة الإنجيلية عن محاكمة المسيح أمام بيلاطس البنطي، عندما سأل بيلاطس ابن الرب قائلًا: ”ما الحقيقة؟“ وهو سؤال رائع وثمانين بحق، حتى في عصرنا هذا، عصر المعرفة الكلية والتنوير. فكانت الإجابة مُبهمة، لأن الحقيقة قد تكون مُجرد فرضية لم تتم إزاحتها بعد. حتى عندما نستعمل مصطلحات من قبيل ”ممكن“ و”مستحيل“ بوصفها حججًا، فإننا نُقيد أنفسنا مثلما يقيد الدجاج نفسه بركن الحظيرة.

قبل اكتشاف لغز الدورة الدموية، اعتقد الجميع بأن الإنسان لم يكن أكثر من حقيبة من الجلد مليئة بسائل أحمر حفظ جسده من الجفاف، وعظامه من التفكك. ولو صرّح أحدهم في ما مضى، بأن القوة المنبعثة من برق العاصفة قد يُعاد إنتاجها بطرق صناعية، لحسبوه معتوهًا. ينصح الأطباء الناس بحقن أنفسهم بـجُدريّ البقر كمصل ضد الجُدريّ الشائع. فهل يبدو هذا معقولًا؟ لا! لكن المُحصنين بالمصل لا يُصيبهم

المرض. مثال آخر: اعتاد الناس على واقعة أن مدام دي بومبادور عشيقة لويس الخامس عشر، كانت بلا أسنان، لكن هل تعلمين بأنه ذات يوم مشرق، ابتسمت السيدة دي بومبادور مُجددًا كعذراء في ريعان شبابها؟ ليتضح أن الأسنان لا يمكن خلعها فحسب، وإنما زراعتها أيضًا.“

”ماذا تقول؟ أحقًا ذلك؟“ قطعت البارونة انتباهها العميق عبر نبرتها الخاصة المُحمّلة بالشك. فالأسنان ليست شيئًا عابرًا بالنسبة لامرأة من القرن الثامن عشر. كانت قد خلعت زوجًا من أسنانها. ومن يدري أي شيء قد يحدث لسن ثالثة؟ لكن، لحسن الحظ، لم يمكن ملاحظة الخلع طالما أنها لم تفتح فمها على اتساعه.

”نعم، أيتها البارونة، لا شيء يشيخ بسرعة بقدر المعرفة. ولسوف نشهد العديد من المعجزات في حياتنا!“

”فقط لو أن الكونت دي سان جيرمان كان ليُشاركنا سر إكسبيره! ليس من العدل أن يعيش لثلاثة آلاف عام دون أن نخبرنا كيف فعل ذلك. ربما يكون كاذبًا، وعندها ستكون القصص التي تتغنى بالثلاثة آلاف عام التي عاشها، ليست غير قصص.“

لقد ادّعى كونت دي سان جيرمان أنه حارب مع شارل الثاني ملك نابولي في 1268 ضد كورنادين في جنوب إيطاليا. ومؤخرًا في مارسيليا، قام الكونت بوصف الدرع التي ارتداها شارل الثاني خلال نفس الحرب، بينما أكد حفيد شارل من الجيل العاشر للعائلة، والذي سمع خطاب الكونت، صحة أوصاف الدرع المحفوظة بقصر أسلافه.“

”هل سبق له الزواج؟“

”من، كونت دي سان جيرمان.“

”نعم. سيكون من المثير معرفة عمر زوجته“.

”لقد سأله الكونت أورلوف عن ذلك خلال حفل في حضرة الإمبراطورة“.

”وبماذا أجب؟“.

”أجاب بأن ثلاثة آلاف عام هي شباب طويل، وأنه سيتزوج يومًا ما. ثم أضاف بأنه كان سيحب كليوباترا للغاية لو أنه عاش في ذلك الزمان، وأن نفرتيتي كانت أجمل في الواقع، حتى مع النتوء أعلى عيناها اليسرى“.

ملأ النقيب كأسيهما مُجددًا، مُفرغًا الزجاجاة تمامًا، وعندئذ ضربت فليئة أخرى سقف الغرفة بقوة.

”أوه، لو أن هذه الشمبانيا ليست عنيفة لهذا الحد“.

روّعت الفليئة البارونة إذ كانت تستيقظ ليلاً على دوي الطلقات والانفجارات في أحلامها. لقد أرادت الحديث عن الريبة، والأفكار السلبية التي تُحوّل الحياة إلى لعبة كئيبة، كما لو كانت تبحث معصوبة العينين عن إبهارت الضائع، لكنها لم تستطع سرد القصة دون أن تبكي، لقد أرادت البكاء على الفور، لكن خرجت ضحكة أدهشتها، فبدأت حيّة للغاية حتى إن الشمع رمش لها مُبتهجًا.

فرغ النقيب من كأسه، وظل صامتًا لبرهة قبل أن يستأنف حديثه، وقد دفع كتفه القوية للأمام كي تشد من أزر الأخرى، كما لو كان يكافح في السباحة عكس التيار.

كان المصطفى جبران، جراحًا مسيحيًا من أصل لبناني. أرسله والده

في سن العاشرة للدراسة في إنجلترا، وبعد تخرجه من كامبريدج، اختار جبران أن يعمل في الهند، بل أن يسافر أبعد من ذلك، إلى فارس، حيث صادَق نجل المُفوض الدبلوماسي الروسي، ثم تزوج أخته.

”أثبت جبران أنه جراح ماهر. وعندما أنجبت الكونتيسة جاجارين طفلة حية على يديه، تحوّل جبران إلى حديث الساعة في صالونات المجتمع الراقى. لكنه سقط في ورطة كبيرة حينما أنقذ الأميرة الجميلة فولكونسكي من الفضيحة، وذلك بإجرائه عملية إجهاض محظورة بحكم القانون والكنيسة. لذا تدخّل أصدقاؤه وساعدوه حتى يصبح جراحًا بالجيش، وبالفعل فقد ذهب ليحارب الأتراك.“

”اسألي أي شخص بسان بطرسبرج، أو ريجا، أو حتى في باريس أو لندن، من هو جراح الجيش؟ وسيخبرونك بأنه جزّار مُبجّل ليس أكثر. فعادة ما تحدث الجروح في ميدان المعركة بواسطة الحراب والسيوف، أما التمزقات فمن الشظايا الحادة المتطايرة. أمّا الثقة بالأطباء فهي شبه منعدمة، لدرجة أن مُصابين كُثُرًا يرفضون المساعدة. كم أكتع أو أعرج رأيت داخل مجتمعاتك المسماة ”راقية“؟ أما في حالة الإصابات الأكثر خطورة، فمن قبيل الفخر والشرف أن يتمتع المصابون عن الطبيب، ويطلبوا القس.

كره جبران أثر المشراط القاسي، لأنه قد وُلد فنّانًا. فهل من مفاجأة في ذلك؟ فالعالم حافل بعازفي وراقصي الشوارع. لكنه نجح في العزف بشكل مختلف، لأنه ظل في قرارة نفسه هايدن، أو بوكريني، وكذلك لأن

المسميات لا تعني شيئاً طالما أننا نتحدث عن الموهبة.

عندما فقدَ حامل الراية لوفيفر يده خلال معركة جورجاني، أراد جبران أن يخيطنها مجدداً، والمشكلة الوحيدة كانت أنه لم يجد لون الخيط الملائم لبشرة لوفيفر، فظل مكان الخياطة أسود غامقاً واضطر الشاب لارتداء قفازات أطول كي تُغطي الجرح.

”مذهل“ صاحت البارونة ”هل كانت يده اليمنى؟“.

”بل اليسرى حسب ما أذكر“.

”حسناً، هذا جيد! فلا بدّ أن يعقد الرجال أيديهم اليسرى خلف ظهورهم في العديد من الرقصات“.

”لم تكن هذه سوى البداية. فقد تمزق المُلّازم ناريشكين إلى نصفين على يد جندي انكشاري ضخم الجثة. أما النصف العلوي، بالطبع، فسقط على الأرض هنالك. لكن النصف السفلي كان شيئاً مختلفاً كلياً! حيث علقت أحذيته بالركاب، وردفاه بالسرج كما لو أنها قد التصقت به. أما فرسته الجميلة المُرْقطة، فظلت تعدو وتهرع حاملة النصف السفلي داخل الميدان، لكن حمداً لله أنها لم تهرب إلى معسكر الأتراك.

واصل جبران العمل لثمانى وأربعين ساعة دون نوم. وقد أصابنا الدهول حينما جاءنا ناريشكين بكامله وطلب كأساً من الفودكا، عندئذ خلع القائد العام وسام سان أندري بروزفاني من على صدره وأشار إلى جبران قائلاً: لم يشهد العالم مثيلاً لهذا من قبل. لكن جبران أجاب: اسمح لي بأن أختلف مع جلالتك، فحدود الطب لا تزال مجهولة“.

”هل حدث ذلك فعلاً؟“ نطقت البارونة، ويدها متشبثتان بخديها
المُتوردين.

”أي جزء في قصتي يصدك سيدتي؟“.

”إنها مُثيرة للغاية. هذه المرة الأولى التي أسمع فيها شيئاً كهذا“.

”لحسن الحظ، يميل الجهل لأن يكون شيئاً عابراً، تماماً مثل السذاجة
في الحب. فالعالم مثير للاهتمام، بالتحديد لأنه من الممكن دائماً تعلم
شيء جديد الآن وفي المستقبل. أثناء طفولتي، كنت أقرأ الإنجيل كثيراً،
حيث تتراكم المُعجزات بعضها فوق بعض. تُرى، إذا ذكرت لك حدثاً من
النص المقدس، فهل بإمكانك أن تجزمي بإمكانية حدوثه من عدمه؟
كأن يشفق الله حواء من أحد ضلوع آدم. إذا كان الله كُلي القدرة -أنا لا
أشك في ذلك- فلماذا لم يخلق النساء مثلما خلق الطيور، والحيوانات،
والسمك؟ لماذا وَجِبَ عليه أن يشق أحد جانبي آدم مثل جراح، ويحفر
بداخله، ويخرب إنتاجاً مُكتملاً؟ لكن، أليس هذا هو النموذج الأمثل
للجراحة، وهو أن تستمر وتُطوّر ما بدا في لحظة ماضية أنه مُكتمل؟
فماذا عن الأساطير الأقدم من الإنجيل؟ عن طائر الغريفيين: النصف
أسد، والنصف عُقاب. أو عن القنطور: مُركب من الحصان والإنسان.
ترى من خلقهم؟ ولماذا خلقهم؟“.

تملمت البارونة في كرسيها. فهل كان النقيب حقاً في انتظار إجابة
منها؟ إن الغرفة حارة! غير معقول أن الموقد لا يزال مُشتعلًا. لكن
الصهد أتى من المطبخ...

”ليس للرب أو الشيطان زوجات، وهنا تكمن المشكلة. لكن حالة
مريم هي فوق الشُّبهات“.

”هل تعتقدين بأن مريم وحدها من حملت بفعل روح القدس؟ انظري هنالك، على الرف حيث كتاب أسرار القيامة، والذي يسرد ما حدث بمدينة أفينيون في عام 1317. فقد رحل الفارس فاكون لخوض الحرب ضد المغاربة، وحسب العادة في ذلك الزمان، فقد طوّق زوجته بحزام العفة المصنوع من الحديد. ثم عاد بعد عام ونصف العام، ليجد الحزام في موضعه حيث تركه، والمفتاح لا يزال مُعلقاً حول رقبتة، أما زوجته فكانت حاملاً! حسناً، دعك من فاكون. كنت أتحدث عن جبران.“

”نعم، نعم. عن جبران.“

”خلال معركة شافا، فقد مُرّشح يدعى خوستشيكوف إحدى عينيه. وكان لونها عجبياً، إذ كانت فضية تلمع في الضوء مثل حد السيف الذي يعكس الشمس. وفحصه جبران مُعلنًا أن بإمكانه زراعة عين جديدة، لكن ذات لون مُختلف. من المؤكد أن هنالك العديد من المزايا والعيوب لأن تكون شديد التميّز عن غيرك. لكن لما لم يكن باليد حيلة أخرى، فقد زرع له جبران عيناً جديدة لونها بُني فاتح كثمرة الجوز. ومن هنا بدأت المتاعب، فعندما ترك خوستشيكوف الخدمة، وعاد إلى سان بطرسبرج، حيث كانت خطيبته في انتظاره. قضيا الأيام الأولى في ثمالة ومرح. لكن بمرور الوقت، لاحظت خطيبته أن لون إحدى عينيه قد تغيّر وسألته: ”لماذا تبدو هكذا؟“ فأخبرها بالقصة: إنها العين التي زرعها جبران، فانزعجت العروس ولوّحت بيدها، واستغرقت بعض الوقت حتى هدأت. ”إذًا، فهي ليست عينك؟“، ”بلى إنها كذلك، إنها ملكي الآن“، ”لكن لمن كانت قبل ذلك؟ هل لوثني ما من الأتراك؟“، ”لا أدري، لكن لا على الأرجح.“

لكن خطيبته لم تتجاوز ذلك، وحدثته قائلة: ”يبدو الأمر وكأنك تنتظر لي كنصف تركي، يا للفضاعة! إن العين مرآة تعكس الروح“، فأجابها بأن ذلك ”يظل انعكاسًا لا أكثر، فالمرآة لا تملك تغيير الشيء الذي تعكسه، ألم تزوري قاعة كارنيفال المرايا كي تدركي بأنه لا يُمكن الوثوق بانعكاساتها“. لكن الخطوبة فُسخت، وتقدم والدا خوستشيكوف بشكوى للإمبراطورة، يُطالبان فيها بمحاكمة جبران، لكن تبين عدم مُخالفته لأي قوانين... وفي النهاية، طلبوا من جبران ألا يبتعد عن المعسكر تحسبًا لأي طارئ“.

”حان الوقت أخيرًا لحل اللغز الذي تسعين وراءه بشدة سيدتي البارونة. إن الحقيقة خجولة، فهي ذات طبيعة أنثوية، إذ تَضطرب عندما تتعرى. تمامًا مثلما يحتاج من يرى عُريها“.

”يا إلهي! عزيزي النقيب، ضع حدًا لشكوكي! أخبرني من أنا: هل زوجة أم أرملة؟“.

”من أنتِ؟ ترى، ماذا يعني ذلك: أن يكون المرء؟ وكأن الأرملة لا يمكن أن تصير زوجة، أو الزوجة أرملة“.

”من فضلك، امنحني بعض السعادة، أرجوك، أرجوك“.

”إن السعادة والبؤس كلاهما عابران. إنها في مُخيلتنا فقط، في صحة المُخيلة“.

”سيدي النقيب... اعلم بأنه أيًا كان ما سوف يحدث، فإنني لن أتخلى عن إبهارت. لأنني أحبه، ويجب أن تعلم ذلك..“.

”عسى ألا تفقدي القوة لتحببه!“.

”عسى ألا أفقد القوة أبداً!“.

”إن كأسك فارغة؟ هل شربتها كلها؟“.

”نعم فارغة. من فضلك، أخبرني! أخبرني! أنا منصتة“.

”عندما تذوب الثلوج فوق الجبال، تفيض الأنهار. ويمتلئ نهر أمور من التدفقات الجبلية، وهو يجري على طول وادٍ منبسط، عريض، وعميق. لم تكن قوات مصطفى شيقرغولي كبيرة العدد، نحو ألف رجل، لكنهم كانوا مُحصنين بالنهر. وكانت خطة الجنرال فانجل للهجوم جريئة، فخلال الربيع، يغطي الضباب الوادي كل صباح، وقد أمرنا الجنرال أن نصنع سحابة من الدخان بحرق القش الرطب على طول الضفة. وبالطبع، كان علينا بناء طوافات كبيرة عائمة كي تحمل قوارب المشاة والمدفعية، لكن القارب المذكور في الخطاب الذي لديك ليس حقيقياً، لأنني لم أركب مع إبهارت في نفس القارب، لكن بنفس الطوافة. كما اضطررنا لتثبيت ألواح مستوية على الطوافة، لأن الجياد لم تستطع الوقوف فوق السطح المُقوس للخشب.“

تحركنا في الرابعة صباحاً. لكن بالرغم من حجاب الضباب والدخان، تمكّن الأتراك من رصدنا عند منتصف النهر. ففتحوا بوابات الجحيم علينا! حيث كانت مدافعهم جيدة التمرکز، ثم هاج الماء، وأمطرت السماء القذائف“.

”دعيني أصف لك ما حدث. لأن لا شيء هامشي عندما يتعلق الأمر بالموت في ميدان القتال. بدفعة مفاجئة، تحوّلت طوافتنا إلى فوضى من الرؤوس البشرية أسفل كومة من الأخشاب. وكما ذكرت لك فإن جبران لم يكن بصحبتنا ساعة الهجوم، إذ تمركز على مسافة نصف ميل

من النهر، وقد أيقظته أصوات المدافع، فهرع إلى ضفة النهر المفروشة بالحصى وهو يدخن البايب. ومرت دقائق، ثم بدأت بعدها أكوام الخشب والرجال والأحصنة في الطواف على سطح المياه. ونادى جبران خادمه، وفحص الجنود بحثاً عن إصابات يُمكن استدراكها، فلم يجد.

لاحقاً، حمل التيار مزيجاً فوضوياً من الأطراف إلى الضفة، وقد تشابكت جثتا رجلين بواسطة حزامي درعيهما. هنا، عليّ أن أوضح لك سيدتي ما هو الدرع؟ إنه سترة معدنية ثقيلة يرتديها سلاح الفرسان، ومنها اشتق لقب فارس الدرع. وفي حين فقد أحد الرجلين نصفه العلوي، وفقد الآخر نصفه السفلي، فليس من الصعب تصوّر ما كانت ستؤول له الأمور في ظروف مُغايرة. لكن بغض النظر عما إذا كان السبب هو الحظ أو النحس - يُمكن تصديق الاثنين - فقد تواجد جبران الأعظم موهبة من بين كل مُعاصريه. فبمجرد أن اطمئن إلى أن المياه الباردة لم تُفسد خلايا نصفي الجسد، قرر إنقاذ ما يُمكن إنقاذه. وفي تلك الحالة، كانت الطريقة الوحيدة المُمكنة لفعل ذلك هي خياطة النصفين في جسد واحد“.

كان الصمت الذي أعقب حديث الكابتن أولست طويلاً ومُعبراً.
”معدرة أيها النقيب، لكنّي لا أفهم ما تعنيه على نحو تام“.
”كلانا: إبهارت فون بريغن وأنا، أصبحنا شخصاً واحداً. نصفه السفلي، ونصفي العلوي“.

قبضت البارونة على الطاولة ونهضت من مكانها بصعوبة. إذ كانت مرتبكة، ولم تستوعب ما سمعت. حتى ظننت أنها ممثلة هاوية، تجهل

حقيقة أنها تؤدي دورًا في مسرحية سخيّف.

”ولاحقًا، لم يجدوا إبهارت بين الجثث“.

”رجاءً، هل تسخر مني؟“.

”سيدتي، أنا أتفهم، فما حدث بالفعل لا يُصدق“.

”تتفهم!“.

رددت البارونة كلمات النقيب كما لو كانت مُنومة مغناطيسيًّا. لكنها أفاقت على صوتها الخاص في التو. ثم نظرت إليه كما لو أنها تراه للوهلة الأولى، فتحوّلت دهشتها العارمة وهزيمتها إلى انتباه كامل. وارتسمت أمامها نقطتان -زجاجة الشمبانيا الخضراء السميقة ورأس النقيب بشعره الرمادي الملموم للوراء في ضفيرة- وبما أن أقصر الطرق بين نقطتين هو الخط المستقيم. فقد قامت البارونة عبر حركة أنثوية بلا ريب، لكن حازمة، بوصلهما، ورغم ذلك لم تنكسر الزجاجاة.

(3)

حتى إذا سطعت الذاتُ نهارًا بقوامها واطمئنانها الكليّ، فإنها ليست بمأمن من ليلِ الأشياء. إن الأحلام تُنمّي الرغبات، وتُهوّل العثرات، وتبعث الشكوك. كما أن الارتباط بالمجتمع هو مُجرد وهم، لكوننا مُجبرين على حل أعمق نزاعاتنا الداخلية بمفردنا. لا تُوجد حلول وسطى ضمن المخطط الكبير للأشياء، وحتى ما ندعوه واقعًا ليس أكثر من كيان رمزي طالما أننا ننزلق عبر الوقت رفقة الدوافع والآثار ناظرين بلا أمل.

عندما كنت صغيرًا، تألّف جزء كبير من عالمي من الأحلام. يُمكن حتى القول بأنني قد عشت حياةً أغنى ليلاً من دون النهار. حيث جَعَلَ روتيني اليومي من النهار كيانًا عديم اللون والأهمية. لقد عرفتُ الخوف في أحلامي فقط، كما أنني لم أتعذب ولو لمرة خلال النهار؛ بينما ركضتُ في أحلامي من الوحوش الرهيبة والكوارث الطبيعية - من الصخور التي تتساقط عليّ، والأرض التي تتهاوى أسفل قدمي - كنت أسقط داخل فجوات معتمة ومن أماكن مجهولة لسبب غير واضح.

أيضًا، كنت أركض إلى أمي خلال عالم الليل الغنيّ، تجاه امرأة فاتنة تلبس فستانًا طويلًا براقًا، وتحمل بيدها طوق تدريب الكلاب. كنت على يقين أنها أمي رغم غرابة ملامحها، تمامًا مثلما كنت مفتونًا بمظهرها الغريب. لقد كانت تسير على حبل رفيع بين النجوم، ولم أرغب في رؤيتها تبتعد أكثر، بل أن تسبح نحوي مع مظلتها. وفي أحلام أخرى،

كان ساحرٌ ما يضع أُمِّي داخل صندوق فتحتني، وبمجرد أن ينتهي العرض تعود لتظهر من العدم، فينظر الجميع نحوها مذعورين. ما زلت أذكر كيف كنت أجلس بعد انتهاء العرض، وحيدياً، داخل خيمة فارغة ومظلمة، وقلبي يتألم.

لاحقاً، زارت فتيات المدرسة أحملي، وكذلك المُعلمات الأصغر سنّاً، إحداهن على وجه الخصوص، فكنا نجد أنفسنا داخل مخزن قديم ما، ربما مطحنة قديمة، حيث كانت تتسلق الطابق الثاني في حين أبقى أنا بالأول. وفجأة، تنهار بعض ألواح الأرضية ويتدلى جسد المعلمة هناك فوقي، وأعجز عن رؤية وجهها أو جذعها، بل نصفها السفلي فقط، وهو يتدلى عبر السقف.

دوّختني الأحلام، لدرجة لم أعد أشعر معها بالراحة في حضور هذه المُعلمة، ولأنني كنت مُحرّجاً من نفسي، أو راغباً في إخفاء ضعفي، صرت أتصرف بحماقة: إذ تحدثتُ بعناد داخل الصف، وتجنبت النظر إليها مباشرة وهي تتحدث إليّ، كما تظاهرت بعدم رؤيتها إذا ما التقينا بالشارع.

لقد اختبرت رؤى أشد جموحاً خلال المساء، أتاحت لي توسيع أفقي، في سن الرابعة عشرة، أي وأنا كبير بما يكفي حتى تتغير نظرتي للعالم مثلما يقول ملك العفاريت في مسرحية إبسن.

ذات صباح، وبينما نتناول الفطور، نأولتِ العمّة ألما جدي ظرفاً مختوماً بطوابع غريبة، أما جدي فضحك عند قراءته، وكان كثير الضحك عموماً، وتدفعه إلى ذلك أشياء كثيرة مثل: قراءة مقال بالجريدة، والاطلاع على شهاداتي المدرسية، ورؤية مُهر حديث الولادة بالإسطنبول، أو تسوية ربطة عنقه أمام المرآة. وقد تعلمت بمرور الوقت، أن أميز إيقاع كل من

ضحكاته. وهذه المرة، فقد عبّرت ضحكته عن الدهشة.

”حسنًا، إنني سوف...“ مذهولًا بعض الشيء أضاف جدي ”لتقرأه بنفسك“.

تضمّنت الرسالة المختومة بشعار النبالة إخطارًا من جانب القنصل اللاتفي بروتردام، بأن يانيس نجل المواطنة اللاتفية فلانة (أي أمي) المُقيّدة بالقنصلية والمُتوفاة منذ عام مضى، يُقيم بملجأ الأيتام الواقع في كذا وكذا. وقد طلبتُ إدارة الملجأ من القنصلية الاتصال بأي أقارب للصبي قد تجدهم في لاتفيا. فإذا رغب المُحترّم فلان (أي جدي) في قبول المسؤولية القانونية الكاملة لرعاية صحة وسلامة الصبي، فإن القنصل يرغب في استلام رسالة مُوقّعة بالموافقة. مع خالص تحيات المُخلص فلان، قنصل لاتفيا بروتردام-مملكة هولندا.

أعدتُ الرسالة إلى جدي في صمت، مُندهشًا من أنني لم أشعر برغبة في البكاء، الشيء البديهي بالنظر لكوني قد علمت للتو بوفاة أمي. ومن هنا أدركت حقًا أنه لم تربطني أي صلة حقيقية بها، أو أنها كانت بالفعل ميتة بالنسبة لي طيلة تلك السنوات، وأن تصوري عنها هو مُجرد حلم. لكن رسائل الإخطار لا تنطبق على الأحلام حيث ستظل علاقتي بأمي على حالها.

”يبدو أنني قد حصلت على أخ، فهل كنت على علم بذلك؟“.

”لم أكن أعرف أي شيء“.

”وما العمل الآن إذًا؟“.

”ماذا تعني بسؤالك هذا؟ إن لديك أخًا، ومن الواضح أننا لن ندع لحمننا

وَدَمْنَا يَتَعَفَنُ بِمَلْجَأِ اللَّيْتَامِ فِي بِلَادِ غَرِيبَةٍ“.

قادتنا مراسلاتنا مع القنصلية إلى حوض بناء السفن بريجا، حيث انتظرنا أنا وجدي وصول يانيس ذات يوم خريفي لطيف. وقد رافقتنا العمة ألما، لأنه لم تكن ثمة كلمة واحدة بالرسالة تُوضِّح عُمر يانيس، فماذا لو أنه كان بحاجة لتغيير الحفّاضة مثلاً؟ وبالرغم من أن رحلتنا إلى حوض السفن لم تكن رحلة عمل، فقد ارتدى جدي معطفه الأزرق الفاتح، بينما مالت قبعته الحريرية المُفضلة للأمام قليلاً، فلم تكن احتمالية أن يُقدِّم نفسه بطريقة عادية ومبتذلة لتَخطرُ على باله في مثل هذه المُناسبة الفارقة والهامة.

اقتربت ناقلة البضائع السوداء من الرصيف، مُحمّلة عن آخرها وقد غاص معظمها في الماء. كانت واحدة من السفن قديمة الطراز ذات المداخن المخروطية، ذلك النوع الذي سافر بانتظام بين ريجا وروتدام، والتي برزت سُفنه كنماذج فريدة في تاريخ النقل البحري بأسمائها الغريبة: إيفرونيكا، وإيرانا، وإيفراستريدا، وإيفرالزا، بشحناتها من الخشب، والفحم، والأسمدة غير العضوية. وقد احتوت في العادة على بعض القُمرات الرخيصة المُتاحة للمسافرين الأكثر حاجة.

عند نهاية سلم السفينة، وقف بحار يرتدي قبعة مطرزة بصورة مرساة، وبجانبه كان صبي في العاشرة من عمره تقريباً. وقد طابقت الصببي تماماً الهيئة التي تخيلتها لصبيّ من اليابان، بالرغم من أنه لم يسبق أن شاهدت أحدهم في الحقيقة. فكان يمتلك وجهاً مُدوراً، وبشرة بلون البصل. أما شعره فكان أسود لامعاً، وعيناه ضيقتان ويرتدي نضارة، وتحيط شفثاه المُقوستان بأسنان ناصعة البياض.

هرع جدي باتجاه مُراقب السفينة.

”عمَّن تبحث؟“ رد المُراقب تحية القبعة الأنيقة الخاصة بجدي بأخرى عسكرية رشيقة.

”إنني أبحث عن حفيدي، يانيس.“

”كانت تجربة يانيس مع بحر الشمال قاسية. لكنه بخير، وهو الآن في عهدتك!“

ومن ثم، تحدث الصبي بلاتفية مُتقنة ”تحية طيبة يا جدي العزيز! إنني في غاية السعادة! لقد حدثتني أُمي كثيرًا عنك.“

لم يتجاوز ارتباك جدي نصف ثانية. وكنت أنتظر ضحكته المألوفة، أو أي إيماءة تُظهر الشك أو الحيرة، أو ربما ارتباك الدهشة على الأقل. لكنه على النقيض من ذلك، قد سحب عدسته المُكبّرة المصنوعة من العاج ببطء من جيب صدّارته، ورفعها باتجاه حفيده. بينما قبض بإحكام على ذراع الطرْد البحري الصغيرة.

”معدرة يا حفيدي لكوني لم أتعرف عليك.“

(4)

أَيُّ قِصَصٍ سَخِيفَةٍ تَكْ! وَأَيُّ لَعْنَةٍ شَرِيرَةٍ! عَارَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ يَسْخَرُ فِي تَوْقِيَّتِ لَا تَجُوزُ فِيهِ السَّخْرِيَّةُ. فَأَنَّى لَهُ ادِّعَاءُ أَنَّهُ النِّصْفُ الْعُلُويُّ لِمَا بَقِيَ مِنْ جَسَدِ إِبِهَارْتِ قُونَ بَرِيغْن! دُونَ ذَرَّةٍ أَحْتَرَامٍ لِلْعُقُودِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي قَضَاهَا الْأَخِيرُ نَبِيلاً. أَمَا هَذَا، فَإِنَّهُ عَلَى الْأَرْجَحِ مُجْرَدُ سَلِيلِ مُزَارَعٍ مَحَلِّيٍّ، هَذَا هُوَ أَوْلَسْتِ، مُحَدِّثِ النِّعْمَةِ، وَعَامِلِ الزَّرَاعَةِ الصَّفِيقِ. رَيْبًا كَانَ قَرِيبًا لِأَحَدِ ضَبَاطِ سِلَاحِ الْفَرَسَانِ الَّذِينَ انْتَقَلُوا لِقَوَاتِ الْقَيْصَرِ بِيْتَرِ رَفْقَةِ الْجَنْرَالِ لَوِينُولْدِ، مِنْ صَفُوفِ السُّوَيْدِيِّينَ الْمَهْزُومِينَ.

حِينَ يَسِيْطِرُ الْجَمُودُ، يَكُونُ مُغْرِيًّا التَّسْلِيمَ لَهُ. وَقَدْ صَدَمَ جَمُودَ تِلْكَ الْأَفْكَارِ الْكَرِيهَةِ الْبَارُونَةِ كَمَا لَوْ أَنَّهَا اصْطَدَمَتْ بِشَيْءٍ بَيْنَمَا تَتَمَرَّجُ. إِنَّهَا التَّسْلِيَّةُ وَالتَّقَالِيدُ الرَّخِيصَةُ، الَّتِي قُوْبِلَتْ بِالْحَمَاسِ أَخِيرًا خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ.

وَلَكِنِ الْأَقْوَاسُ النَّاعِمَةُ كَانَتْ تَتَبَاطَأُ، وَتَنْحَسِرُ، ثُمَّ تَتَجَمَّدُ، لِتَطْيِيرِ الْبَارُونَةِ مِنْ عَلَى الْأَرْجُوحَةِ. مَذْعُورَةٌ، وَمُتَذَكَّرَةٌ كَلِمَاتِ كَالْيُوسْتَرُو فِي يِلْجَافَا: "حَيْثُ كَانَ هُنَاكَ اثْنَانِ، الْآنَ يُوجَدُ وَاحِدٌ". يَا لِلْجُنُونِ! تَرَى، هَلْ تَحْلُمُ؟ رَيْبًا تُلَامُ الشَّامْبَانِيَا الْفَرَنْسِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ، هَذَا الشَّرَابُ الْمَدْهَشُ، الَّذِي بَدَأَ كَبْرِيْقٍ لَامِعٍ. لَمْ يَكُنْ إِبِهَارْتِ لِيَسْمَحَ لَهَا أَنْ تَشْرَبَ زَجَاجَةَ كَامِلَةً، لَكِنِ النَّقِيبُ الْآنَ مُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ، جَامِدٌ كَالْخَشْبِ، بَيْنَمَا تَنْزِفُ جِبْهَتَهُ. تَسَمَّرَتْ قَدَمَاهُ فِي حِذَائِهِمَا الْعَسْكَرِيِّ، وَقَدْ تَبَاعَدَتَا كِبْرَ الْبُوصَلَةِ.

واضطربت البارونة من مشهد النقيب تحت ضوء الشموع، وقدماه
المُتصلبة مثل جثة، وخطر لها أنه قد مات بالفعل.

ورغم ذلك، فلم تشعر بسوء، ولا حتى بقليل من الذنب. بل كان مُجرد
موقف كريه، كأن تتعثر أثناء مشيها وتسقط لتكتشف بأن ملابسها
اتسخت. لكن نبوءة كاليوسترو اخترقت هذه المشاعر الحاضرة، ألا
يُمكن أن تكون نبوءته مُجرد صدفة؟ لكن ماذا لو أنها قد قتلت للتو
ليس أولست فقط، بل محبوبها إبهارت أيضًا! أو بالأحرى قتلت نصف
محبوبها إبهارت السفلي، أو شيء منه على أي حال. والذي لا يُهم طالما
أنه ما عاد موجودًا في العالم بأي طريقة أخرى.

مشت البارونة ناحية النقيب بخطى مُترددة، ثم مسحت جبهته
الدامية بمنديل. وتفاءلت خيرًا، إذ إن جبهة ذكر صلبة كتلك لا يُمكن
كسرها بسهولة، لأنها ليست بيضة. من المرجح أنه فقد وعيه فحسب.
وعليها الآن أن تحمله إلى سريره، ثم تتسلل لتنام بجوار بون سبريت.
ولن يذكر شيئًا عندما يفيق، وتفرغ هي كي تُفكر بهدوء في ما يجب
فعله مستقبلاً، لكن ليس الآن، فالصباح رباح.

أنصتت البارونة جيدًا لأي أصوات قد تدل على اليقظة، فلم تسمع
شيئًا. ومن ثم جرّت أولست من حذائه وسحبته باتجاه الباب.

إذا كان النقيب صادقًا حقًا، فلا بدّ من أنها تحمل قدمي إبهارت. كاد
قلبها يقفز من مكانه، ودارت الأرض أمام عينيها حين وصلت إلى العتبة
ثم دفعت أكرة الباب. كانت العتبة مُرتفعة بشكل سخي، وعلقت ذراعا
النقيب المُتهدلة بشيء ما في نصف العتمة تلك. لكن لا مشكلة، فلا
شيء سيوقفها الآن، فكل ما تستطيع فعله هو أن تواصل السّحب. يا
إلهي كم هو ثقيل! ناضلت البارونة بيأس، وبشق الأنفس. عليها أن ترفع

النقيب فوق العتبة مهما حصل، وتدحرج رأسه بصعوبة فوقها، محدثاً هديرًا حادًا عند اصطدامه بالأرض، يشبه ركلة حصان لجدار الإسطبل. والآن، إمّا أن تُصعده إلى سريره، أو تتركه على الأرض فحسب، فيبدو جرحه أكثر معقولة، كما لو أنه وقع من على السرير.

لَمَع وَهَج الشمعة الخافتة عند باب الغرفة، وشبكت البارونة يديها تحت إبطي النقيب محاولة رفعه؛ بدت أكمامه ثقيلة كما لو كانت مُبطنة بدانات مسبوكة من الحديد. لذلك، بحثت عن طريقة أفضل للتحكم بجسده المرتخي، فجزّبت أن ترفعه بواسطة شدة من حزامه، وقد مكّنها ذلك من إحكام قبضتها حول خصره، لكن ذلك لم يمنحها القدرة الكافية للرفع، فانزلق النقيب نحو الأرض مُجددًا، وضافت البارونة بهذا الجهد الضائع. ومن ثم انتفضت فجأة كما لو أنها لدغت من قبل حية، حين شعرتُ بذقن خشن يلامس خدها، وبصدر رجولي يضغط نهديها. لم يمت أولست، فالحياة تفيض منه، ومعها الرائحة الرجولية الحادة ذاتها التي لم تكن تحتلها في إبهارت، إذ كانت تذكرها عادةً بحياة الجندي الخشنة: العرق، والتبخ، والجلد الرطب، والإسطبيلات. وفجأة، أحست البارونة بثقل فوق كتفها، بذراعه التي كانت متهدلة منذ قليل. فإذا بها تنسلّ لتنحت خصرها، وبيديه كما أحست بيديه تتشبث بيديها.

”أغلقي الباب.. فكاسبرز قادم.“

قفزت البارونة من مكانها، منتزعة زارعها من قبضته. وراغبة في الصراخ، لكن عبارة ”كاسبرز قادم“ أصابتها بالشلل كسحلية مُروعة.

”أغلقي الباب“ كرر النقيب. حتى لا تستيقظ بون سبريت.

فهل تخاطر بفضيحة بمنتصف الليل في غرفة رجل غريب؟ مُستحيل!
لذا هرعت البارونة لإغلاق الباب، لكن مفضلاته الصدئة أصدرت صريراً
مُروعاً.

”سيدي، هل طلبتني“.

”لا يا كاسبرز، فقط أطفئ الشموع واذهب للنوم“.

استمرت حركة كاسبرز للحظات قليلة، قبل أن يسود صمت تام.
لكن الظلام المُحيط لم يكن بلا نهاية، فقد احتوت الغرفة على ست
نوافذ زجاجية، عبر من خلالها ضوء القمر. وتحسست البارونة الأصوات
المُتلاشية مُسندة ظهرها للباب، لكن بنظرة مثبتة على الرجل الجالس
على الأرض، كما لو كانت النبي دانيال بحفرة الأسود.

”أين توقفنا؟“ تساءل النقيب.

”عند كونك وغداً!“.

”آه، اندماج الأجسام..“. بدا صوت النقيب حالماً بعض الشيء، وقد
ظل يتصرف كما لو أنهم لم يتركوا الطاولة بعد، وكما لو أن الكؤوس لا
تزال بأيديهم. ”سيدتي، تقدمي، تقدمي أكثر“، فإن يدك الناعمة لديها
الفرصة لاكتشاف دليل ملموس على ادعائي“.

هزتها كلمات النقيب الغامضة كعاصفة قوية تنقض على سفينة.
وحتى تحتفظ باتزانها للنهاية وتمتنع عن صفعه، تراجعت قايتروت
ثون بريغن للخلف بعنف فاصطدم رأسها بالباب بقسوة، تماماً كما
اصطدم رأس أولست منذ قليل بالأرض.

”أي دليل؟“.

”الخاص بإبهارت بالطبع. حتى يُمكنك التأكيد بنفسك، أليس هذا سبب مجيئك إلى هنا؟“.

”عن أي شيء تتحدث؟“.

”ألا تصدقينني؟“.

”بالطبع لا، فأنا لم أزل محتفظة بعقلي“.

خفت حدة صوتها، وانحسر خوفها أيضاً. ألم تُقسم على تحمل النار والماء من أجل إبهارت؟

”إنك كثيرة الشك، أكثر حتى من توما الشكاك“.

”دعك من توما ذاك! سبق أن عرضت لي بالفعل قصة إنجيلية“.

”صحيح، لكن هاتِ يديك إلى هنا، تماماً في هذه البقعة!“.

ولم يكن واضحاً بالضبط أين يُشير أولست. لكنه فك حزامه وأزرار قميصه.

”إياك أن تُحرك ساكناً، وإلا سأصرخ حتى تهتز أركان المنزل“.

”يُمكنك الصراخ عندما ترينه إذا شئت. لكن هذا الفحص يتطلب بعضاً من رباطة الجأش“.

بالتأكيد، سيكون من الأفضل استرداد النصف السفلي لشريكك، لكن بالنظر إلى الظروف..“.

”أي ظروف؟ وأي فحص؟“.

”دعينا نبدأ بتعيين الحدود من الدرزة؛ من موضع الخياطة“.

”الدرزة؟“.

”نعم، الدرزة حيث تنتهي المساحة التي لا تعنيك، وكذلك حيث تبدأ ملكيتك الشرعية“.

”كيف تجرؤ على النطق بشيء كهذا؟“.

”بمقدوري أن أصمت لو شئت“.

ترى، ما الذي يدور أسفل باروكتها الكبيرة ومشدها المربوط بإحكام؟ لقد صارت أشبه بحظيرة دجاج يقتحمها ثعلب، فكل ما ظل ساكنًا حتى اللحظة، انقلب بغتة إلى إعصار، لقد تحوّلت إلى دجاجة تضرب بيأس بينما يُنتزَع ريشها. إلى مزيج من الفضول، والشك، والإثارة، والغضب. لكن، ألا يجوز القول بأن أنوثتها كانت تراوغ حتى تحتفظ بكبريائها عصيًا على الاستسلام؟ فماذا لو صحت نبوءة كاليوسترو بشأن إبهارت؟... وأيًا كان ما حدث، فإنها قد تعهدت على البقاء بجانبه في الصحة والمرض...

”فقط لا تحاول فعل شيء. دعني أتصرف بنفسي!“ تقدمت البارونة بخطوات حذرة ناحية النقيب، وبيطء شديد مدت يدها أسفل صدره. فبدت وكأنها على وشك فحص بقايا تابوت قديم.

”أقرب، أيتها البارونة، أقرب. ما الذي يُخيفك؟ فأنت المالكة الشرعية، ولست لصة“.

”رجاء“.

”مع كامل احترامي سيدتي، لكنكِ تذكرينني بربة الغابات العذراء ديانا“.

”أوه، أوه أوه.. إنه أشبه بالدغل“.

”وهناك تقع حدوده“.

”أين بالضبط؟“.

”هنا، هيا، هيا“.

”يا إلهي، تلك هي الدرزة إذا؟ وهل تُحيط بكامل الجسد؟“.

”كالخاتم حول الإصبع“.

”غير معقول، مُعجزة“.

”سأجلس لو كنت مكانك. لأنه لا يُمكنك التعويل دائماً على النظر من بعيد“.

أما ما حدث لاحقاً، فقد تخطى قدرتها على الاستيعاب، كأن تسقط من على الحصان فيسحك على الأرض، وأنت ما زلت مُتشبهاً باللجام، وبالرغم من وعيك بضرورة إفلاته، إلا أن أصابعك تتجمد بلا حراك.

التفتت البارونة إلى الباب، ثم جمعت تنانيرها بيُسراها ورقدت بحذر إلى جانب النقيب.

حُثها أولست قائلاً: ”هنا فحسب، تبدأ ملكيتك الشرعية، فلا تخبريني بأنها المرة الأولى لك هنالك“.

مدت البارونة يدها نحو الأسفل في خجل، وخذها مُعتصر في كتف أولست، فتحوّلت الرهافة الغربية إلى قشعريرة، كأنها سُحبت بغتة من

الماء إلى قمة جبل جليدي.

”هل تعرفتِ عليه؟“

”أي نوع من الأسئلة السخيفة هذا؟“

”انظري، ها هو إبهارت يتعرف عليك..“

”يا إلهي!“

”طوبى لمن أضاعوا، لكن لديهم أمل في العثور مجدداً“.

”إنك.. إنك تكذب!“

”ألا ترى يا إبهارت، لقد نستك زوجتك!“

”أيها النقيب، ماذا تفعل؟“

”تفاهمي مع إبهارت. زوجك المُحب“.

”رجاء، لا، لا يمكن... أوه-أوّه-أوّه“.

”لا تُحدثيني بذلك، لأنني لن أتدخل في شؤونك العائلية“.

أظهرت سخرية أولست بعض التذمر، كما برقت الظلمة بشهقات ولهاث فايتروت فون بريغن، ثم شهيقها وزفيرها الحادين كشخص ابتعلته الأمواج، أو كشخص فقد توازنه بينما يهرع فوق تلة مُنحدرة.

”حبيبي.. إبهارت.. أنى لي أن أجهلك؟“

(5)

تشاركتُ غرفتي مع يانيس، وكم بدا ذلك غريباً في سن الرابعة عشرة. ربما لو أن أُمي قد ظهرت أبكر منذ ذلك قليلاً في حياتي لكنت اختبرت أموراً كثيرة بشكل مختلف. ولربما تعرضت مكانتي للتهديد، أو كنت لأخوض حرباً تنافسية تُسفر عن كراهية متبادلة. لكن في سن الرابعة عشرة، لم تخطر حتى ببالي تلك الأفكار الحسودة من قبيل إخفاء أمتعتي عن يانيس، أو الحرص على الجلوس بجانب جدي على كرسي القيادة. بل تضاعف فضولي بخصوص الطبيعة الغامضة لظهوره، فأردت أن أعرف وأفهم كل شيء عنه. كما انتعش كبريائي في سرور باكتشاف أن لدي سبباً حتى أنظر لِنفسي كشخص بالغ. علاوة على ذلك، فقد كان وصول أخي حدثاً مُثيراً في ذاته. وفي زمن كانت المغامرات فيه على رأس أولوياتي.

عندما أستخدم كلمة ”أخ“، فليس المقصود أن تُفهم بمعناها الضيق. كنت أعرف أنه أخي، وحاولت تقبله على هذا النحو، وعلى كل؛ فقد كان باستطاعتي تقبُّل شخصيات القصص الخيالية كالبطل اللاتفي كوربادس، أو حتى منحوتة داود لمايكل أنجلو؛ كإخوة لي.

كانت رحلة العودة إلى المنزل أشبه باصطحاب طرد غامض، لا شخص حقيقي. نعم، قد يؤول الطرد لأن يكون أخي، لكن كان لا بدَّ

من استكشافه أولاً، وبث روح جديدة فيه، بالإضافة إلى تحديد الصلات المنطقية لظهوره. وكم كان تصور ذلك مثيراً، بل ساحراً لدرجة كدت أنفجر معها من الحماس.

منذ سنوات، فُتشت في البئر عن وجه أمي؛ والآن أفتش في وجه أخي. لكن بينما كانت صورتها في البئر مجرد خيال مسرحي، فقد حملت صورتها في وجه أخي قدرًا من المصادقية التي بدت بعيدة المنال. لكن على أقل تقدير، فسوف يخبرني بأشياء جديدة عن أمي، لا يعرفها أو يقدر أحد غيره على كشفها.

غادرت أمي لاتفيا بصفتها مساعدة أبي في فقرته التي يؤديها بالسيرك، والتي عُدت عرضاً مرموقاً آنذاك. حيث كانت أمي تجلس على كرسي موضوع فوق طرف عصا بامبو طويلة يحملها أبي ويحفظ اتزانها. كان أبي شاباً لاتفياً من فالмира، اشتهر بين جمهور السيرك باسم ماريو رينالديني. وانتهى بأن وقعت عليه أحد أعمدة خيمة السيرك أثناء فكها فأردته قتيلاً.

كان ضمن السيرك أيضاً ساحر يُدعى كونيشيكي (تعني باليابانية "البناء الحسن"). كل ليلة عرض، كان يقطع امرأة شابة جميلة إلى نصفين بواسطة منشار دائري ثم يعيدها إلى ما كانت عليه، وعندما مرّضت مساعدته اليابانية، طلب من أمي تعويضها. ووافقت أمي على أداء العرض الذي حقق معها نجاحاً مُدوياً، فقد كانت أمي جميلة، ذات شعر طويل أشقر عسلي، وعندما كان المنشار الدائري يشقها إلى نصفين، ويستعرض كونيشيكي نصفها العلوي ذا الوجه الطفولي والشعر الفياض، وكذلك النصف الآخر حيث السيقان البيضاء كالليب،

والحذاء الذهبي بقدميها، كانت تصرخ النساء ويشكو الأطفال، في حين يرغب الرجال باقتحام المسرح لتأديب هذا الفرانكشتاين. لكن بمجرد أن يعود الصندوق واحدًا وتقفز أمي برشاقة خارجه، يتنفس الجمهور الصعداء، مُصَفِّقًا بحرارة. وخلافًا لتقاليد السيرك، كان يعاد أداء العرض.

وُلد يانيس بإحدى عربات السيرك المتنقلة؛ في الطريق إلى إسبانيا. فكانت أولى ذكرياته، في الثانية من عمره، هي عن الفيل الذي يُهدد سريره الهزاز بخرطومه، وقد لاح أمامه في جناح الظلام رأس الفيل الضخم وأذناه المرفرفتان، ربما لم يكن بالأساس سريرًا، بل كرسي هزاز.

ظل يانيس جاهلاً بنشر أمي إلى نصفين ردًا من الزمن، وعلى كلٍّ، فقد آل به المطاف لحضور العرض ذات يوم. عندئذ، هرعت أمي نحوه بعد انتهاء العرض، فعانقته وسألته: هل كنت خائفًا؟ هل كنت قلقًا علي؟ ليحيب يانيس بالنفي، وتشعر هي بالإحباط لأن طفلها المدلل لا يعنيه أن تُقطع أمه إلى نصفين.

وفي المقابل، ابتهج الوالد من أن صغيره لم يُبد خوفًا، لأن إظهار الرجل الياباني لعواطفه يُعد ضعفًا.

”أكيبونو (أي الفجر باليابانية)“، خاطب والد يانيس أمي. ”لقد نسيتِ الدماء اليابانية التي تجري في عروقه. لقد كان أسلافه من الساموراي في عصر شوغونية توكوغاوا“.⁽²⁾

2- نظام إقطاعي حكم اليابان بين القرنين السادس عشر والثامن عشر.

انتقلت أُمي من الحديث بالإنجليزية إلى اللاتينية، فكان كوني شيكي يُنصت بتروّ، ومن ثم يُشارك بدوره في المحادثات الدائرة مستعملًا اليابانية.

لم تُواجه يانيس أي مشكلة مع اللغات، وإذا ما سألته بأيّها يتحدث؟ كان يجيب: جميعها. قائلًا بأن ذلك لا يتطلب سوى المُواظبة؛ التي شدد كوني شيكي عليها مرارًا، والتي بواسطتها، يُمكن للذبابة أن تهزم أسدًا.

كان جدي قلقًا من ألا يكون يانيس مُؤهلًا بعد للالتحاق بالمدرسة الابتدائية، حيث أُلقيت بعض الدروس بالفرنسية أيضًا. خاصة أن يانيس لم يذهب بانتظام للمدرسة بينما كان يُسافر حول العالم رفقة السيرك. لكن، بعد قضاء فصل الصيف في الدروس المنزلية، لم يكن بمقدور يانيس أن ينجح بالاختبارات فحسب، بل أن يتقدم سنة دراسية كاملة عن أقرانه.

ربما تأخذ انطباعًا عن يانيس، بوصفه ثرثارًا، يحب سرد مغامراته وخبراته بغزارة ودون خجل. لكن على النقيض من ذلك، فقد كان حثّهُ على الكلام، أشبه بفك خيوط شبكة مُعقدة، ففي مناسبات نادرة، كان يفاجئنا بالحديث من العدم، ودون مقدمات. وفي بعض الأحيان، لم يكن كلامه ذا صلة بالموضوع محل النقاش. مثلما قاطعنا ذات مرة بينما نتحدث عن كرة القدم قائلًا:

”مُجرد لعبة بإمكان أي أحد ممارستها. أما السومو فلا، إن مصارعة السومو للمحاربين فقط!“.

ثم أخرج من جيب قميصه صورة فوتوغرافية تضم بعض مصارعي

السومو: كانوا ضخام الأجسام بشكل استثنائي؛ بين منّي لثلاثمئة كيلوجرام، أمّا تعابيرهم فكانت حادة تُشبه الوجوه المرسومة بلوحات الشنتو، وتلتف أحزمة بوذا حول بطونهم الضخمة.

فَطُنْتُ في حديث يانيس إلى حساسيته تجاه بنيته الصغيرة، ورغبته بأن يصبح أقوى وأطول، كما فَطُنْتُ إلى طريقتة في التفكير والنظر للحياة. لقد عُدُّ مُصارعو السومو آنذاك بمثابة آلهة، ما معناه أن الفرصة متاحة أمام يانيس ليصير إلهًا، فقط لو أنه بذل المجهود الكافي حتى يتطوّر ويقهر أقوى أعدائه: أي نفسه.

تعوّد يانيس أن ينظر إليّ بوجه مبتسم، وبالكاد كانت ترمش عيونه خلف نظاراته المُدورة، والتي مَيّزها عن الوجوه الأوروبية عَوْرٌ عميق. من المُرجح أنه كان يتخيّل نفسه وقد صار صاحب أذرع وأرجل قوية. شعره معقود للخلف مثل مصارع ساموراي قديم، وحزام ساموراي ملفوف حول وسطه.

”هل شاهدت مباراة سومو من قبل؟“.

”أبدًا. فلم يتسن لي حتى زيارة اليابان.“.

لم تكن حياة المدرسة سهلة بالنسبة ليانيس، لسببين، أولاً: كان وصوله للمدرسة حدثاً مُميّزًا، ما جعل منه شخصية مشهورة. وثانيًا: لأنه بدا قصيرًا ومُختلفًا. لذا، فقد أقصي إلى جانب المنحوسين الذين يخوضون الحياة بمفردهم حتى يتسنى للمحظوظين بالقوة وانعدام الحياء ألا يموتوا من الملل. وقد صار اعتياده على المدرسة أصعب بمراحل بسبب زعيم عصابة الأقوياء عديمي الحياء فاييان نجل القنصل

إيجل. ولأنني كنت على عدااء مع فابيان، ويانيس كان أخي، فإننا تجاوزنا بنفس الخندق.

عشر فابيان على متعة خاصة في مُشاكلة المُلتحقين الجُدد. فلم يكن يضرهم، لكنه حرص على التنمر عليهم، أو -حسب وصفه- على أن يحظى ببعض المرح. لقد نَظَّم لهم رعاية صحية بأن جعلهم يغسلون وجوههم داخل المرحاض، كما نظم أيضاً مسابقات في مسح السبورة باللسان، بالإضافة لدوريات تفتيش الحقائق، حيث كان المُفتشون يرمون محتوياتها على الأرض أو على الثلج.

اعتدنا جميعاً التسليم باستحالة رد اعتداءات فابيان، وقد رسّخت الطريقة التي مشى وتحدث بها تلك الفرضية بقوة، بالإضافة إلى لقبه المُعبر أي ”بافالو“.

دعا فابيان عرضه المُفضّل ”صراع القضبان“، حيث كان التلاميذ الجُدد يصطفون أمام المباول، وقد أنزلوا سراويلهم، كاشفين أعضاءهم الذكرية بغرض فحصها. ومَن يُثبت أنه الأكثر مُباركة من قبل الطبيعة الأم، كان يحصل على ميدالية، ويُدعى بـ”السيد المهيب لمراحيض الفتية“. أمّا صاحب القضييب الأصغر فكان يُدعى ”ديكلتة“ Dicklette، كما مُنحت تكريمات فخرية لصاحب الخصيتين الأكثر تجعداً، وللغُرلة الأكثر بروزاً. وكان فابيان يأمل بضخ دماء جديدة في المسابقة عبر مشاركة يانيس. فاستغل فرصة تواجد يانيس بمفرده في الحمّام، وتصرف على أساس قناعة تامة بأنه يستطيع فعل ما يريد دون عقاب.

نادراً ما جرؤ أحد بين صفوف التلاميذ المتململين على تحدي سلوك

فابيان الاستبدادي، لكن يانيس كان من طينة مُغايرة.

فعندما قبض فابيان على أذنه وأنزل بنطاله على مرأى من الجميع، رد يانيس بنبرته الموسيقية في الحديث ”رجاء، لا تفعل ذلك! إنها قلة احترام لزميل مثلك“، وكاد فابيان يسقط أرضاً من شدة الضحك، لكن يانيس كرر كلامه ”إنها قلة احترام لزميل مثلك“.

ومانحاً أداءه المزيد من الإثارة، لوّح فابيان بيديه بطريقة مسرحية، ثم تلوّى من الضحك حاجباً وجهه. وهنا تحديداً كمن خطؤه، لأنه سرعان ما تلقى ركلة في فخذه، فسقط مثل حارس مرمى مُكومًا على الأرض.

عندئذ، وصلتُ إلى الحمام، وشاهدت توابع الحدث. حتى إنني تفكرت ملياً، وتساءلت مراراً: ماذا كنت سأفعل لو كنت مكان يانيس؟ على الأرجح، كنت لأستغل تشوّش فابيان وأركض هرباً، لأنه دون أدنى شك، كان فابيان أقوى من كلينا أنا ويانيس.

لكن يانيس لم يهرب، وإنما انتظر بجوار فابيان، دون أن تبدو عليه ملامح الخوف أو الريبة. فلم يقلق، ولم تشغله العواقب. كان لا بدّ للقتال أن يستمر، حتى النهاية، حتى لا يبقى شيء يُقاتل من أجله.

وبالفعل، ربح يانيس، وظل فابيان راقداً على الأرض حتى دق الجرس، محاولاً جرّ أقدامه وهو ينخر ويتنهد، في حين غادر المتفرجون العرض بهدوء.

بدّلت حادثة الحمام موقفي من يانيس. فقط لو أمكن استبدال كلمة ”موقف“ بأخرى أكثر دقة! صحيح أنه لم يتغير شيء في مجرى

علاقتنا، لكن تصوّراتنا عنها هي ما تغيّر بالفعل. فحتى ذلك الحين، كان باستطاعتي تبرير أي غموض في سلوك يانيس بحجة عشرتنا القصيرة كإخوة، وأنه بقضاء مزيد من الوقت معاً، سوف تزداد ألفتنا، وتتوطد روابطنا العائلية، فلا يبدو دخيلاً بعد اليوم.

لكنني أدركت لاحقاً، أنه بغض النظر عن متانة علاقتنا، أو تصور كل منا عن الآخر، فإننا سوف نظل شخصين مختلفين دائماً، وسيحول بيننا حاجز منيع يستحيل عبوره.

لقد خَلَفَ كُلُّ منا سلسلةً طويلةً من الأسلاف، والتي قد تمتد إلى عصر التريلوبيت الساكن في أعماق البحر (إذا صحّت النظرية القائلة بأن كل أشكال الحياة نشأت على كوكبنا)، أو على امتداد الكون (إذا كنت تُصدق النظرية القائلة بأن البشر حلّوا على الأرض من مكان آخر). ومُتَمَلِّلاً القرون والأحداث المُوغلة في القدم تساءلت: أين كان أسلافي في ذلك الحين؟ فسواء تحدثنا عن القرون الوسطى، أو العصر الحجري، أو طوفان العهد القديم، فإنهم كانوا موجودين بلا ريب وإلا لم أكن لأوجد أنا اليوم.

لقد خرجنا أنا ويانيس من نفس الرِّجْم، لكنه حَمَلَ جينات لم أحملها أنا، وطبيعةٌ لم أملك أدنى فكرة عنها.

وهكذا، تسبب يانيس بأن قضيت حياتي في محاولة فهم اليابان. الحرب العالمية الثانية وهزائمها، ثم وثبة النمر الاقتصادية، تكنولوجيا وفن بلاد الشمس الساطعة. وحتى انجرارها الأخير إلى الحرب ضد

غسيل الأموال. لقد زُرت اليابان، ودرست فلسفتها وتقاليدها، إلى أن صار بمقدوري إلقاء مُحاضرات حول حقبة شوغونية توكوغاوا، وتعاليم الساموراي مياموتو موساشي لتجاوز الخوف من الموت عبر حالة التأهب الدائم hara-kiri لتمزيق أحشائك بنفسك في حال الهزيمة.

لكن في ذلك الزمان، في حمّام الفتية، كانت تلك المعارف لا تزال مُحتجبة خلف ستار من الجهل. وأنداك، لم أكن لأستوعب تصرفات يانيس بحصافة. لكن بالنظر إلى ما أعشقه وأجلّه في اليابانيين، وكذلك ما لا أفهمه، وربما لن أفهمه أبداً بشأنهم. فإن شعوراً يغمرنني، بأنه آنذاك، في الحمّام، كان بمقدور يانيس أن ينتزع كبد فابيان ويأكله في التو واللحظة.

(6)

ذات نهار غائم في شهر إبريل، بينما كانت تمطر، والهواء رطب ودافئ. في أحد تلك الأيام التي تُحييك بأذرع خضراء مفتوحة بمجرد أن تخرج من مسكنك الضيق، لتفيض عيناك بالدهشة من العالم.

كانت فايترتوت فون بريغن تسير مُسرعة إلى العربية، دون أن تُبصر شيئاً. مُعانقة قبعتها الحريرية، ومن ثم توقفت فجأة، كأنها تحاول تذكر شيء، بينما نضحت كل حركة وكل تعبير منها بالشك والقلق.

هرعت بون سبريت خلف البارونة، مُحاولة التخفيف من اضطرابها الذي بلغ حد الفزع. سرعان ما بدأت في التذمر: لماذا تتصرف البارونة بتلك الغرابة؟ إذ كان الإذعان التام لبون سبريت، والذي مثل طبيعتها الثانية، أخذاً في التداعي بفعل التقدم في السن. ولذا، فقد صارت كثيرة الفضول والتكلف، وقد حاولت مداراة ذلك بابتسامة سئمة لا تقصد أحداً على وجه التحديد.

كان النقيب وحده من بدا نشيطاً، مُنتعشاً وهادئاً. صحيح أن تعابيره قد عكست دهشته، لكنها كانت دهشة باردة، كما لو أن السماء قد أمطرت فجأة أو أن طائرًا غريبًا هبط للتو على كفته.

”ألا يُمكننا الرحيل؟“ تساءلت البارونة.

”لا أرى سبباً يحول دون ذلك“. كان بالإمكان التقاط الصراع الداخلي

بين الإذعان والفضول في نبرة بون سبريت.

” لن أجرؤ على احتجازك سيداتي، لكنني لا أرى مانعًا من تناول الإفطار سويًا“.

”شكرًا لك، فالعشاء كان كافيًا“.

”لكن الخروج على لحم بطنك نهارًا هو عمل طائش تمامًا كتهديد الشيطان بصليب وشمته على جسدك بالأمس“.

”على المرء اختيار أقل الضررين“.

يبدو أن النقيب لم يفتن إلى الحدة الظاهرة في نبرة البارونة، إذ خطى نحوها مائدًا يده إليها، فأمسكتها، وسرعان ما رغبت في إفلاتها، لكن لم تستطع.

”إنني أحاول اكتشاف من أنت؟ لكن مثل تلك الأسئلة لا يُمكن حلها بعدة جولات من الشراب، ولا عبر الاستلقاء أرضًا بالطبع“. لانته نبرة البارونة، حتى إنها كانت تهمس في نهاية حديثها.

”من أنت؟ ومن نحن؟“ تحدث النقيب بهدوء مماثل ”إذا عثرتي على الجواب، فرجاء لا تبخلي علينا به“.

” دَعني أذهب الآن إذا“.

مسَّ شارب النقيب الكثيف يد البارونة، لكنها انتزعتهما وصعدت إلى العربية، وقبل أن تغلق الباب حدثته بصوت مرتفع:

”شكرًا على كرم ضيافتك! لقد سررت به حقًا“.

”شكرًا على زيارتك، بالنيابة عني وعن إبهارت. تمنياتي بالسلامة!“

انحنى النقيب بطريقة رسمية ثم أضاف: "سيرافكم كاسبرز خلال الغابة حتى لا تخطئ الطريق".

لماذا قد تنشغل البارونة بالسلامة، بينما يرتعش رأسها بصور شبحية تليق بالقديسة فالبورجا فحسب. إن السفر عبر الغابة مُخيف بقدر السفر على طريق ممهد، أو في شارع مُزدحم، وحتى إذا جرّت العربة جِيادَ يمتطيها الجن بعضهم بلا أنصاف سفلية فوق السروج، بينما الآخر بلا أنصاف علوية حتى تتشبث بأعناق الجياد. نظرت بون سبريت للبارونة نظرة خبيثة مُتفرّسة، وكانت تُثرثر دون أن تسمعها البارونة. وكأنّ الوجوه بالخارج كانت تقتحم زجاج العربة مُحدقة فيها؛ وجوه مألوفة وغريبة. حبيبي إبهارت، هل هذا أنتِ حقاً؟ لكن خدوده النحيلة والجبهة العريضة كانت تتفكك كالزيت على الماء وتتحول إلى قناع مُهرج. ومن حين لآخر، يتبدى وجه أولست، ثم يتلاشى، يخنفي ليعود مُجدداً. تماماً مثل الأنصاف العلوية للجن، والتي تجلدها الرياح وهي تتشبث بأعناق الجياد التي لا تحمل سروجاً أو ركاباً.

وصلت العربة إلى عذبة فون بريغن بحلول موعد الغداء، بعد نوبة طويلة من الجزع المكبوت، والإرهاق، والغفوات المتقطعة، التي كانت البارونة تصحو منها على حقيقة أن شيئاً لم يتغير، وأنها لم تزل على الطريق. وفجأة، شعرت بضوضاء مألوفة، حين داست العربة على الحصى الخشن، فغمرها شعور رقيق بالراحة، شبيه بما كان يغمرها عندما كانت أمها تحتضنها بعد كابوس بشع، فتُشغل لها صندوق الموسيقى حتى تطمئن مُجدداً.

نظرت فايتروت من نافذة العربة، فأحسّت بما يشبه كمادات باردة

تلمس جبهتها المحمومة. وتأمّلت القصر القديم بأعمدته الأربعة من الطوب وسطحه القرميدي، حيث يبرق خادم في جواربه البيضاء وهو يهبط السلم، أو تطرق الوصيفة باب الغرفة. وحيث الوجه الشاحب لأماليا آنا حماة البارونة، يلمع خلف ستائر غرفتها، وتنتظر أشجار الزيزفون معاطفها الربيعية؛ مُدثرة بخيوط مصبوغة بغروب الشمس وبضوء القمر الفضي، بينما تفوح الأملاح من رائحة بون سبريت الحادة فتلسع أعين وحلق البارونة.

”أهلاً بعودتك أيتها البارونة! نحن في غاية السعادة! لقد كنا في انتظارك طيلة الأسبوع! سيبتهج راعي الأبرشية أوريلْيوس أيضاً. لقد مرَّ بنا صباحاً لنقل تحية الأميرة إلى البارونة أماليا، ووافق على البقاء لتناول الغداء. متى نُعد الطاولة؟“.

”لاحقاً، لاحقاً، اخلعي عني المعطف، واجلبي لي إناءً من الماء الدافئ“.

بطلول المساء، قرر الراعي أوريلْيوس الرحيل. لكن بعد أن يُلقي التحية على الصغيرة فايتروت في حال أنها استيقظت وأفاقت من رحلتها. كان صديقها منذ الأزل، إذ عرف العم يُواخيم ابن الستين ربيعاً فايتروت وهي لم تزل رضية. أمّا هو فظل أرملاً لعقود طويلة دون أن يتزوج أبداً. وقد تحول مؤخراً إلى شخص بدين لدرجة أنه لم يستطع غلق أزرار معطفه الطويل الأسود. كان وجهه المُستدير مُتورداً، وأنفه الأنفوس مُغطى ببقع حمراء وأوردة زرقاء صغيرة تُشبه خريطة طوبوغرافية حية. كما كان يتجول مرتدياً باروكة لويس الرابع عشر المُهدّبة، والمُثبتة بعشوائية فوق رأسه، وشاحه مُكرمش وقد حلق وجهه بإهمال. أمّا رسائله إلى

البارونة فكانت ملطخة دائماً بالشمع، ومُزينة ببقع من الحبر وثقوب سببتها ريشة غير مشحوزة جيداً. وكان خطه مُتقطعاً تصعب قراءته. لكن شخصيته السمحة طغت على نواقصه، فكان الأطفال والكلاب يطمئنون في حضوره على الفور، وحتى الجياد كانت تصهل برفق وهي تتمسح فيه، أما الخدم فكانوا يهرعون بابتسامات عريضة للترحيب به، مثلما ابتهج السادة المُوقرون بصحبته.

بالفعل، كانت البارونة مُستيقظة وراغبة في التحدث إلى أبيها الروحي، إذا أمكنه التكرم بالصعود إلى غرفة نومها. في القرن الثامن عشر، كانت عادة استقبال الضيوف والمرء في السرير أمراً طبيعياً. ليس ذلك فقط، بل حتى أثناء الاستحمام. وحتى إذا صدم هذا السلوك أحداً من قاطني فيدزيم، فإن البارونة لم تكن راغبة في التخلّف عن موضحة فيرساي، كما سيكون من الأثانية البغيضة أن تُخفي قمصان نومها وأروابها اللعوب الأنيقة عن المجتمع بشكل عام، ولماذا تُحجّب الأكتاف الرشيقة والأثداء الفاتنة عن الأنظار؟ إن الملك يُعطي الأوامر لوزرائه وهو عار ريثما يرتدي ملابسه، وبذلك يوفر عدة ساعات لإنجاز أشياء أخرى مهمة، فأى ضرر من أن يُشجع كرم الضيافة النظافة الشخصية؟ جاءها أوريلْيوس وهو ينهج مُنادياً: "صغيرتي فايتروت، أين أنت-ت؟".

لقد مارسا هذه اللعبة منذ أن كان العم يُواخيم يزورهم وهي صغيرة، حين كانت تختبئ فايتروت بالخزانة أو خلف أحد الأبواب، فيتظاهر بأنه لا يراها، ثم يدخل إلى الحجرة مُنادياً "صغيرتي فايتروت، أين أنت-ت؟".

سَلِّمًا على بعض بحرارة كما هي الحال دائميًا، لكن فآيتروت لم تكن في مزاج يسمح بالمزاح.

”أجلس هنا، بجوار السرير، وأخبرني بصدق يا عَرَّابي: ما هو الإنسان؟“.

رفع الراعي معطفه وأراح ردفه العريضين على الكرسي الفينيسي بحرص، فبدأ مثل خنفسة ضخمة تضرب بجناحيها وهي تهبط على زهرة. من ثم رمق البارونة بنظرة مُندهشة ومُرتابة، وعندما رأى أن جديتها لم تتأثر، هز كتفيه، وأمال رأسه مُتأملًا.

”ما هو الإنسان؟ إنه سؤال صعب. لكن يُمكن تقسيمه لثلاثة أجزاء: ما بداخل الإنسان، وما هو حوله، وما سوف يُقرره له النرد الإلهي.“.

”ماذا تعني بما هو حوله؟“.

”أي الظروف، انظري للبذرة على سبيل المثال، إذا تم غرسها بالأرض وهي دافئة، في الربيع مثلًا، فإنها سرعان ما تنمو، بخلاف برد الخريف. فلماذا قد يختلف الأمر مع الإنسان؟“.

”لأن له روحًا“.

”بصفتي لاهوتيًا، فإنني أؤمن بالأرواح، مثلما أستخلص إيماني من الإنجيل. لكن أحد زملاء دراستي السابقين في كونيغسبرغ؛ إيمانويل كانت، يعتقد بأنه من المُحال علميًا إثبات وجود الروح أو نفيها على السواء. في حين اعتقد الفيلسوف سبينوزا بأن الله والطبيعة هما الشيء ذاته، وأن للجوهر الإلهي صفتين، هما أيضًا صفتا الطبيعة بما فيها الإنسان، أي: الامتداد والفكر. ولذلك اعتقد بأن نظام الأفكار وترابطها

هو عينه نظام الأشياء وترابطها“.

رأى أوريليوس في كآبة فايتروت انعكاسًا لألمها كأرملة. لقد أرهقته حساسيته الشعورية تجاه أحزان الآخرين، ولمّا لم يعد أهلًا لذلك في شيخوخته، فقد فضّل النأي بنفسه عن متاعب الآخرين والاعتكاف بالجوانب المُشرقة للحياة. ومن ثم أخرج مندبلاً لمسح عرق جبهته، لكنه لاحظ بصمات من الحبر على القماش الأبيض، فكوّم المنديل في قبضته مُحرّجًا.

”عزيزتي فايتروت، الربيع على الأبواب، وهذا وقت الاحتفال بالطبيعة. فلماذا تُرهقين ذهنك بألغاز الرب؟ إن الكون مليء بالكثير من العجائب التي أتاحتها لنا كي نستمتع بها علانية“.

لكن لم يبدُ على البارونة أنها سمعت اعتراض أوريليوس، وظلت تفكر مدفوعة بانفعالها.

”هل يُمكن خلق شخص بتركيب أجزاء مختلفة معًا؟ جزء من هنا، وآخر من هناك؟“.

”إم-م-م. كل إنسان هو مُركب بالأساس، باعتبار أنه مولود لأم وأب. وحتى يسوع المسيح هو أكثر من كونه ابنًا للرب، لأن لديه أمًا كذلك، فإذا كان التركيب عديم الأهمية، لماذا نسبت المسيحية لمريم العذراء تلك المكانة الرفيعة؟“.

”هذا مُتعلق بالولادة. لكنني أتحدث عن حالة بعينها: هل بإمكان جراح؛ دمج نصفيّ جسدين حتى يُنتجا جسدًا واحدًا في المحصلة؟“.

”هذا السؤال، يا عزيزتي، يخص الجراح“.

”جراح؟ إن مهارة الجراح محدودة. فما الذي يحدث لروحهما؟ هل تستمران في العيش كلاهما، أم إحداهما فقط؟ وإذا عاشت إحداهما فقط، فأيهما إذًا؟ ومن منهما سوف يُدعى إلى يوم الحساب؟ وماذا يكون الشخص الجديد؟ لك أن تتخيل، زوجة تعيش مع النصف العلوي لزوجها، في حين تعيش أخرى مع النصف السفلي. ماذا تُبصر في مستقبل هؤلاء؟“.

تجمّد أوريليوس في كرسيه مُحدقًا في فايتروت؛ وقد اضطرب مزاجه الهادئ والوقور عادة. بينما واصلت فايتروت توجيه أسئلتها التي تتماشى -أو لا تتماشى- مع استنتاجات كانط النقدية، والتي ظلت تتساقط تباعًا من شفيتها. لقد رفض إيمانويل البحث الميتافيزيقي عن الروح، والعالم، والكون، والله، ويبدو بوضوح أن فايتروت ليست بعيدة عن موقف كانط. والذي بإمكانه أن يصير قاعدة لرؤية جديدة للعالم! فقط لو أن... لو أن... الحبيبة الغالية فايتروت لم يَغزُها الجنون والحزن، وإن كان البارع كانط لم يزل بعافية في كونيغسبرغ... فطالما عانى من مشاكل صحية... علاوة على هذا الانفصال الفارق في حياته بين فترتين، السبات الدوجمائي ثم الاستفاقة.

”لا أدري عن أي شيء تتحدثين يا عزيزتي؟“.

”أريد أن أعرف، طالما أمكّن تقطيع جسد أحدهم وتركيبه مرة أخرى حسب رغبتنا، فهل بمقدورنا فعل الشيء ذاته بالروح؟ ماذا يحدث لبقايا الروح؟ هل بإمكان شخص أن يكون نصف حي / نصف ميت؟ وهل يُوجد شخص مُزدوج؟ مثل الكعكة ذات الحلقتين؟ أو البيضة ذات الصفارين؟“.

”لا يُمكنني الإجابة سوى بكلمات الإنجيل: ”ليس هو إله أموات، بل إله أحياء“ فالروح هي ذلك الجزء الحي من الإنسان الذي يربطه بالرب“.

”إنك تسيء فهمي. من الصعب الاستسلام لما هو مجهول، مثلما يصعب قبول الحقيقة“.

”فتاتي العزيزة، بإمكانك أن تتخيلي العديد من الأشياء، لكن لا تدعيها تُفسد عالمك. فأشجار التفاح سوف تُزهر قريباً، وسوف يحوطنا هذا الجمال من كل جانب! تذكرني هذا القول لكانط: ‘شيطان يغمرانني بالإعجاب والإجلال المُتعاظمين على الدوام: السماء المُرصعة بالنجوم من فوقني، والقانون الأخلاقي في داخلي’“.

”بالإعجاب والإجلال المُتعاظمين على الدوام... يا إلهي الرحيم! دعني أُخبرك إذاً بأن إبهارت لم يمت، وأُنني كنت معه ليلة أمس“.

أمسك أوريلْيوس رأسه، إذ شعر بباروكته تقفز من الدهشة، كما رأى بأن الوقت قد حان للذهاب، والعودة عبر نهر الدوجافا، إلى أبرشية فيكسال للقاء شقيق كانط يوهان هاينريش، لربما تكون لديه أخبار جديدة عن حالة إيمانويل الصحية.

(7)

انتشر الخبر سريعاً: فابيان إيجل سيتترك المدرسة ويرحل بصحبة عائلته إلى ألمانيا. لقد غادر كثيرون في الماضي دون أن ينتبه لهم أحد، لكن اتضح أن عدداً من التلاميذ بالفصول الأخرى كانوا في طريقهم إلى ألمانيا أيضاً. لكن هذه المرة، لم يكن آل: بلومناخ، وتيفنتال، وديلاجاف، وإيجل، وميلر هم أنفسهم من عرفناهم دوماً، فالآن عرفناهم بصفاتهم ألماناً وحسب.

مثل أي مؤسسة اجتماعية، تكوّنت المدرسة من شبكة معقدة من العلاقات، والانتماءات، والتحالفات والصراعات. كان هناك سور قائم بيني وبين فابيان إيجل، لكن لم يسبق لي تصوّر أن اختلافاتنا القومية قد تلعب دوراً في ذلك، خاصة أن مدرستنا بدت مثل حصن منيع ضد هذا النوع من التمايزات. لكن اتضح العكس، فقد تداعى هذا الركن من حصننا، (الذي حسبناه منيعاً) ببساطة. تاركاً هوة محدقة، لكن أيضاً، كاشفاً عن منظر لم يسبق لنا من قبل رؤيته، وقد ناقشنا المسألة مع مُعلمينا.

”هل إيجل ألماني حقاً؟“ استجوبنا المُعلم، وكان سؤالنا من صنيع الدهشة، ولو أن النبرة التي نطقنا بها لفظة ”ألماني“ قد اختلفت عن ذي قبل، كما لو كنا نتحدث عن عملة لاتس مشبوهة وجدناها في محافظنا.

”أمه الألمانية“.

”وأبوه؟“.

”لاتفي“.

اتضح كم أن الخلفيات العائلية لزملائي كانت مُثيرة للاهتمام! إذ تعرفت على العديد من الأسر من شتى الخلفيات القومية. على سبيل المثال، كانت والدة صديقي ريتشارد الدوقة الكبرى لتارتار⁽³⁾، أما والدة إدفارت زيليتس فهي بريطانية. وأشار اسم صوفيا جاسكفيتشا إلى أصولها البولندية، في حين تحدث هاريجس كروس بالإستونية مع جده. كما انتمت أمهات العديد من فتيان صفنا الذين جاؤوا من عائلات عسكرية للطبقة العليا القيصرية في روسيا. أما من تعلموا في روسيا ثم عادوا إلى لاتفيا فقد تزوجوا نساء أجنبيات. ولم يمنع ذلك، العائلات المُختلطة التي كثر ذكرها في الجرائد والكتب، من أن تحظى بالاحترام والتقدير، فلم يكن من شك إطلاقاً في كونهم لاتفيين، علاوة على أن هذه العائلات جسدت الهوية اللاتفية مثل: غوبر، أوشكآب، كالنينش، كوندزيتش، ميدنش، بورفييتش، ثينتلس، تيلبرج، زلاكينس.

تأملت الأحداث الأخيرة حتى انفجر عقلي بالأسئلة، مثل مشحد يُطلق شرارات بَرّاقة بينما يسن نصلاً. فماذا يعني أن تكون لاتفياً؟ وماذا يجب أن يحدث لغير اللاتفى حتى يصير لاتفياً؟ أو لمن هو لاتفي كي لا يصير لاتفياً؟ فهل يُمكن تقسيم وضع المواطن اللاتفى إلى شقين: أن تكون لاتفياً مُتجذراً، أو لاتفياً عارضاً، بحيث يُمكن عكس كلا الحالتين في ظروف مُعينة.

3- مدينة في أذربيجان.

بناء على المحادثات داخل الصف، وأروقة وفناء المدرسة، اكتشفت أن زملائي كانوا مهمومين بأسئلة مُشابهة. حتى تحوّلت القصص والنكات إلى شائعات عن هتلر الذي يُخطط لتوسيع حدود ألمانيا الجديدة خاصته، والتي هي بالفعل كبيرة مثل منطاد عملاق منفوخ فوق أوروبا. ولأن الإمبراطورية لا يُمكن ملؤها بالهيليوم، يتم استدعاء الألمان حول العالم إلى بلدهم. وعبر التنويم المغناطيسي، فإن الكراوتس⁽⁴⁾krauts على استعداد لابتلاع المسامير، والجلوس على الحديد المُنصر تحت تأثير شعوزات هتلر.

كثُر اللَّغَط عن أن الألمان لم يرحلوا بإراداتهم، بل لأنهم قد أُجبروا على ذلك، وعن أن بنوك ألمانيا الفارغة هي السبب، إذ كان سيُسمح لهم بالاحتفاظ بالقليل جدًّا من أمتعتهم، أما المصانع، والمباني، والأراضي والسيارات فسوف يتم بيعها وتحويل أثمانها إلى قنابل. كما ظهرت إشاعات أخرى على قدر أكبر من السخافة، وهي أن الألمان كانوا يغادرون حتى يفلتوا من الروس، في حين ربط أصحاب النزعة الباطنية خروج الألمان بنبوءة نوستراداموس عن ”زمن المياه الفائرة والنيران المُحتدمة“.

شعرت بالغرابة. كنا نتحدث عن عشرات الآلاف من البشر، فهل بمستطاع شخص واحد التحكم بهم بمُجرد التلويح بيديه من بعيد مثل المايسترو؟ قبل آلاف السنين، اصطف جميع اليهود خلف موسى، حتى يُخرجهم من مصر إلى الأرض الموعودة، فهل يُعيد مثل هذا الحدث نفسه؟ وهل بإمكان الحديث عن الروح التيوتونية أن يكون حقيقيًّا؟

4- مصطلح ازدرائي، استُعْمِل لوصف الألمان بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، مُشتقة من الكلمة الألمانية Sauerkraut، والتي تعني حرفيًّا ”العُشب الحامض“.

كيف وَصَلَ هؤلاء إلى هنا في المقام الأول؟ لقد ركبوا السفن وأتوا إلى هنا، والآن، يركبون السفن ليرحلوا. في ذلك الزمان كان بابا روما إينوسنت الثالث هو من أصدر الأوامر؛ أما الآن فالفوهرر مستشار الرايخ.

لقد ساد الأجواء شيء من الطيش، والاستفزاز، وحتى بعض الغطرسة. فكتبت الصحف بشماتة عن الألمان المُغادرين، مع نبرة ارتياح إلى حد كبير، كما نشرت المجلات رسوماً ساخرة. وكنا نستمتع خلال الفسحة إلى مونولوج الأخوين ليثنيك الذي يقول: ”يرقص البريطانيون على أغنية لامبث/ ويلوِّح الكراوتس: وداعاً/ إنهم يُبعدون مؤخراتهم عن هنا/ جيد لهم، وأيضاً لنا“.

التقيت فابيان للمرة الأخير بحجرة المُعلمين، من المحتمل أنه أتى لسحب بعض الأوراق، أو لدفع غرامة ما. بينما كنت هناك لأخذ أحد المُجلدات الخاصة بصفي، والذي كان بحوزة المُعلمة التي كان فابيان يتحدث إليها، ولذا، فقد استمعت إلى حديثهما رغماً عني. سألت المعلمة فابيان عن نوع الوثائق التي يريدها، فأجاب بأنه في حاجة إلى ورقة واحدة فحسب، عبارة عن بيان يُثبت شجرة عائلته، موجود بالأرشيف، أي بيان عن عرقه.

”حتى كم من الأجيال؟“.

”ثلاثة“.

”حتى تُثبت أن أجدادك كانوا ألماناً؟“.

”لا، لأي غرض؟ إن موظفي الجمارك منشغلون بما إذا كان أي من

أقارب المهاجرين يهودًا أم لا؟“ عَوَجَ فاييان شفتيه بغطرسة، من الواضح أنه كان يعيش في المستقبل، شاعرًا بالملل من تفاهات الماضي.

في تلك الليلة، ذهب لرؤية جدي، حيث أضاء مصباح زيت -يُصدر طيفًا أخضر قاتمًا- سطح مكتبه الكبير، والمُكَدَّس بدلائل مادية على هواياته، بداية بالمجلدات العلمية المُنمقة، المُوزعة بين أربع لغات، وصولًا إلى قصاصات الصحف من أكبرها إلى أصغرها. بالإضافة إلى فواتير غير مدفوعة وقصاصات أوراق تملأها الملاحظات والحسابات. وكالعادة، كان المنظار ثنائي الأعين الخاص به، ورقعة شطرنج عليها كومة مُختلطة من قطع اللعب، بجانب كعكة مُزينة بطريقة ظريفة.

كان ولع جدي بالشطرنج، والذي تجسّد في معالجته لمشاكل الحياة اليومية عندما لم يجد من يُشاركه اللعب، قد تحوّل بوصول يانيس إلى شعلة مُتقدّة.

لم يرتدِ جدي نظارات، بل كان يستعمل عدسة مُكبّرة. وعندما دخلت إلى مكتبه، كان ممسكًا بالعدسة السميكة من مقبضها العاجي، وقد رمقني من خلالها مثل عالم نباتات يفحص زهورًا داخل معشبة. في معطفه الدمشقي أحمر اللون بطيّات من الساتان، والذي وَصَفَه عَرَضًا بردائه المنزلي، فبدا مثل جنّي ألف ليلة وليلة أو بابا نويل الذي نسي تثبيت لحيته.

”هلاً طلبت من يانيس الانضمام إلينا؟“ قال جدي. ”فأنا لم أره اليوم“.

”لقد خرج يانيس بصحبة البارونة“.

”هل تدري لماذا يشتري بودرة البراغيث؟ لقد كثرت شكوى العمّة ألما منها دون أن تدري ما العمل. والآن يُحضر لها يانيس عبوة كل يوم. لكن لا تقلق بشأن ذلك“ لوّحت بيدي، ”إنها بودرة من المتجر الياباني بشارع كالتشو. أرى أن يانيس يحب التجول هناك، ومع ذلك فهو يرفض الذهاب معي إلى مقهى الآيس كريم الإيطالي“.

كنت متأكدًا من أنني ألقيت تعليقًا طريفًا، وأن كلانا سيضحك من قلبه على ذلك، لكن جدي ظل جادًا.

”حسنًا إذًا، فقد رأيت أنه لا أحد يشتري بودرة البراغيث دون داعٍ“.

في أثناء حديثنا، لامست دون قصد السطح المعدني الخشن والبارد للمنظار، ربما لأن أطراف أصابعي قد تاقت للملمس الذي عرفته منذ الطفولة، حيث ارتبطت القشرة الجافة للمنظار بتصوراتي الباكرة عن الطبيعة المُتقلبة للمسافة، وعن كيف بدا هذا الجهاز مصدرًا لقوى التضخيم والتصغير. لكن، كان محظورًا عليّ الاطلاع على الأوراق والكتب الموجودة فوق مكتب جدي، أما الأدوات، أو الأشياء كما دعاها، فكانت مُتاحة للفحص.

رَمَقني جدي دون تعليق.

”ما الجديد في السماء؟“. تساءلت لاستئناف الحديث.

”يُمكنك رؤية المريخ بوضوح ليلًا...هل تفاجأت؟ أنت تعرف أن المريخ سيوافق إحداثياته مهما حدث“.

”هذا بالضبط السبب في كونه جديرًا بالمشاهدة“.

”هل تُعيد اكتشاف ذلك مرارًا؟“.

”حتى أتيقن منه، فأحتفظ بإيماني“.

”يبدو ذلك متديناً إلى حد بعيد، لكنك لا تبدو كزوار الكنيسة“.
انقشعت سحابة الوقار التي حامت مدة طويلة فوق جدي.

”للكنائس عيبٌ واحد هو سُقوفها، فلا بدَّ أن تُقام الشعائر في الهواء
الطلق تحت السماء المرصّعة بالنجوم“.

جرت أحاديثنا بهذه الوتيرة عادة، فعندما يبدأ جدي مناقشة وجهات
النظر، فمعنى ذلك أنني لا أعطله عن شيء مهم، ولذا كنت أخوض
المُحادثة في اطمئنان. آنذاك أردت الحديث عن الهجرة المُتواصلة
للألمان. لكن لسوء الحظ، تَسبَّبت واقعة واحدة في جعل هذا الموضوع
شائكاً، وهي أن البارونة ألمانية، كما أن الحديث عنها عني الحديث عن
علاقته بها، لكن منذ أصبحت بالغاً -عملياً- أصبحت المُخاطرة بأحاديث
مُعينة مع جدي شغفاً في حد ذاتها.

بدت العلاقة بين جدي والبارونة مُميزة، لكن شبه سرية.

أخبرته بحديث فابيان عن نسب الأجيال الثلاثة: ”هل تتحدد الجنسية
بالدم الجاري في عروق المرء؟“.

لا بدَّ أن السؤال كان مُفاجئاً، إذ حدَّق جدي بي مُجدداً عبر عدسته
المُكبّرة.

”لم تر الإمبراطورة كاثرين الثانية أميرة تسيربست، روسيا إلا في
الخامسة عشرة من عمرها، فهل حال ذلك دون أن تُصبح كاثرين
العظيمة إمبراطورة روسيا؟ وهل حالَ الدم النمساوي لهتلر أو أيّاً كان
من دماء البلدان الأخرى التي تجري في عروقه دون أن يكون ألمانيّاً؟“

نحو العام 900، أسس رولو زعيم القايكنغ دوقية نورماندي في شمال فرنسا، ثم أنجب ابناً غير شرعي من معاشرته لابنة دباغ فرنسي ما، هذا الولد أصبح في ما بعد ملك إنجلترا وليام الفاتح.

”إذاً، فإن مفهوم الجنسية لا وجود له؟“.

”لا، بالطبع لا. من الإجحاف قول ذلك، إذ إن انقسام الناس إلى قوميات هي ظاهرة في حد ذاتها، تماماً مثل رطوبة الهواء التي تتجمع لتشكل السحب، أو مثل تكوّن الأمواج. فإن لم تكن تعلم أي شيء عن تركيب الأرغن ذي الأنابيب، ربما تظن أن الأنابيب بلا فائدة، في حين أن الأرغن لا يُصدر موسيقاه سوى بفعل تلك الفتحات.“

توجد في العالم عادة مراكز قوى، والتي تبرز فجأة حتى تُراكم القوى الأصغر منها؛ ومن ثم تُعيد ضخها في العالم. وإلى أن يبدأ مجموع الأشياء في التفكك والانحطاط، ستستمر الروابط في خلق توترات مُدمرة“.

”إذاً، ربما يفيد رحيل الألمان؟“.

”إنني قلق بشأن الفساد المتصاعد خلف الستار“.

”لم يجبرهم أحد على الرحيل“.

”إن الأسباب التي تدفع الناس أو تمنعهم من فعل شيء لها وجه وعورة. وقد تحمّل ألمان البلطيق دوماً غربتهم عن بلدهم. لأنه لمدة سبعمئة عام، عنت كلمة ألماني هنا أن تكون رئيساً، فليس من السهل خسارة الامتيازات، وربما هذا ما دفعهم بالأساس لعقد الآمال على هتلر“.

”والبارونة منهم أيضاً؟“ طرحتُ السؤال دون تفكير، لكنه كان

حُطوة لا مفر منها لكسر الحدود. وقد واصلت عينا جدي الابتسام أسفل حاجبيه المعقودين بطريقة تأملية، لكن يده المُرتعشة دلّت على أن سؤالي قد أثاره.

”البارونة؟، لا أظن ذلك.“

بدا الأمر وكأن الحديث انتهى، لكن بعد بُرهة من الصمت، استأنف جدي قائلاً:

”انظر، الألمان ليسوا شيئاً واحداً، كما أن يوهانا تربطها علاقة خاصة بلاتفيا.“

لقد قال يوهانا وليس البارونة، وهي لمحة ذات دلالة كبيرة.

”بين أسلافها، كان ألمان-البلطيق المغمورون: آل ميكليينشتاوفز، الذين رفضوا احتجاجات النبلاء بقيادة باتكول المُتحالف مع روسيا وبولندا ضد ملك السويد.“

لقد حدث ذلك منذ عقود بعيدة! في القرن السابع عشر! فما الداعي للحديث عنه الآن؟“

”إننا نتحدث عن أناس يتطلعون للماضي فيجعلون من الذكريات بوصلتهم، إنهم يتحركون نحو الأمام بالتراجع للخلف، وهذا ينطبق على آل ميكليينشتاوفز، فهم يتفاخرون بأن المعركة التي قُطعت رأس باتكول وقعت داخل ملكيتهم.“

”إذاً، لم تحدث معركة سبيلفا بالقرب من مصب نهر دوجافا؟“

”لا، بل هنا، في العزبة، هنا حيث ترك تشارلز الثاني عشر ملك السويد حذاه الشهير.“

من المؤكد أن جدي كان يستمتع بالانعطافة التاريخية لحديثنا، فقد قام إلى رف من الكتب وأمضى بعض الوقت في البحث، حتى عثر على مُجلد مثير للإعجاب، ثم عاد لمكتبه وهو ينفض الغبار من على غلافه. ”ها هي مذكرات أحد آل ميكلينشتاوفز، وهو جد يوهانا وعضوً برابطة ريجا الكبرى للتجار“.

فتح جدي الكتاب على صفحة مُعلّمة من قبل.

”أظن أنك لن تفهمها بالألمانية، لذا، دعني أقرأها باللاتفية: ”بعد أن سَحَق السويديون كتائب الجيش الروسي-الساكسوني الثماني وعشرين وسريّات خيَّالته الثلاثين مثل حزم القمح أمام العزبة تحت شمس يوليو الحارقة. بالإضافة إلى ستة وعشرين مدفعاً، وأربعة أعلام، وأغلبية مؤنهم، مقابل خسارة 1300 جندي فقط كما ادعى تشارلز الثاني عشر، ذهب الأخير ليستحم بغرفة الضيوف، ثم غيّر حذاءه وشرب كوبين من الماء“.

نقر جدي بإصبعه عدة مرات فوق الفقرة مثل مُدوّن بيانو، ثم أغلق المُجلد بحركة مفاجئة.

”ربما تُدرك الآن أهمية هذه الدار وهذا المكان لآل ميكلينشتاوفز. حتى إن لم تُشكل العزبة مصدر دخل لهم مُطلقاً، بل الخدمة في الجيش أو التجارة، حيث امتلكوا شركة شحن ومستودع تخزين“.

”لماذا إذاً لم يُدفن والد يوهانا بمقبرة العزبة؟“.

أخذت راحتي في استعمال يوهانا بدل البارونة، وكأنني أؤكد على الطابع الندي لمحادثة تجري بين بالغين.

”هذا بالضبط، ما يجب عليك معرفته أيها السيد. كان بالدر ميكلينشتاوفز عالم آثار معروف في أنحاء أوروبا. ولأن أحدًا لم يدرس منطقة البلطيق دراسة كافية قبل ذلك، فقد افترت هذ العالم بمقابر الميغاليث⁽⁵⁾ الواقعة في فيدزيم، حتى سماه أهلها بالدر المهوس، وذلك إذ نجح في الحصول على تصريح بأن يُدفن هنالك في المستقبل، بجوار موقع الدفن الذي اكتشفه قرب بحيرة باوجيزر، بذات الطريقة التي دُفن بها أسلافنا قبل 2500 عام داخل الدولمن⁽⁶⁾. هكذا يبدو الهوس وراثته بين آل ميكلينشتاوفز“.

”لكنها ليست يوهانا ميكلينشتاوفز، بل يوهانا هوليندر مثلما يقول جواز سفرها الذي رأيتَه بنفسِي“.

لم يُحرك تعليقي ساكنًا في جدي، لكن بدا أن القصة المُوجهة نحو نقطة بعينها ككرة بلياردو مُصوبة نحو حفرة، قد انحرقت في اتجاه مفاجئ.

”يُمكن للمرأة تغيير لقبها بنفس السهولة التي ترتدي بها فستانًا جديدًا“.

”هل كان هوليندر عالم آثار أيضًا؟“.

”بمناسبة علم الآثار، تذكر أن الطبقات لا تُدرَس، وإنما يتم نبشها فقط“.

مُذهل! شكّل لغز العلاقة بين جدي والبارونة جزءًا من لغز علاقة

5- مقابر تعود إلى عصر ما قبل التاريخ.

6- طاولة حجرية ضخمة مكونة من الصخور الصوانية الكبيرة، تشكل ما يشبه غرفة صغيرة. (ويكيبيديا)

الرجل والمرأة ككل، كان هناك المزيد لمناقشته في ذلك الحين، لكن لسوء الحظ، قاطعتنا العمة ألما.

”جيكابس!“، كان شهيقتها المتقطع علامة مؤكدة على قلقها. ”أنا قلقة على الصبي، فلم يعد بعد. امتطت البارونة قطعة القمامة تلك ليبيس، بينما امتطى يانيس سبيرينس. لم يسبق أن قَضِيَ بالغابة كل هذه المدة.“

كانت العمة ألما قلقة دون داع. وربما عرف جدي ذلك أفضل مني، فما الذي قد يحدث لهما؟ صحيح أنها إحدى ليالي نوفمبر المظلمة، لكن من المستحيل أن تتوه يوهانا! فهي تعرف الغابة جيداً؛ جميع سُبُلها، وكل حاجز ناري عند الحقول والأدغال المحيطة بها، كما تعرف الخيل طريق العودة للإسطبل دون حاجة لتوجيهها.

وبخلاف ظني، فقد ترك كلام العمة ألما طيف قلق واضح على وجه جدي، وضاع الأمل في استئناف مُحادثتنا السابقة. ومع ذلك، فإن المُحادثة استمرت بنفس الصراحة لكن في إطار جديد؛ أي في التغيير البادي على وجه جدي والذي فضح الكثير عن علاقته بالبارونة، مما لا يُمكن صياغته في كلمات.

حتى اللحظة، كان عقلي عاجزاً عن تصور جدي الستيني والبارونة الخمسينية كعاشقين، لكن ما شهدته للتو لم يترك مساحة للشك في تورطهما العاطفي. لقد اتضح أن تلك اللعبة التي لعبناها أنا وجدي بمُفردنا طيلة تلك السنوات، وبانضمام يانيس كلاعب ثالث، كانت تحتوي على لاعبة أخرى منذ البداية تماماً؛ وفي القلب منها، إنها البارونة التي عرفتُها وتعلقتُ بها، ورغم ذلك، كم كان صعباً تقبُّل هذا الاكتشاف.

في الواقع، لم تكن العلاقة بين البارونة وجدي، الآن، وفي ما بعد، تهمني بقدر علاقتي مع البارونة مستقبلاً. فهل تستمر علاقتنا على حالها؟ هذا السؤال كان محملاً بشك عارم.

بالفعل، كان المنزل الذي شعرت فيه بالأمان دوماً، يُعاني من بعض التصدعات التي صاحبت وصول يانيس. أما الآن، فقد صار مُهدداً بالخراب ما لم تغادر البارونة رفقة غيرها من الألمان.

”سبق أن نصحتها ألا تخرج ليلاً، فالخنادق القديمة بالغابة هي أوكار للذئاب“. وحتى يُخفف جدي من أثر كلامه، حاول إلقاء نكتة ”ربما ندعو ذلك ليلاً، لكن في مصر، يكون الليل كثيفاً لدرجة أنه يُمكنك حك يديك لإشعال النار. عموماً، شكرًا لك يا ألما، سأخرج للبحث عنهما“.

”وأنا أيضاً“ قفزت من على الكرسي، وكانت الأمور تزداد إثارة.

”هل يعرف أحدكم من أين نبدأ..“.

واصلت العمة ألما الكلام ”سوف نجدهم!“.

”من طريق كليستي“ تكلمتُ بمزاج هادئ. ”سيكون من الحمق التوجه نحو الغابة في الظلام“.

”إذا كان على الحماقة“ قال جدي مُلوحاً بيديه بعصبية، ”فإن غلطة الذكي لن يُميّزها عن غلطة الأحمق في شيء“.

(8)

مرّ شهر منذ أن عادت البارونة إلى منزلها، لكنها لم تنزل تتطير
جِيئةً وذهاباً فوق نفس الأرجوحة؛ أرجوحة لا تملك لا أن توقفها، ولا أن
تتركها. بينما يموج العالم من حولها بالمشاهد والأفكار. ففي لحظة،
تثيرها بهجة الشعور، لكن سرعان ما يقبضها الخوف من السقوط
المُؤجل. لم تقدر فايتروت على التفكير بسلام، ومن يقدر على ذلك وهو
مُعلق في الهواء؟

إن الاستدعاء الصريح لكل ما حدث بينها وبين ذلك الرجل، دون خجل
أو اعتبار لأي شيء آخر، لم يكن ليُجعلها تشعر بالندم أو عذاب الضمير.
لقد اكتشفت في نفسها أحاسيس جديدة، لم تكن لتنتبه إلى وجودها من
قبل، وحتى إذا حدث وانتبهت لوجودها، فبداعي أوهام يدفعها الناس
إلى تبنيها ليس أكثر.

أما الآن، فقد عَبرت إلى نفسها، وكأنها تَعبرُ بوابة مدينة طال
انتظارها حتى تَفتح. وهناك، تحوّلت بين عشية وضحاها إلى شخص
آخر. وكلما تأملت ما حدث، كانت تشك في أنها كانت هي، أي فايتروت
قون بريغن. وأنى لها ذلك؟ وهي من عاشت سنيّاً تؤمن بأنّها زوجة
الجندي المُخلصة.

لم تنقص فايتروت الخبرة، صحيح أن إبهارت لم يكن الشخص
الذي اعتادت عليه، فاختلفت رائحته، مثلما اختلف الحوار الصامت الذي

دار بينهما عندما حلّ اللمس محل الكلام. أمّا ذلك الجانب من إبهارت، والذي وَجَبَ عليها التعرف عليه بواسطة تلك الحاسة الخاصة التي يهبها الزمن للأزواج. فهل تيقّنت منه حقاً؟ وهل تمكنت داناي من التعرف على زيوس حينما تنكّر لها في هيئة مطر زهبي؟ لا يُمكنها حسم ذلك.

كانت ذاكرتها مُشتتة بين العديد من الأمور. فما تفسير أن هذا المُركب البشري، والذي يُمثل عزيزها إبهارت نصفه السفلي في أفضل الأحوال، كان قادراً على إنجاز ما لم يقدر إبهارت أبداً على إنجازهِ؟

لقد مرّت فترات طويلة في الماضي، بدا خلالها أن إبهارت لم يكن حتى لينتبه إلى وجودها. كما أن للقرن الثامن عشر خصوصياته بالطبع، حيث يُشاع بأن لنساء فيرساي أعياناً سحرية ورفوفاً لمزهريات الورود الصغيرة مُثبتة أسفل تنانيرهن المنفوشة الضخمة، وذلك في حال حضر أزواجهن فجأة، واحتاج عشاقهن إلى مكان للاختباء.

منذ تلك الليلة، اعتادت فايتروت أن ترى حلمًا بعينه: كانت عارية ومُستلقية على أريكة، مثل الفتاة في لوحة بوشيه، ولا أحد بالقرب منها، بينما تشم رائحة مميزة لجسد رجل، وتبدو الرائحة غير مألوفة، لكنها منحتها إحساسًا بأن إبهارت كان قريبًا.

لا بدّ أن خياطة أجساد الناس بعضها ببعض يُشكل عملاً مجنونًا. فحتى فايتروت، وبالرغم من تعليمها المنزلي المحدود، كانت تعلم بأن نصف الجسم السفلي وثيق الصلة بأعضاء نظيره العلوي. لقد أخبرها إبهارت أكثر من مرة بأن قضيب الرجل لا يستجيب دائمًا إلى التعليمات الصادرة عن مخه. ففي أكثر الأحيان، يميل القضيب لمخالفة تلك الأوامر

أياً كانت، ولذا يصبح الحكم بأولوية النصف العلوي على السفلي بلا مُبرر. فهل من الأفضل لو أن إبهارت كان النصف العلوي، والنصف السفلي شخص آخر؟ وذلك حتى ينتهي الأمر بوجه إبهارت ويديه وصدرة المُشعر ورقبته الممتلئة بجانبها في السرير، لكن كجزء من كائن خَصيِّ.

إنها تذكر الآن غرابة فقرة مرّت عليها بالإنجيل دون انتباه كافٍ: ”وعرف قايين زوجته، فحبلت، وولدت له حانوك“. إذاً، لم يكن الرباط المقدس كافياً، وإنما كان على الرجل أن يعرف زوجته. فهل بمقدور النصف العلوي فعل ذلك أمّا الأسفل فلا؟ وفي المُقابل، إذا كان النصف السفلي هو من يعرف الزوجة؟ فهل بمقدور العلوي أن يعرفها كذلك؟ علقت الفكرة بحبائل عقلها، حتى إذا رأت زوجين تعرفهما، شرع خيالها في تركيب أنصافهما معاً منذ البدء، ومن ثمّ تقييمها كل على حدة.

إن حياة ألبرتين ابنة عمها، ليست مثالية بأي حال. حيث تربطها بماكسيميليان زوجها علاقة بائسة. تشعر فايتروت بذلك كلما زارتهما. حيث تنتهز ألبرتين؛ المُدلة بطبيعتها، أي فرصة للتلاعب بعواطف زوجها، ما ينتهي بها عادة إما مُحبّطة، أو ساخطة، أو مُنزوية في غرفتها وهي تتنفس بعصبية، في حين يحزم ماكسيميليان أغراضه ويخرج في رحلات صيد طويلة، فتثور ألبرتين، وتشد وصيفتها من ضفيرة شعرها، أو تُرهب الخادم هانس بالتجديف إلى الجزيرة الاصطناعية الواقعة بوسط البُحيرة، كما كانت تقسو على غيرهم من طاقم المنزل دون سبب.

أما كارينا شقيقة فايتروت، فكانت حياتها الزوجية كئيبة لأقصى حد، حيث عاشت رفقة زوجها فرديناند في نفس المنزل، لكن في جناحين منفصلين، حتى إنهما لم يكونا يلتقيان لعدة أيام، إذ يتواصلان عبر الرسائل التي يحملها الخدم جيئةً وذهاباً فوق أطباق فضية. وعندما يذهبان إلى الكنيسة سويًا يوم الأحد، كانا ينفصلان مُجددًا بمجرد الدخول من باب المنزل. ويُشاع بأن علاقتهما أضحت هكذا عقب زفافهما على الفور، حين وقف فرديناند لمدة ساعة تقريبًا خارج الغرفة بملابس النوم فقط في صقيع رأس السنة، دون أن تسمح له كارينا بالدخول، حتى أصيب بالتهاب رئوي، وتحوّل مصيره إلى قضاء الليالي مع أحجار التدفئة بدلًا من زوجته.

هل بمقدورها، هي فايتروت، الجزم بأن علاقتها الماضية مع إبهارت كانت مثالية؟ على كل، يجب ألا تخدع نفسها! بالتأكيد هي لم تلاحظ شيئًا غريبًا خلال السنوات الأولى لزواجهما، لأن إبهارت كان بالجيش، وكان مُجرد وجوده بالمنزل أشبه بالعطلة. لكن بمرور الوقت، تلاشى بريق السعادة. ناهيك عن الخشونة الجسمانية لإبهارت، والتي كانت تستثيرها في أول الأمر رفقة لمستة النشوانة، وقد بدا أن كل ذلك ينتمي للأشياء الجديدة والمجهولة التي يكشفها الزواج للمرء، والتي اعتقدت هي بأنها نافعة إجمالاً. نعم، كان إبهارت مغرورًا، وصاحب نظرة محدودة للعالم، لكن هذه العيوب الصغيرة التي برزت من حين لآخر، لم تكن ما يُقلقها حقًا.

كان الثقل الذي حملته خلال السنوات الأخيرة بفعل شعور مهيمن عليها، لم تستطع شرحه أو صياغته في كلمات. أمّا الآن، فقد نورّتها الأحداث الأخيرة بعض الشيء. كي تُدرك بأن تيار جزعها الدائم، وخفقان

قلبها أثناء النوم، جعلها قلقة من أن علاقتها مع إبهارت لم تملأ أيًا من فراغات روحها، وإنما أحدثت فراغًا أكبر. لقد انتظرتة مرارًا وتكرارًا حتى يُسارع ويملاً فراغها فتصير كلاً مكتملاً، لكن آمالها ذهبت سُدى.

أمّا في ذاك المساء، عندما قابلت إبهارت بهيئته تلك التي يصعب استيعابها. وبغض النظر عن المكان، أو الوقت، أو الظروف، وبخلاف مئات المرات التي كانت فيها مع زوجها، كانت تلك المرة الأولى التي يغشاها فيها وحي كهذا، ليغمرها بكليتها، فتتوقف عن التنفس كشخص مُفرد، وتتحوّل إلى كيان مُتسام يسبح في الهواء ويندمج مع آخر في كيان جديد، أكثر اكتمالاً، وأكبر من العقل والرغبة، ليس في حاجة إلى شيء، ولا يُمكن أن يُضاف له شيء.

لم يكن لديها مشكلة مع هيئة إبهارت الجديدة، سوى شخص أولست ذاك. فليس من المهم مدى فصاحة النقيب في التحدث بالألمانية والفرنسية، ولا سلوكياته الجريئة بشكل مثير للإعجاب، طالما أن أصوله كانت مثيرة للشفقة. فهو من دم عامي، دون قطرة نبالة واحدة. وقد اتضح بأن لقب الفرياهر الذي يحمله هو نتيجة غلطة لا أكثر. فعندما صدّق ملك السويد تشارلز الثاني عشر على الاقتراض من والد أولست لصالح المجهود الحربي، أراد الملك أن يبدأ إقراره باستلام القرض بـ“استلمتُ من الرجل الحر”، لكنه خلط بين العبارة الألمانية freier Herr التي تعني الرجل الحر وكلمة Freiherr التي تُشير إلى لقب النبالة، فكتب الأخيرة: “تسلمت من الفرياهر Freiherr”، وسرعان ما توفي الملك بعد وقت قصير وظل الإقرار على حاله.

قبل أسبوع، أحضر العم يواهم بعض المعلومات المفصلة حول نسب أولست، فكانت كما خَمَّنت بالضبط: وُلِدَ أولست لعائلة محلية من مُرتزقة الأرض الذين قدموا خدماتهم العسكرية للسيد الأكبر⁽⁷⁾ يُورك، وقد خدموا في فيالق الفرسان تحت قيادة السويديين. ثم ارتقى بعض أبناء الجيل الثاني منهم إلى رتبة فرسان مُدرعين. أما بارتولوميس زوجة أولست، فتتحدّر من إحدى عائلات ريجا، من تجار الخشب، وتجار الخشب هم فئة مشبوهة عموماً.

عصرت فايتروت دماغها، فلم تدرِ ماذا تفعل. فليست لديها أي وثيقة تؤكد أن أولست هو نصف قون بريغن، وربما لن تحصل أبداً على واحدة، فما السلطة التي قد تُصدرها؟ وكم سيكون من السخيف أن تقتحم غرفة أولست مُلوحةً بها حتى ولو كانت مختومة من الإمبراطورة بجلالة قدرها. وفي المقابل، هل تنبذ زوجها—أو بالأحرى جزءاً منه—وتتجاهله، رغم ارتباطهما بالرباط المُقدس. إن لم يكن إبهارت ميتاً بأكمله، فهل من حقها أن تكون أرملة؟ بالطبع، فإن هذا الموقف لا يقل سخافة عن سابقه. وبالمثل، فإن أولست نصف شخص تماماً مثل إبهارت، لذا، هل يُمكنه الاستمرار مع زوجته. لقد سلب منها هي الأخرى؛ النصف الآخر لأولست، فهل لدى باربرا نفس المشاعر المُتضاربة؟ من يدري؟

حسنت فايتروت أمرها بينما ازداد الطقس دفئاً، ينبغي أن تُسافر مجدداً إلى كاليوسترو لطلب النصيحة، فهو من أخبرها بأن إبهارت لم

7- إحدى مراتب النبلاء الإقطاعيين.

يَمْتُ. نعم، ستطلب من الكُونت استدعاء روح إبهارت نصف الحية/
نصف الميتة. ربما سيكون هذا الحدث الأول من نوعه في أوروبا؛ ولهذا
السبب تحديداً فإن الكونت لن يرفض طلبها.

وبنهاية الأسبوع، صعدت ثايتروت إلى المركبة الجماعية برفقة بون
سبريت غير المُتحمسة. والضباب الخفيف يَلْفُهما، ثم يزداد كثافة قرب
نهر ليلوب. كانت البارونة قلقة، بل مرعوبة قليلاً، في حين لمع القمر
عبر الحجاب الأبيض بعينٍ كفيفة.

(9)

دهمتنا الظلمة أثناء مُغادرة الإسطبل، بثقلها المحسوس، وعانقتنا بإحكام كأننا قد سقطنا فجأة في قاع دوامة، فلم نر شيئاً: لا رؤوس الخيل، ولا حتى أيدينا. لكن عيوننا تأقلمت تدريجياً، وتفككت الظلمة بعض الشيء بحيث تلمسنا أرجاء الفناء. كما اتضح أن السماء كانت أكثر صفاء مما بدت عليه في السابق؛ حيث واصلت السُحب انشطارها لتكشف عن تيار مُرصع بالنجوم يفيض ببقايا الثلج الأزرق. صرعتنا كآبة نوفمبر، حيث انبسطت سجاجات الأوراق تحت هياكل الأشجار العارية، التي ترتسم أمامنا مثل بُقع باهتة. من الصعب تصديق ذلك، فعلى الرغم من عرق الخيل، وعَطَن الأجمة والسروج، وجدتُ نكهة الخريف اللاذعة، والأروع على الإطلاق؛ طريقها إلى أنفي، وهي تنتمي للوقت الذي تُهاجر فيه أول الطيور إلى الجنوب مع أول تساقط للثلوج، بينما تبدأ أوراق الزهور النجمية المُتوردة في التساقط، وتنتفتح أولى أصداف الكستناء الخضراء الشائكة.

إذا لم يسبق لك أن ركبت حصاناً من قبل، فإن أي تصورات لديك عن ذلك؛ هي في الغالب غير صحيحة. قد تظن بأنه ما عليك سوى القفز على السرج وتركه يحملك مثل طائر بلا أجنحة. صحيح، إن ركوب الخيل سهل، تقريباً مثل رقص الباليه.

لكن الحصان مخلوق قوي وضخم، ولا يرضى بغير صحبة الراكب

الماهر. مثلما أن مشهد الإنسان والحصان يتصف بمهابة فريدة من نوعها، تُعبّر عنها التماثيل التي لا تحصى، والتي تُصوّر أناسًا مُهمين يمتطون خيلهم. لذا، يسخر جدي من إمكانية استبدال هذا الجلال بمشهد الإنسان والسيارة، لأنه لم يسبق لأحد أبدًا أن شاهد تمثالًا عظيمًا لشخصية مهمة جالسة داخل سيارة.

كان جدي أفضل خيال بيننا. وقد بدا عليه التغيّر بمجرد أن امتطى الحصان، لا أقصد بالتغيّر اكتساب الوقار أو المهابة، فلم يَفق جدي في ذلك أيًا من السائرين على أقدامهم. بل أقصد ذلك التحوّل الذي يُصيب أحدهم عندما تُلبسه رداء كاهن. من الصعب وصف علاقة جدي بالخيل، فلا بدّ أنها اشتملت على رابطة روحية، والتي أحدثت تفاهمًا خارقًا للعادة في ما بينهم، فكان باستطاعة جدي ترويض أكثرهم جُموحًا برشاقة ولطف. كما أنه لم يستعمل أبدًا كلمات ”جواد“ أو ”فرس“، بل كانوا بالنسبة له ”مُهورًا“ فحسب، أو بمعنى أصح: أطفالًا.

تقدّم جدي بعدو مُتسارع، بينما هدَرَ الطريق المُبلل تحتنا بإيقاع الحوافر الذي كسر الصمت، ناثراً الطين من حولنا. وقد خلق القلق البادي في ملامح جدي؛ شعورًا بالخطر لديّ. هذه المرة، لم يكن جدي قلقًا عليّ، ولا حتى على يانيس، لكن على البارونة!

ثم توقف عند تقاطع طريقين، يقود أحدهما إلى حديقة العزبة، في حين يقود الآخر إلى الغابة المُجاورة.

”حسنًا، أي الطريقين سنسلك؟“.

”إنني أفكر.. سيكون من الصعب تتبع آثارهم.“.

”لا أظن ذلك، فحتى العصفور يُخلف آثارًا أثناء طيرانه، وكذلك تفعل

السمة بينما تسبح“.

ضغط جدي سوطه على رقبة كايل المُتعبة. لكنه شد اللجام إلى صدره باسترخاء تام وذراعه مفرودة، على الأرجح حتى يترك لكايل أن تُقرر الطريق بنفسها. وعلى كلٍّ، فقد أحب تذكيرنا بأن أسلوب القيادة ذاك يعود إلى زينوفون الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

تصلبت كايل في مكانها، مُترددة بين الطريقتين مثل إبرة بوصلة دوّارة، وأخيراً توجّهت بعزم ناحية الغابة، التي بدا طريق رجوعنا منها طويلاً ومقفراً. تقدّمنا جدي لدى انعطافنا نحو الحديقة –إما لأنه لاحظ شيئاً أو لأنه غير رأيه– ثم أوقف كايل فجأة، بحدة جعلتها تصهل بقوة وتشب عالياً على قدميها الخلفيتين.

قادنا طريق الغابة عبر أرض فارغة لبعض الوقت. وفي ما وراء السكك الحديدية المحلية نادرة الاستخدام، انفتح الطريق على ما يُشبه تلاً كبيراً من الكثبان الرملية، من ورائها تبدأ الغابة. هنا، كان الظلام قاتماً حقاً مثل قبو. وكان الطريق إلى الغابة مُحاطاً بالأشجار من الجانبين ومُمتدّاً عبر وادٍ مُعتم؛ كاد يتحول إلى نفق عند بعض المواضع. لم يسبق لي الخوض في ظلام عميق كهذا، ومُجدداً لم يعد بإمكاننا رؤية شيء. لكنني كنت أعرف المنطقة عن ظهر قلب، مثلما عرفت المسافة التي قطعناها بناء على الحرارة المنبعثة من ظهر حصاني، ومقدار العرق المُترسب فوقه.

وعندما وصلنا إلى تخوم الغابة، ليس بعيداً جداً عن المكان الذي اعتدت السباحة فيه رفقة جدي بالصيف. رَبَطْنَا حَيْلَنَا. وفي ما بين

أشجار التنوب والشجيرات الواقعة على ضفة النهر، آنسنا حلقة نار كانت تتوهج مسرورةً بلمعانها القرمزي، فانتزَعْنَا بريقها من العتمة، بينما كان يُضيء الفوضى النابضة بالحياة في مُخيم العجر، ويُظلل الأشكال المُتوهجة: العربات المُغطاة ذات الأطر المُضلعة، وركائزها المثبتة على الأرض. الخيام العجرية المُنخفضة، والمصنوعة من أشعة القماش المُكشَّكة والمُدلاة فوق أوتاد مائلة. وقد ركض الأطفال والكلاب حول الساحة، بينما عزف على الكمان رجل ذو لحية كان يرتدي سروالاً أسود ثقيلاً وسترة حمراء. وقد اجتمعت النساء حول النار بأوانٍ من كل الأحجام، وأحياناً كانت تنانيرهن تَموج وتلمع في موجات مُلونة، ما يُعطي انطباعاً بأن هؤلاء الطبائخات ذوات الحركات السريعة، لم يكن يُجهزن العشاء، بل يحاولن لسع ملابسهن بالنار.

تجاهلنا المشهد فوراً بُمجرد أن لمحنا سبيرينس وهو يُهرول بين العربات والخيام وصبي عجري يمتطي ظهره. توقف قلبي لوهلة، بينما ظل جدي هادئاً بأعجوبة، ماضياً عبر حلقة النار، رافعاً برنيطته الرمادية كتحية، ومُوجهاً كاييل ناحية الضفة، من حيث تسمع إلينا صهيل سبيرينس السعيد. ويانيس الذي امتطى حصاناً أصفر غريباً، ذا شعر وذيل كلاهما طويل وأسود، هو شيء بين المُهر وحصان المزرعة. كان الأمر أشبه بمغناطيس يجذبنا سوية نحن الأربعة: العجري فوق سبيرينس، يانيس فوق نصف الحصان ذاك، جدي فوق كاييل، وأنا فوق برينسيس. في حين بدا تعبير يانيس -أو هكذا بدا لي- غريباً، وكأنه صُفَع على وجهه، أو كالذي فاق لتوه من أثر التنويم المغناطيسي.

”إنهم يرتحلون بالضبط مثل عمال السيرك.. كان لديهم دب، لكنه

مات عجوزًا“. قال يانيس.

”أين يوهانا؟“

”يوهانا...؟ كنت أسير أمامها، وعندما نظرتُ ورائي لم أجدها. أردت العودة، لكن سبيرينس تقدم أكثر داخل الغابة“.

”لندُر مرة واحدة حول الحديقة!“ أشار جدي بسوطه، كما لو أننا لا نعلم أي حديقة يقصد.

في الواقع، لم تكن الحديقة حديقة بالمعنى المقصود، بل بقية من الأشجار القديمة النامية أعلى دغل كثيف. وذلك حيث رُدمت البركة القديمة وقناة المياه وغطّاهما الزرع، وكان يغمرهما الثلج أثناء الربيع، ولاحقًا، غَزَتْهُمَا الضفادع الصغيرة. ولم يبق سوى ممشى واحد؛ كان نظيفًا بعض الشيء، وهو الممشى المؤدي للمقبرة حيث اتجهنا دون مُبرر واضح، لكنني كنت مقتنعًا رغم ذلك، بأننا سنعثُر على البارونة وليبييس هنالك.

نزل الصبي العجري من على الحصان، لكنه ظل قابضًا على اللجام. ”لقد عقدت أنا وإياهم اتفاقًا لمُبادلة الحصانين، بأخرين خاطفين مثل البراغيث، ولثيمين كالنمور“.

”إنه يُبالغ القول“ قاطعه يانيس. ”أبدًا، لم نفتح سيرة المُقايضة. لكنه زَعَم بأن من السهل تحويل سبيرينس إلى مُهر، إنها خدعة جديدة. وكذلك زعم أن بمقدوره وضع سبيرينس داخل زجاجة“.

”زجاجة؟“ بدأت المُحادثة تُثير جدي.

”أعني خدعة سحرية، كما في السيرك حيث حُلِم أحد السحرة ذات مرة بإخفاء برج إيفل“.

”ربما يُمكننا هذه المرة، وضع ذلك الساحر داخل الزجاجاة؟“.

”خذ عندك حلاً أفضل، ضعه داخل صندوق وانشره إلى نصفين“
اقترحت.

”خراء!“ بصق العجري، وألقى باللجام إلى جدي. ”إن مُخيم العجر بلا كهرباء. سيستغرق المنشار اليدوي الأبدية بطولها لفعل ذلك“.

انتقل يانيس إلى سبيرينس، ثم توغلنا ثلاثتنا داخل الغابة.

”ما العمل الآن؟“ نطق جدي بمُجرد عودتنا إلى مفترق الطرق، إلى الظلام مجدداً، مُتسائلاً ومُفكراً بصوت مسموع. ”يستولي رجل على برج إيفل ويُخفيه“.

”لم يكن عليّ فعل ذلك... أنا آسف“ كان صوت يانيس جافاً؛ ومُعبراً عن شعوره بالوحشة.

ترأت ليبيس أولاً وراء سور المقبرة الضارب للبياض. في حين كانت البارونة جالسة على صندوق أمام الباب، الصندوق حيث جمعت عظام أسلافها في كل مرة بحثَ فيها أحد المُخربين عن أشياء ثمينة، أو عن المتاعب.

قفز جدي من على صهوة جواده.

”يوهانا! ماذا تفعلين؟“.

”إنها ليلة عذبة وهادئة“.

”هل حدث شيء ما؟“.

”التفاهات فقط هي التي تحدث، لذا لا يقول أحد ‘حدث موت فلان’ أو ‘حدثت ولادة فلانة’“.

”كوني جادة يا يوهانا! لقد اختفيت فجأة“.

”التوت حدوة ليبيس، لذلك عدنا إلى المنزل“.

كانت حدوة ليبيس الخلفية اليسرى -على قدر ما رأينا في الظلام- مُتدلّية بعدد قليل من المسامير، وسرعان ما خلعتها جدي تمامًا، ورغم ذلك لم تعرج ليبيس. بعدها خببنا عائدين إلى المنزل، حيث لاحقتنا المحادثة المُتقطعة مثل شريطة مُمزقة في الهواء -طرفاها جدي والبارونة- كي تتأكد شكوكي، لأنه بمجرد أن سلّم جدي الخيل للسائس، حَمَل البارونة من إبطيها، فجسدت تلك الإيماءة التي لم أشهد نظيرها من قبل، ختمًا دامغًا على علاقة انكشفت للتو.

”يوهانا، تلطفي بالقدوم إلى مكتبي. والأولاد أيضًا، فهم لم يعودوا صغارًا بعد الآن. كما أن المسألة تمسهم في النهاية“.

تجمدتُ وملت برأسي على كتفي. إذ بدا الأمر كبنديل فوكو متأرجح، مُعلق بالبارونة، والذي قد يُزيح ما حوله بقوة.

”حسنًا، لِمَ لا؟“ لَمْ تفصح ملامح البارونة عن شيء.

لم يَضعف الولع الفولاذي بالتقاليد لدى جدي، فتوجب علينا غسل أيادينا وتغيير ملابسنا. كما طُلب من ألما إحضار الشاي، إذ اجتمعنا مُجددًا بمكتبه حيث أضيء مصباح الزيت بطيفه الأخضر قبل أن يُطفأ على شرف البارونة، وتوقد الشموع التي فرقعت فتائلها في سكون.

ومراوغاً بالحديث، استهل جدي كلامه بطرح سؤال مُباشر وهو يخبط بملعقته على الكوب.

”حسناً يا يوهانا، أخبريني بكل صراحة. ماذا بعد؟ إنني أراقب ما يحدث معك“.

نظرت البارونة إلى جدي، فشاهدت في عينيها الداكنتين شيئاً لم يسبق لي أن شاهدته في غيرهما من قبل، أي القدرة على تغيير بريقهما، وهو ما لا تقدر على فعله حتى الثريات بقاعة السينما. وقد ازداد بريق عينيها أكثر فأكثر“.

”وما الذي يحدث يا ترى؟“.

”إذا كان عليك الرحيل، فإنني أرغب بأن تأخذي حدوة الحصان هذه معك، وفي المقابل، فأنا أعرف ما يعنيه البقاء بالنسبة لك“.

”لم يمر زمن طويل منذ أن دعانا هتلر بالمُنحطين، نحن أحفاد الفرسان القدامى. ألا تذكر ذلك؟“.

لكن جدي واصل قائلاً:

”إن كلمات الفوهرر بالرايخستاج، والتي صدّقت على قيود إثنولوجية ما زالت تعني شيئاً“.

أنصت البارونة بفتور، إذ كانت تحاول تثبيت لفافة تبغ قصيرة بحامل سجائر طويل من الراتنج، بينما واصلت اللفافة السقوط. لقد لمحت هذه اللفافات الصغيرة مُؤخراً بالمتجر، وكانوا يدعونها سجائر. وبعد أن ثبتت السيارة بالفلتر، أشعلتها البارونة بلهب شمعة، ثم استنشقتها عميقاً ثم انتبهت لجدي مرة أخرى.

”إنه أمر سخيف يا چيكابس! سخيف! إنهم يُذكرونني بواجبي نحو ألمانيا، التي لا أملك ذرة نية تدفعني للاقتراب منها. لقد اتضح أنه يجب التصديق على نقاء دمي الألماني من قبل البولنديين الذين تم تطهيرهم حديثاً“.

”يجدر بنا الانتباه للأكاذيب، إذ إنها كثيراً ما تتضمن جانباً من الحقيقة. تصوّري أن الألمان متفوقون مع الروس!“ ضحك جدي والتفت ليانيس ثم لي. ”تلقى هتلر هدية صداقة من ستالين: النفط الخام، والحديد، والرصاص، الذين يحتاجهم في حربه ضد فرنسا وإنجلترا!“.

”لست مهتمة بالتبادلات التجارية“. نفخت البارونة سحابة بيضاء سماوية، كأنها تصنع ستاراً دخانياً، وتحاول تبديده في الوقت نفسه.

”اسمعي، ماذا قال ريغاشي روندشاو اليوم“. سحب جدي عدسته المكبرة، ومال بالورقة ناحية من الشمع. ’هؤلاء الذين انشقوا عن شعب ألمانيا الموحدة، إنما ينشقون عنه للأبد وسوف يتحملون عواقب أفعالهم‘.

”إنك تقرّأُ صُحف الأُمس يا چيكابس. وعموماً، ليس بمقدوري لا الانشقاق عن ألمانيا ولا الانضمام لها. إن أمريكا هي موطن الديوك الروميّة، لكن هل معنى ذلك أنها لا تعود ديوكاً في فرنسا أو بلجيكا؟“.

”لم أكن لأعقد مثل هذه المقارنة الدسمة لو كنت مكانك. إذ إن الفوهرر نباتي“.

”في حياته، منح سليمان الفرصة لأبي حتى يعمل في طروادة،

ولكارتز حتى يعمل بوادي النيل. كتب والدي بالصحيفة 'يجب على المرء السفر إلى بلده الأم في حالتين، حين يُرغم على ذلك، أو حين يرغب في ذلك'. لذا، أحمد لله على أنني لست مُرغمة على ذلك، مثلما أنني لست رغبة فيه“.

واصلت البارونة بعد برهة: ”بإمكانك منحي أفضل النصائح للتملص منهم، إذ إنني أستيقظ على هاتف يومي من مكتب القنصل“.

”من السهل عمل ذلك. ما عليك سوى ملء طلب العودة بأسرع ما يُمكن“.

”حقاً، يا لها من نصيحة“.

”بالطبع، لأنهم سيرفضون طلبك، أما سبب الرفض، فدعني لي“.

تفرّست وجه يانيس، مُخمناً ما فهم وما لا يفهم من حوار البارونة وجدي. وما إذا كان استوعب أن مستقبل هذا المنزل كان يتم تقريره للتو، وبالمثل مستقبل جدي المهني، وببساطة مستقبلنا جميعاً.

(10)

إن كل من يسافر إلى يلجافا (ميتاو) في القرن الثامن عشر، كان يجد مدينة بهيجة، مُتوسطة الحجم بمواطنيها الاثني أو الثلاثة عشر ألفاً. ورغم الدمار الناتج عن الحرب وتداعي أنشطة الدُوق يعقوب التجارية المُزدهرة، فإن ميناء المدينة لا يزال يحتفظ بمكانته بصفته المنافس الأول لميناء ريجا. وذلك لكونه المعبر الرئيس الذي يربط باريس بسان بطرسبرج. مثلما أمكن رؤية المباني الخشبية الجميلة بسقوفها القرميدية الحمراء من نوافذ العربات، وكانت الشوارع الرئيسية مرصوفة بالحجارة. كما كانت هناك أماكن العبادة الخاصة باللوثريين، والكاثوليك، واليهود.

وليس بعيداً جداً عن المدينة الدافئة على ضفة نهر ليلوب، وقع القصر الجديد للدوق إرنست بيرون. فكان ماكسيمليان يسخر من أن بيرون كثيراً ما خلط بين زوجته الليدي بنجينا جوتليب وعشيقتة الإمبراطورة أنا إيفانوفنا. مثلما خلط بين حصالة كورلاند والخزانة العامة لروسيا عند بناء قصر يلجافا، إذ كان القصر كبيراً، على قدر طموحه. لكن بعد وفاة الإمبراطورة، انتهى أمر بيرون منفيّاً في سيبيريا وتوقف البناء. والآن، يُحاول بيتر نجله استكمال مبنى أحلام والده.

لقد وُصفت أكاديمية بيترينا لقايتروت على أنها معبد للأنوار؛ حريص ألاّ تمر أروع عقول واكتشافات العصر على يلجافا مثل أسراب الطيور المهاجر، بل أن تستقر وتُعشش في المقابل، لكن لسوء الحظ، فإن هجرة قايتروت قادتها للعتمة.

كم من الساحر أن تتولد الكهرباء عند احتكاك الملف المعدني الساكن بالدوّار المُتحرّك. لكن ماذا يحدث عند احتكاك الحياة بالموت؟ لقد اكتشف الفرنسي لافوازييه مؤخرًا قانون حفظ الكتلة، لكن إلى أين يا ترى تذهب الطاقة المخزونة عند استهلاكها؟

لقد صارت الديانات خاملة، أما العقول المُستنيرة بالمعرفة فإنها ضحلة، وفارغة. وعلى كلِّ، يُمكن ردّ عجائب العالم إلى ”القوى الخفية“، الخيمياء، والتصوف، واستحضار الأرواح، والتواصل مع الموتى، وُعُصْب المستنبيين ومصاصي الدماء، والعرّافين، والمتبصرين الروحانيين، والأشباح، والساحرات والسحرة، والعارفين، والجان، والأرواح الشريرة، والعرافيت.

إن رغبات اليلجافيين في التواصل مع ”القوى الروحية“ حارقة كمنار تغذيها الرياح، بينما تتصاعد الخلافات بين أرسنقراطية كورلاند والدوق بيتر على اجتذاب الأموال. فهل يُمثّل أهالي كورلاند استثناء في هذا الشأن؟ في حين تعاني باريس، وفيينا، وبرلين، وسان بطرسبرج من نفس المشكلات، حيث يتبختر سادة السحر جيئةً وذهابًا. كازانوفًا، ماغنوكافلي، أكسلرود، سودنبور. حتى أن أحد أولئك السادة، أي الساكسوني موريتز، قد انتخب من قبل مالكي الأراضي بكورلاند ليكون دوقًا لهم، لكن مينشكوف تدخل فورًا مُهددًا أتباع موريتز بقسوة ودون حياء بالعصا التي هي روسيا.

الآن، يُمثّل كاليوسترو ماسونّي أوروبا الأحرار، وقد عاشت بجانبه لورينزا زوجته ملكة سبأ في يلجافا لبضعة أشهر. حيث افتتح كاليوسترو المحفل المصري سامحًا بعضوية الرجال والنساء على السواء، أمّا بقية الأمور التي وَعَدَ بها الكونت أهل يلجافا فلم يُكتب لها النجاح، لأنّ لآلئِ إليسا قون دير ريكة التي دفنها الكونت بالتراب لم تكبر بعد، كما لم ينجح الكونت في تحويلِ فضة الدوق بيتر إلى ذهب. لكن مجالس استحضر الأرواح كانت مُلهمة، ما جعل مُلاك الأراضي بكورلاند يفكّرون جدّيًّا إذا ما كان من الأفضل استبدال الدوق بيتر العاجز عن اقتراف السحر؛ بالمبعوث النبويّ الكونت كاليوسترو.

هذه المرة، لم تُضَيِّع فايتروت أي وقت. فاتجهت إلى ساحة السوق -حيث كانوا يركنون المركبات عادة- فكانت مأهولةً بالفوضى. ثم نزل الحوذي والتقط أكياس البريد، وأنزل بعض الحقائب من سقف المركبة ووضع أخرى مكانها.

مُرهقة من أثر الرحلة، وشعثاء، ابتهجت فايتروت لرؤية عربة ألبرتين في انتظارها. لأنه مقارنة باختناق صالون المركبة الجماعية، بدت عربة ألبرتين كنسيم ليلة صافية. عدّت بون سبريت حقائبهم بصوت عالٍ، مُراجعة محتويات كل حقيبة، فكان صوتها حادًا ومُرتجفًا، نتيجة القلق الذي صار شاغلها الأول في الحياة، والذي كان يُضخّم من مشاعر فضولها.

تعبّلت فايتروت الوصول لقصر ألبرتين، حيث يتسرب الملل من كل ركن وكل صدع، مع رائحة العطن في الهواء (وكأنهم يعيشون خلف رفّ خشبي) حاملة الكثير من الأسئلة في انتظار إجابة. ولذلك، لم تستطع

الركون للمنزل، في انتظار ما قد يُحضره الغد. وبالطبع، كان من العبث توقع أي نصيحة قيّمة من ألبرتين، أو من ماكسيمليان الأخرق. ستحاول مقابلة كاليوسترو مرة أخرى -وإذا كانت محظوظة- ستحاول معرفة ما فعلته القوى الخفية بإبهارت.

غاب ماكسيمليان في رحلة صيد طويلة. وبهتت عينا ألبرتين؛ حيث أفسد الاضطراب سرورها برؤية قريبتها. كما أفسد الوهن الثقيل البادي عليها محاولة إخفاء مزاجها السيئ. لكن ذلك لم يكن ليشغل فايتروت، طالما أن لديها مهمة لا تبيح لها الانشغال بشيء آخر أو الاستسلام في منتصف الطريق. تثرثت ألبرتين حول غبار الطريق، والعشاء، وشوربة البصل الفرنسية التي لا يُجيد أحد إعدادها مثل طبّاخها الخاص، فقاطعتها فايتروت في منتصف جملة، مُعلنة أنها زاهية للفناء.

”الآن، في الظلام؟“

”نعم، أرغب في شم الليك، فهي لم تُزهر بعد في فيدزيم“. وعندما عادت فايتروت، مالت على الباب وهي تمسح أنفها بمنديل.

”آسفة، شعرت بالتوعك“ قالت.

”ليست مفاجأة، مع هذه الرحلة الطويلة. لقد أخبرتك من قبل بأنه عليك تناول الطعام قبل السفر“.

”أرجوك، لا تُحدثيني عن الطعام!“.

حملت ألبرتين في وجه فايتروت، فلم يترك تحديقها سوى آثار بلل على البودرة التي زينته.

”أوه، أوه، أوه“ أنا أعرف هذا النوع من الورطات! بالرغم من أن

زواجها كان مصدرًا للمرارة، إلا أن حس ألبرتين الأنثوي كان مكتمل النضج، وفي هذا النوع من المسائل، كانت حادة البصيرة وحاذقة الغرائز.

”عزيزتي فايترت، المسألة فيها رجل!“.

”رجل!“ بدا استغراب فايترت عجزاً أكثر منه إنكاراً. لا بدّ أن ألبرتين فقدت عقلها! إن أعصاب فايترت مُتصلبة من أثر الرحلة الطويلة، واشمئزازها يدفعها للهستيريا. ”ماذا تقولين!“ تفجّر صوتها بعدوانية بالغة حتى سقط منديلها على الأرض، فغطت وجهها بكفيها المرتعشتين وجهشت بالبكاء.

ومن ثم تجمدت فجأة، بينما واصلت البكاء، لكن يديها انسحبت نحو أنفها ثم شفيتها. فاحصة ألبرتين بعينها، وربما لم تعد ترى قريبتها أكثر من ذلك، بل شيئاً آخر تمامًا. ”فايترت! صغيرتي! ماذا بك؟ هل تشعرين بالتوعك مجددًا؟“.

”لا شيء... أنا بخير. رجاءً، لا تغضبي مني. فأنا لست شخصاً عصرياً، ولا يُمكنني تحمل المركبات الجماعية“.

بدت فايترت الآن مختلفة، بلا غضب، أو ضغينة. إنها مُرتبكة، ومُحبطة، لكنها هادئة عن عمد. حتى صوتها بدا هادئاً، وعكس وجهها بريقاً مُتأملاً، مثل امرأة في لوحة من عصر النهضة. كانت تتنهد، مُعانقة ألبرتين ومستريحة على كتفها.

”إن لم تكن المُعجزات مُثيرة للدهشة، فإنها لن تكون معجزات“.

”عن أي مُعجزات تتحدثين؟“.

”المعجزات التي تحدث لنا“.

قضت فايتروت ليلة خشنة، ومُورقة، في سرير عريض مُزين بظُلَّة من ريش الطاووس. وفي الركن ساعة تُمرّر الوقت، وقد طنّنت دقاتها في دماغ فايتروت. هل تكون حاملاً بطفل إبهارت الموجود كنصف شخص فحسب؟ تخبّطت الفكرة في عقلها مثل خفاش مُحاصر داخل حجرة. لا جدوى من محاولة النوم، وعندما حلّ الفجر، لم يكن قد غمض لها جفن. لكنها تتذكر بقايا أحلام، وتُدرك أنها لم تر تلك المشاهد أثناء يقظتها. إنها على يقين من شيء واحد فحسب: يجب أن تقابل الكوبتا العظيم. إنها مسألة حياة أو موت. فإن كان كاليوسترو قد علم بأن إبهارت لم يمت، فعسى أن يُخبرها كيف تجعل من نجل المتوفى قانونياً إبهارت، الوريث الشرعي لأبيه. والشرعي على وجه التحديد، لأن الأبناء غير الشرعيين يُولدون في كل لحظة.

وحتى داخل القصور الملكية، مثلما تروي الحكايات عن أغسطس الساكسوني الذي أنجبت منه ثلاثمئة وخمسة أربعون امرأة على الأقل. هكذا، وُلد الأطفال، دون أن يهتم أحد بمن أنجب من. أمّا هي فتسعى للاحتفاظ بطفلها، لكن كيف وقد حملت به من شخص، هو جوهرياً، غير موجود.

بعد أن تناولت قهوتها الصباحية، وساعدتها بون سبريت ووصيفة ألبرتين في هندمة مظهرها، أعلنت فايتروت أنها مُتجهة إلى يلجافا. فلم تعترض ألبرتين، بل بالعكس، كانت تُخطط للذهاب معها، فالكلام المُجرد سيكون بارداً ومُملًا. وقد استطاعت ألبرتين بالكاد احتواء رغبتها في اكتشاف المزيد بشأن موضوع الأمس، وفي النهاية، فإن ألبرتين صاحبة الأصدقاء والمعارف الكثر بمجتمع يلجافا الراقي قد

تُثبت أنها أطف صحبة من المُتَحجرة بون سبريت.

صحّ تخمين فايتروت، وبينما كانت ألبرتين تُثرثر عن الدورة الشهرية والفخاخ التي نصبتها الطبيعة للمرأة. لم تستسلم فايتروت لها وحافظت على مظهر المُغفلة: إنني بخير حال. مُتهربة من المجهودات النبيلة لقريببتها في التفتيش على نواياها، وردت فايتروت بالتساؤل عن آخر أخبار يلجافا. أوه، حصل الكثير بيلجافا! أعلن الكونت كاليوسترو أنه مُغادر إلى سان بطرسبرج لتنوير الإمبراطورة بأسرار السحر، وحتى يضم المحفل المصري إلى رعايتها، كما كان الجميع مقتنعًا بأن إليسا الصغيرة ستغادر بصحبة الكوبتا للقاء الإمبراطورة، لكنها رفضت. لكن الأشد غرابة من ذلك، أن كونستانس، قريب إليسا الذي كان مُطلعًا على كل شيء، قال بأنها أُصيبت بالفرع. فقد ذكر الكوبتا العظيم في إحدى محاضراته أنه يُمكن استعمال الألاعيب السحرية بطريقة أخرى في إقناع المرأة غير الراغبة، بممارسة الجنس.

”برأيك، ما هو أفضل مكان للعثور على الكونت؟“.

”لا يزال مُقيمًا بدار الضيافة. لكن علينا التأكد مما إذا كان هناك اجتماع بقاعة الأرواح اليوم أم لا“.

”هل بمقدورنا المرور من هناك؟“.

إنه يوم السوق، حيث تضيق يلجافا بالناس. وتكتظ الساحة، والطريقة الوحيدة للوصول إلى هناك هي المشي. كان المشاة يبرقون بين الحوذيين والخيل في أسراب ملونة، نساء المدينة في أردية الصيف بقفازات الدانتيل والشماسي الكبيرة. أما النساء الريفيات فيرتدين

الألوان الرمادية الضاربة للبياض. بينما الدّيقة السمينة داخل السلال بصحبة حاملاتها النشاطات، ويخور البقر، وتخزن الخنازير الصغيرة بجانب النقنقة الحماسية للدجاج.

أطلّت ألبرتين من نافذة العربة مُنادية على الحوذي: "إلى مجلس استحضار الأرواح!".

كان الجمهور أمام الكنيس كبيراً بشكل ملحوظ، ما أوقف الحركة. وخمنت ألبرتين أن اليوم يُوافق عُطلة يهودية ما، لكن لا، فالجمع كان مُحْتَشِداً خارج مجلس الأرواح! حتى إن البعض تسلقوا شجرة الكستناء التي بالجوار. وبالفعل، رفعت ألبرتين تنانيرها الحريرية استعداداً للخروج. بينما تراجعت فايترت للوراء، إذ صاحب الحشد تصفير بذيء، وضحك فاحش، وصراخ. فهلعت من هذا السلوك، وأفزعته فظاظة الحشد.

"ما الذي يحدث؟" سألت، حتى تُبرر ترددها لا بحثاً عن جواب.

"يبدو أن الكونت يؤدي استعراضاً ما".

تجهّزت فايترت على الفور للدفاع من العربة، لكنها شَهدت شيئاً شَلَّ حركتها. كان الكونت كاليوسترو في رداء فضي براق، كأنه يلبس عملة فضية، مُلوّحاً بكفيه، وصائحاً بغضب، بينما يُطارِد رجلاً نحيلاً يرتدي بزة خضراء. فقط إذا أسعفت فايترت الذاكرة، فإن هذا الرجل هو خادم الكونت، الذي يُساعده في استحضار الأرواح وأعمال السحر الأخرى. وقد جعلته أرجله الطويلة في جواربهما، والذبول المرفرفة لمعطفه أشبه بجراة عملاقة. ومثلما تُرفرف الجراة بعدوانية، طارده

الباروكة الساقطة للتو من على رأسه، بينما حاولت قدم محشورة في
حذائها الفضي ضربه من الخلف.

تمكّن الخادم أخيراً من الهروب بين الحشد. فتجمّد الكونت وهو
يتنفس بصعوبة، رافعاً إحدى قبضتيه عاليًا مثل زيوس الغاضب، فكان
مهيب المظهر. أما ضجيج أوامره الغامضة والحشود من حوله، فقد
سكنت جميعها فجأة.

”إذا حاول أي شخص توظيف هذا النذل أو التحدث إليه، فسيدفع
ثمنًا غاليًا! غاليًا جدًا!“ زمجر الكونت بالفرنسية، فلم يتضح إن كان قد
فهم كلامه أحد، لكن نبرته أغنت عن ذلك.

”لم نأتِ في وقت مناسب.“

”لا دخل لنا بهذا“ قالت فايتروت.

”إنك لا تعرفين شيئًا، فهو يكون مرعبًا ساعة الغضب!“.

”غير مهم!“.

”لن آتي معك. سأنتظرك بالعربة.“

وقف الحوذي بجانب باب العربة المفتوح، وقبعته المثلثة مطوية
أسفل ذراعه. ثم هبطت فايتروت الدرج مرفوعة الرأس، شاقّةً طريقها
وسط الحشود باتجاه المدخل، حيث سبقها الحوذي فاتحًا لها الباب
الخشبي.

لم يُحِيَّهَا أحد، لقد حضرت فايتروت هنا لمرة واحدة فحسب، من أجل جلسة استحضر الأرواح، فلم تعرف إلى أين تتجه. كان بئر السلم معتمًا؛ وحتى النور الوحيد المارّ من شيش النافذة كان خافتًا وعكراً. لا بدّ أن الغرفة السحرية ذات المرايا الحارفة ومُكبرات الصوت كانت بالطابق الثاني حسب ما تذكر.

فتحت فايتروت بابًا وراء آخر. دون أن تعثر على أحد! وفجأة، ظهر كاليوسترو بركن أحد الأروقة، جالسًا على أريكة، وفارداً قدميه أمامه، وكذلك ذراعيه على ظهر الأريكة. دون أثر للون الفضي اللامع الذي يرتديه في شبه الظلام الخامل الذي يسود القاعة، بل هو الآن أكثر بياضًا، ومصوبغًا بالصدأ على نحو خفيف. نظر مُستدعيًا الأرواح أمامه بلا مبالاة، كأن فايتروت غير موجودة، وحاولت الأخيرة اكتشاف سبب دهشتها، فأدركت أن الكونت كان جالسًا وحده! حسنًا، بالطبع، فلم يعد لديه خادم أو مُساعد.

”ماذا تريدين؟“ لم يكن السؤال مُهذبًا تمامًا. ولم يتكفل الكونت عناء إخفاء واقعة أنها أزعجته. لقد كان مُتعبًا، وخلا وجهه القلق والواجم من أدنى تعابير الكياسة.

”هل لي ... هل لي أن أساعدك بشأن مشكلة خادمك؟“.

”إنك طيبة للغاية. أنا سعيد بالتخلص من هذا الوغد“.

”يُمكّني أن أوفر لك حوزيًا مُنضبطًا، وجيدًا مع اللغات“.

”ليس هذا سبب حضورك إلى هنا!“.

لم يُحرك كاليوسترو ساكنًا، فهل هذا عقاب على إلحاحها، أم تذكير بأن المُحادثة تجري دون موافقته؟ كانت ألبرتين لتفقد وعيها جراء تلك الفضاظة، لكن فايتروت لا تهتم، لأنه ليس ثمة فرصة للتراجع.

”أنت محق. أيها الكونت، أمل في أنك تتذكرني؟“

”أنا لا أتذكر. أنا أعرف، أنت هنا بسبب زوجك“.

”بالفعل، أنت مُحق.“ حيث كان هنالك اثنان الآن هنالك واحد“. لقد تحقق ذلك، واتضح بأن ثمة رجلًا قادرًا على فعل مثل هذه الأمور، لتدعه عبقريةً أو مغامرًا أو ما شئت، فإن اسمه جبران“.

بدا أن كلماتها قد حركت شيئًا في نفس الكونت، فتحوّلت لا مبالاته الكئيبة إلى يقظة، ثم تحرك إلى طرف الأريكة داعيًا البارونة للجلوس بجانبه. وللقضاء على حرج الوقوف أمام هذا الرجل، حاولت الجلوس بحذر، وقد وجدت صعوبة كبيرة بسبب نافش الكرينولين الضخم التي ترتديه. (8)

”وهذا الشخص لا يُريد أن يكون زوجك؟“.

”ليس تمامًا ... سوف أنجب لهذا الشخص وريثه الشرعي“.

لم يسبق لفايتروت أبدًا، بتاتًا، أن ناقشت هذه المسائل مع الغرباء. وبالتأكيد، ليس مع رجل... لذا، تلعثمت وتورّدت خجلًا، ولفّت ودارت في الكلام. ومع ذلك، حاولت أن تُخبره قدر ما استطاعت. ليس بإمكان المرء إخفاء شيء عن كاهن كاثوليكي، ولا على طبيب، وقد كان الكونت

8- هيكل قابس يُلبس تحت التنورة ليعطيها شكلًا منتفخًا، وكان دارج الاستعمال في أوروبا منذ القرن السادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر.

وسطاً بين الكاهن والطبيب، مُجسداً لسلطة المُخلص غير المُنحاز، والذي ربما في استطاعته اكتشاف كل شيء من تلقاء نفسه، في حين أن الأسئلة ليست أكثر من مجرد طقس يجب القيام به.

أقرت فايتروت بأنه ليست لديها مشكلة مع اندماج إبهارت والنقيب أولست، طالما لم يحصل اضطراب في العلاقات الطبقيّة. لأنها، بصفتها فايتروت فون بريغن -على الكونت أن ينتبه لذلك جيداً- تُمثّل الفرع الأكثر بروزاً للنبالّة الألمانيّة - البلطيقية. فجزورها راسخة بأرستقراطية ليفن، في حين أن أصول أولست هي موضع تساؤل. إذ ينحدر من مُرتزقة أجيرة لمالك أرض محلي.

أثناء الحديث، ظلّت فايتروت تُراقب بعصبية موجة تنانيرها السميكّة وهي تطير باتجاه كاليوسترو، رغم ما بذلته من جهد لمنعها، فكانت تُلامس ركبته القريبة منها. ولذا، رمقت البارونة الكونت بنظرة اعتذار، لكنها استقرت لاحقاً مثل حجر.

كانت عينا الكونت طبيعيتين للحظات فحسب، ثم صارت تلمع، وذابت حدقتها في بقع سوداء مُعلقة في الهواء مثل بكرة، تجذب كل شيء نحوها بينما تدور حول محورها. أشبه بدوامة، أو إعصار من الذين قرأت عنهم في الكتب، حاولت البارونة تدعيم نفسها ضد جاذبيته، غارسة أصابعها بالأريكة، لكن تنانيرها طارت في الهواء على حين غفلة. وتبعتهم باروكتها، مثلما فعلت باقي الأشياء التي كانت تبقّيها أي امرأة من القرن الثامن عشر بين نهديها: منديل خفيف كالريشة، وعُلبّة صغيرة من النشادر، وملقاط القمل.

أحببت فايتروت معرفة أن كل شيء كان ينسلخ عنها كاللحاء المُسلخ من على الشجر. فارتخت قبضتها على الأريكة، ولم تشعر بوزنها، بينما

تلاشى خوفها ببطء، ثم استمعت للكوبتا العظيم وهو يتحدث. وهكذا، أحست بأنها تقف فوق أرض صلبة، وبضباب وردي يطوف حولها، وعندما تصدّعت طبقاته لبرهة، تراءى لها ما يُشبه ركنًا بأركاديا لها صف من الأعمدة والسلالم الدائرية. إنها الآن ترتدي جونيلة خفيفة، مع نهد مكشوف وآخر مغطى. مثل ماري أنطوانيت بلوحة إليزابيث لوبرون! ومن خلال الضباب العاصف، كان يُمكنها بالكاد رؤية رجل بلا رأس. أو بالأحرى، فقد كان لديه رأس، لكنه كان يحمله بفخر أسفل مرفقه الأيسر، لكن ليس كما كان سائق البرتين الشخصي يحمل قبعته.

”هذا هو القديس دينيس“ سمعت فايترت صوت الكوبتا. ”شفيع باريس، لقد عرضوا عليه إعادة تركيب رأسه بجسده، أو بجسد أحد آخر مثل: يوحنا المعمدان، أو توماس مور، أو رولاند المُحارب، أو أخيليس. أو أيًا من يريد، لكن دينيس أصر بعناد على البقاء كما هو، منحوتًا بأعلى بوابة كاتدرائية نوتردام في باريس“.

وسمعت فايترت صوتًا يقول: صغيرًا، وعاريًا، أحب كيوييد التلاعب بقلوب الكائنات. لقد جُمعت أجسادهما معًا: نصفهما رفيع، والآخر ممتلئ ورخو، نصفهما أبيض، والآخر داكن.

”لقد هلك أطفال اليهود على يد هيرودس، لقد قُطعوا بالطول. حمدًا لله أنها لم تعد ممارسة شائعة“.

ثم تحدث الصوت مُجددًا: المرأة الفاتنة مُحاطة بالشباب الراغب،
تطفو مثل طيف ساطع.

”وانظري، ها هي كاثرين السَّكندرية بجلالة قدرها! الشهيدة
المسيحية. ”قال الصوت“ منذ أن اختارت رأس ماري ستوارت لنفسها،
انخلعت كاثرين من طريق الرهينة، وتغيرت شخصيتها إلى حد يمنع
التعرف عليها... كاثرين، هل بإمكانك الحضور إلى هنا لبعض الوقت؟“.

استجابت السيدة بسرور، وحضرت رافعة طرف فستانها باحتشام،
وهي تمشي على استحياء. بينما خذاها متوردان، ويجيش صدرها من
الركض الخفيف، لكن يبدو أن كل نفس يمر عبر شفيتها الناريتين كان
يحمل معه لهيبًا من الإثارة.

”لم أعرف بوجود كل تلك الأشكال من القبلات. خذ عندك الفرنسية
مثلًا، أوه يا إلهي، يا له من حلم! فإذا التصقت شفاهكما بميل! فإنها
تسكن حيث هي، بينما تزداد القبلة حرارة وتسري عبر كامل الجسد:
هنا، وحتى أخيرًا، هناك..“ نظرت كاثرين لقايتروت، وهي تهز كتفها،
وتضحك باندهاش، وهي تزلق يدها برشاقة على رقبتها. ”أما قُبَل الرقبة،
فقط بأطراف الشفاه. وكيف تنسحب على عنقك مع لمسة اليد..“.

لاحظت قايتروت أن الكوبتا العظيم، كان متواريًا في الخلفية حتى
اللحظة، لكن سرعان ما وقف بجانبها، مرتديًا معطفًا أبيض مربوطًا
حول وسطه بحزام مثل راهب. وفي يده عُكاز أنيق ذو عُقدة بنفسجية
مربوطة برأسه، في هيئة أنيقة أشبه بمُتَأَنَّق من فيرساي، أو بمُعلم
رقص.

”كاثرين، هل أنت سعيدة بوضعك الجديد؟“ قاطع كاليوسترو الدردشة المُثيرة بشيء من التسلط، مُتجاهلاً الذوق السليم.

رغمته كاثرين بعينين واسعتين، وتسربت الحيرة بوضوح إلى تعابيرها المُندهشة، فبدأ أنها لن ترد على سؤاله بأي حال. لكنها تحدثت:

”إنني سعيدة للغاية! نعم، لقد مِتُّ بالسيف، مُتمسكة بإيماني بالرب، لكن لم يمنعني ذلك من اكتساب رؤية أوسع للعالم اليوم. وأنا طفلة صغيرة، كنت أدعو الرب أن أصبح جميلة ومحبوبة. لكن بسبب النظرات التي ورثتها عن أبي وأمي، لم يتحقق ذلك مُطلقاً. وقد أغنتني الحياة كراهبة عن انتظار الحب.“

”هنالك بعض الأمور التي لا أفهمها“ قالت فايتروت. ”أنتِ الآن برأس ماري ستيوارت، لكنك تتحدثين بالنيابة عن كاثرين السكندرية، فهل لا تزال ماري حية دون رأسها؟“

”سيدتي، إن رأس ماري الذي منحتها إياه أمها، لم يسقط على المنصة إلا عندما رغبت كاثرين هوارد الزوجة الخامسة للملك هنري الثامن في ذلك. هل تدرين لماذا؟ غارت كاثرين من أن صوت ماري كان حلواً كالعسل، مُقارنة بصوتها القبيح كالغراب.“

”نادراً ما يَقنع الناس بما لديهم“ تكلم الكونت. ”يريد الفقير أن يصير غنياً، والغني أن يصير سعيداً. يسعى الأغنياء للسلطة، وأولئك الذين لديهم السلطة تنقصهم الأموال لفرضها. يظن أحد الناس أن أنفه طويل جداً، بينما يظن آخر أن أنفه قصير جداً. ويعمل أحدهم اليوم بطوله، فلا يجد طعامه. بينما يأكل آخر طوال اليوم، ويموت من التخمة. ينمو الحسد، وينتشر انعدام الثقة، وتتفشى الكراهية. العالم لديه كل

شيء، لكنه لم يُركب سويًا بالطريقة الصحيحة.

أدرك المصريون القدماء ذلك، والأمر متروك لنا كي نكتشفه مرة أخرى..“ لم يعد الكوبتا العظيم واقفًا بجانب فايتروت. كما اختفت كاثرين السكندرية برأس ماري ستيوارت، بينما تضخم الضباب الوردي بسرعة، وسمعت فايتروت صدى كلمات.

”حُورس أيها المُقدس في جسد نسر ذهبي! باستيت أيها المُقدس في جسد قطة! وشو يا ذا الجلال في جسد أسد! ست الذي حبس أوزوريس في صندوق ورماه في النهر. وإيزيس التي تبحث عن جسد زوجها فيخبرها السمك إلى أين جرفته الأمواج. فتعثر على أوزوريس وتخبئه، لكن ست يجده مرة أخرى، فيُقطعه أربعة أجزاء وينثره جنوبًا وشمالًا، ونحو المشرق والمغرب. أيتها الآلهة المُقدسة، أعينينا كي نعثر على جسد أوزوريس ونلم شتاته مُجددًا!“.

سَكَنَ الصوت، حتى أمكن سماع همس الغابة الخفيف خلال الصمت. وهففت نسمة رقيقة على الورق وهي تنسلّ بين الشجر. وحضرت فايتروت ثم نظرت حولها. حيث كشفت الحديقة الأركادية عن نفسها بين الضباب، بصفّ عمدانها، وسلالمها الرخامية الدوّارة. بينما هبط رجل في رداءه الفضي الدرج برشاقة، مُتكئًا على عكازه البنفسجي. هل هذا الكوبتا العظيم؟ إنه هو، وكذلك، ليس هو... إن رأس الملك لويس السادس عشر فوق عنقه. غريب حقًا، هل تستطيع تغيير الرؤوس التي ترتديها، الآن رأس، وبعد قليل آخر؟

”ساعدوا العدالة والعقل على السيادة! أنقذوا العالم من الدمار! ...

إخاء، مُساواة..“.

(II)

لم يتسن لي معرفة الكثير عن كيف التقى جدي بهنري سكانغلز. لكن، عندما بدأ الألمان مُغادرة لاتفيا، كان سكانغلز في نحو الثلاثين من عمره، أو أكثر قليلاً. وقد أضفى الإطار الذهبي لنظاراته وشاربه الكث على وجهه الدّمث مزيداً من النُبُل. كان سكانغلز طالب لاهوت، تماشى سلوكه المُهذب، ولباسه المُحافظ مع تخصصه. فقد ارتدى غالباً البناطيل المُقلّمة والمعاطف السوداء الطويلة. وفي البرد كان يضع دفايات رمادية على حذائه، كما كانت قمصانه دائماً ناصعة البياض ومكوية بعناية. أما ياقته المطوية لأسفل فكانت مُزينة على الدوام بربطة عنق.

من المؤكد أن هنري لم يُولد لأسرة من الطبقة العُليا، وذلك لأنه كان يتحمل تكاليف دراسته بنفسه. والحق يُقال، فقد استغل هنري مهاراته في اللغة الألمانية، وموهبته في قراءة الخطوط الرديئة، في التنقيب عن معلومات تخص التاريخ العائلي لزبائنه، في الأرشيف، والسجلات الرسمية للكنيسة، والسجلات المدنية. كان بينهم من يرغب في تجميع شجرة العائلة ومعرفة مَنْ، ومتى، وأين؛ حدثت زيجة، أو ولادة، أو وفاة. ومنهم من يسعى لتحديد حقه القانوني في الميراث أو الملكية، فيطلب معلومات حول هجرات أسلافه وحيازتهم لهذا أو ذاك من العقارات. وقد بحث سكانغلز ببراعة عن جميع تلك الأشياء. فعلى امتداد أجيال، سجل

القساوسة الأحداث المهمة؛ ليس الأحداث الروحانية الخاصة بأبرشيتهم فحسب، لكن الأحداث الاجتماعية الدنيوية، بما في ذلك التقاليد القديمة، وأعمال السحرة، والتحوّلات الأخلاقية، والأحداث السياسية.

دعا جدي سكانغلز المُجتهد بلقب شيرلوك هولمز الأرشيف، حيث اعتقد بأن لدى سكانغلز مهارات استثنائية لحد بعيد في هذا المجال. وعمومًا، فقد لاءم كل ما هو استثنائي، نظرة جدي المُبالغ فيها عن العالم. لكنني كنت أفسر هذه المهارات ببساطة، بأنها حالة المرء الذي يُعيد قلبه عقله الحائر مرة تلو أخرى إلى الطريق الصحيح. لم يمتهن سكانغلز اللاهوت، بل علم الرموز، وبين الرموز، كانت تغمره السعادة مثل دودة وسط الطحين. تُعين المرحلة الأولى للمعرفة المرء على توجيه نفسه -يُمكن الإشارة لها أيضًا بالقدرة على اتباع هدف- أما المرحلة العليا للمعرفة فإنها تُفجّر الشك، مما يسمح للحواس، أو بالأحرى: الحدس، بالولوج إلى العالم.

ولاحقًا، أخبرني جدي، بأنه تواصل مع سكانغلز، عقب حديثه مع يوهانا على الفور، سائلًا إياه أن يبحث عبر ثلاثة أجيال من شجرة عائلة ميكليينشتاوفز. بهدف العثور على يهودي بين أقربائها، ربما من آل جولدفينجير، زيلجمان، نيسون، أو الأفضل بينهم بالطبع: روتشيلد، وقد ضحك جدي بطريقة تُعبر عن قصده المزاح بهذا الأخير. وبالفعل، استجاب شيرلوك بحماس يتناقض مع صعوبة المهمة.

كان الزواج من بنات العائلات اليهودية الغنية، بخلاف ما يعتقد كثيرون، مألوفًا بين أرستقراطية ريجا التجارية. وهكذا، فإن مصاهرة آل روتشيلد لأحد مُلاك الأرض البلطقيين ظل أمرًا وارد الحدوث، نظرًا لانسجام الطبقة الاجتماعية. عقب الثورة الفرنسية، أصبح آل روتشيلد

فاحشي الثراء، كما مُنح جميع أبناء ماير روتشيلد الخمسة -أحد سكان جيتو فرانكفورت السابقين- البارونيّة نظير خدماتهم. والسؤال هنا، إلى أي مدى تشابكت شجرة عائلة روتشيلد مع غيرها؟ وأي فروعها يا ترى فعل ذلك؟ هل أمشيل الألماني، أم زالومون النمساوي، ناثن الإنجليزي، أم كالمان الإيطالي، أم يعقوب الفرنسي؟ في ذلك الزمان، تزوجت ابنة ناثن من بارون ساوثمبتون، كما تزوجت إحدى حفيداته من كونت روزبيري، الذي صار في ما بعد رئيسًا للوزراء. أمّا كالمان فقد زوّج إحدى بنتيه لدوق غرامونت، والأخرى لدوق فاجرام. بالطبع لا يمكن أن تتم زيجات بتلك الفخامة في ريجا. لكن بارونات البلطيق لم يكونوا بأي شكل أسوأ حالاً من نظرائهم في شليسفيغ هولشتاين أو هسن. ومن المحتمل عملياً أن نجد بينهم حفيدة أحد أبناء العمومة من الدرجة الثالثة لعائلة روتشيلد.

بعد أيام قليلة، خاطب هنري جدي بصيحة انتصار: "وجدتها!".

إن والدة يوهانا ميكلينشتاوفز هي إدا هيدبيرج، وجدتها لأمها اسمها سارة! وكلا الاسمين يهودي، تعني إدا بالعبرية "التي تتزين". وقد تم تسجيله لأول مرة داخل لاتفيا في عام 1882، بمدينة كروستبيلس.

"وما هو لقب جدتها ... أي سارة؟".

"هذا ليس مذكوراً. كل ما نعرفه عن جدتها أنها ماتت أثناء الولادة، ويجوز القول بأنها كانت مهاجرة. كما أنه من المألوف عندما تموت الأم أثناء الولادة، أن تُمنح الطفلة اسم والدتها بصفته الاسم الأوسط لها، وهكذا، سجلت الكنيسة والدة يوهانا باسم: إدا سارة هيدبيرج".

”اممم، نعم“ كان جدي مُرتابًا. ”إدا سارة هيدبيرج ... إنه يبدو ضعيفًا بعض الشيء. أليس بمقدورنا المصادقة على الآتي، على سبيل المثال، إدا سارة هيدبيرج، ابنة سارة هيدبيرج سلية روتشيلد؟“.

”غير ممكن“. رد سكانغلز.

”إن ما لا يُمكنك فعله حقًا، هو ارتداء سروالك من رأسك“ أجاب جدي منفعلاً. ”لا تخبرني أنك لم تحفر وراء أدلة تثبت نقاء النسب الألماني لعشرات من آل بيرزنغي وكلافينغي“.

”هناك فرق. خاصة مع إمكانية إثبات أن هؤلاء قد عمّدوا في كنيسة ألمانية، أو ذهبوا لمدرسة ألمانية. أما في حالتنا هذه، فتنقصنا الأدلة“.

”في هذه الحالة، فإن الدليل هو اسم جدتها لأمها، سارة! لأنه حسب ما فهمت، لا تُوجد إفادة واحدة حول والدها“.

في النهاية، غلب جدي شيرلوك.

”حسنًا، سأواصل البحث... إدا سارة هيدبيرج، ابنة سارة هيدبيرج سلية روتشيلد“.

تفاجأت يوهانا لدى تلقيها إخطارًا من الأرشيف بذلك. فكل أفراد العائلة كانوا على قناعة بأن إدا سارة هي سويدية، وقد ثرثروا حول ذلك عادة، وسخروا وتضحكوا. حتى إن يوهانا لديها أقارب في السويد، كانت تتبادل معهم الرسائل، كما وُجد على الدوام كتاب سويدي بجانب أوراق اللعب فوق الطاولة الدائرية الصغيرة المُلصقة للكُرسي ذي المسندين الذي أحبت ماما الجلوس عليه، حتى إنهم كثيرًا ما احتفلوا بعيد القديسة لوسي داخل المنزل.

لم تُثر قرابة روتشيلد المُكتشفة حديثاً أي انفعال داخل البارونة. بل إنها تساءلت فحسب:

”هل كنتَ على علم بذلك؟“.

”بالتأكيد“.

”إِذَا، فهذا سيغير كل شيء. والمشكلة محلولة“.

”لا شيء تغير بعد، فأنت ما زلت بحاجة لتقديم لطلب العودة“.

كان جدي مُحققاً، فبينما أهدرت البارونة الوقت، حضر الموظفون إلى المنزل لجرد كل من الممتلكات الشخصية والحيازات. في الوقت الحاضر، كان التقييم يتم بإشراف من حكومة ألمانيا. وأخبرت البارونة الموظفين بأن أوراقها لم تكن جاهزة بعد، فأخبرها الخبير القادم من ألمانيا بمنطقه الألماني، بأنه إلى أن تُدبر السيدة الريفية المُبجلة أمورها، لن يتبقى وقت لإتمام الأمور بالشكل الصحيح. فعلى الورق هي ألمانية، ما يستوجب إعادتها للوطن، إن أوامر الفوهرر غير قابلة للنقاش.

”حسناً، سأقدم تلك الأوراق“ أخبرت البارونة جدي ”لقد تعبت من أولئك الحمقى الذين يعبثون بالجوار“.

بعد أسبوعين، تَلَّقت البارونة ظرفاً مختوماً بختم أصفر، يفرد نسر الرايخ جناحيه في ركنه الأيسر، قابضاً بمخالبه على إكليل بداخله صليب معقوف. كما طُبع النسر ذاته بالأبيض على ورقة الجواب المُختصر، والذي كُتِب فيه ”رَفُضت قنصلية ألمانيا العظمى طلبك الانتقال إلى

البلاد، بصفتك غير مرغوب فيك. يحيا هتلر! القنصل فارست“ كان التوقيع قصيرًا وحادًا للغاية مع انحراف لأعلى، صُنِعَ بمهارة تلميذ مدرسة.

وعقب قراءته، أحنت البارونة رأسها كما لو كان الخطاب مُغْبِرًا بالسم، ثم دسَّت إياه بحرص في جيب سترتها.

”حتى الآن، سارت الأشياء حسب المتوقع. ليساعدني الرب في المستقبل، الآن لديّ اثنين: المسيحي والebraاني.“

(12)

بذلت فايتروت بعض الجهد للتخلص من هذا السَّرْحان المُعتم. حتى إنها شعرت بالرغبة في تغطية عينيها، كما لو أنها خرجت للتو من زنزانة مُظلمة إلى وضح النهار. بينما نمّ وجه كالويسترو عن هدوء حاد. هل كانت تحلم؟ لمحت فايتروت برعب طبقات فستانها الكثيفة التي غطت ركبتي الكُونت، ثم جمعت أكداًس الحرير وتراجعت إلى طرف الأريكة.

”أنا أعرف ما جيئت لإعلامي به“ قال الوجه الذي التفتت ناحية فايتروت. من الغريب أنها لو أرادت تحديد ملامح الكُونت المُميزة، لَمَا مَلَكْت سوى أن تصفه بأنه يحترق في بعض الأحيان ببرودة أحياناً، وحرارة في أحيان أخرى، لكنه في كل الأحوال، يُلقى بظلاله على ما عداه. كما كان من المشكوك فيه أن المظهر الجانبي لأنفه، أو رسمة شفثيه، ستجعل أحداً يصرخ من الرعب، أو يتصبب عرقاً. أما نظرتة المُحدقة بها فكانت كعيني ذئب تسطعان ليلاً.

”بماذا أخبرتك من قبل؟“.

”ليس من الصعب اكتشاف الوقائع، أما الحقيقة فلا“.

دارت المحادثة في دائرة مُغلقة، فاستخراج الإجابات من كالويسترو أصعب من لضمّ إبرة، لكن البارونة كانت عازمة. إذ كان فضولها مدفوعاً بأكثر من مجرد شك؛ وإنما بشرفها -نقطة ضعفها- الذي صار مُهدداً.

”هل نطقتُ بأي شيء حول الإرث؟“.

لقد صحَّ تخمينها، فسيرة المال حركت الكوبتا.

”لا. لقد قُلت إنك حامل. وإن والد الطفل استثنائي.“.

انكمشت فأيتروت أكثر بعيداً عن الكونت، مُستندة إلى الإطار الخلفي المذهب للأريكة. لكنها استراحت على الفور إذ توجَّب عليها أن تظل قوية كي تُطيل المُحادثة، وإلا فلن تحصل على شيء من الحقيقة.

”اعذرنِي، فأنا مُحبطة.“.

”كم هذا لطيف. إنك صادقة، وحساسة. لكن لا يعني ذلك الوقوف مكتوفة الأيدي.“.

”ماذا أفعل؟ هل أُخبرُ محافظ المقاطعة؟ أم أخطب القنصل؟ أم أكتب إلى الحاكم العام؟“.

”وعندها فإن باسيليسك الأسطوري، ذلك النسر المُتوجَّ ذو ذيل الأفعى، الذي فقس من بيضة رقد عليها علجوم. سيُخرج لسانه الكريه ويبتلعك مثل ذبابة“.

تكلم الكوبتا العظيم بنبرة محسوبة، ثم فرك جبينه المُجدد كأنه يُفكر. بينما ارتفعت باروكته البيضاء فوق إحدى أذنيه، كاشفة عن شعر أسود قصير ومموج. وفجأة، قبض على يد البارونة بأصابعه القوية، مُحدقاً في عينيها الفزعتين، ثم تحدث بحسم قائلاً:

”سوف تأتين معي إلى سان بطرسبرج لملاقة مسيو جبران!“.

”مسيو جبران؟“.

”وبعدها إلى بروكسل، إلى لندن!“.

تذكرت فايتروت حديث ألبرتين: رفضت إيلسا قون دي ريكه مرافقة الكونت إلى سان بطرسبرج، والآن هي بصدد نفس المأزق.

”لماذا؟ لم سأوافق على ذلك؟“.

”لأنك مختارة“.

”مختارة من قبل من؟“.

”ما المكتوب بوثيقة المحفل المصري؟ جميع البشر موصولون بعضهم ببعض، حتى إنهم ينفصلون ويُعاد ربطهم، فتمنح الأفضلية للروابط التي تقود لأفضل المجتمعات وأكثرها كمالاً. ولا بد من أن ارتباط مسيو جبران قد أُعيد إحيائه مئات، بل حتى آلاف، وعشرات الآلاف من المرات! إن نزولك بأوروبا سوف يترك تأثيراً. امرأة فاتنة تحمل في داخلها ثمرة مخلوق متآلف، مُصمم بواسطة أسمى العقول!“.

وَبمجرد سماعها كلمة ”ثمرة“، زاغت عينا فايتروت مُجدداً، كأنها فتحت باباً ففاجأها مخلوق لم تره من قبل، وعليها أن تغلق الباب سريعاً، وتتلفت حولها، ثم تغادر. خفق قلبها، وأصابها الحرج بضيق النفس. لكن الفتنة ظلت قوية. لقد نظرت حولها؟ فماذا رأت؟ لقد رأت نفسها، عارية، ببطن امرأة حامل، وكاليوسترو واقف بجانبها (مُرتدياً ملابسه، بالطبع!) كأنهم على وشك أن يرقصوا المنويت، حيث هو يُمسك يدها ويدور ثم يدور بها في ساحة الرقص.

”لن يحدث أبداً! مطلقاً!“ إلا أنها لم تملك حجة مقنعة للرفض. لكن لا، فما زالت لديها واحدة! ”هل تتآلف الرابطة إذا عكّرت صفو الطبقات؟“

فالنقيب أولست ليس واحدًا منا“. تضخم شعور البارونة بالإحباط عند التفكير في أولست.

توهّج الدخان في عيني الكونت مُتحولاً إلى لهيب. وأحست البارونة بغريزتها الأنثوية أن كلماتها نكأت جرحًا لدى الكوبتا.

”وما عيب الفرياهر؟“.

”ليس اللقب مُهمًّا“.

”ما المهم إذًا؟“ طُرح السؤال بفضول ساخر.

”إنه الدم. وأولست لا يُخفي أصوله العامية“.

انزوت شفتا كاليوسترو في ابتسامة شيطانية. لقد رأت هذه الابتسامة من قبل، وهي شيء شيطاني حقًا، لا تُوجد كلمة أكثر دقة لوصفها.

”هل البارونة على يقين، من أنها قادرة على السير داخل حمام بخار، وتمييز الإمبراطور من الخادم؟ حسب علمي، فإن جميع البشر من نسل آدم وحواء؟“.

بعيدًا عن احترام البارونة للخاتم الأعظم، إلا أن حديثه أهانها، فتفجرت عيناها بالدموع.

”إن ملكي شنعار والأسار المذكوران مع آدم وحواء بنفس الموضع في الكتاب المقدس. ومعهم عبيد إبراهيم الذين أخذهم معه إلى الحرب“.

لم يبدُ أن الكوبتا كان ينصت إليها. ومن الواضح أن محاولتها الجدل معه قد أغضبته. ولمّا لم يكن بمقدوره إبطال حججها تمامًا، فقد حاول على أقل تقدير طمسها، كمن يطمس أنوف وآذان الأصنام بمعبدٍ وثني دون أن يهدمها.

”إن معطف الفرو القرمزي اليوم، قد يصير سروالاً أحد المسجونين في الغد. كما أن مُرَبِّي الخنازير اليوم، قد يصير عضواً بالبلاط في الغد. أم أن أطفال النبلاء يُولدون بعلامة مميزة على جبهتهم؟ أم أنهم يُولدون أكثر طهارة، وأكثر أمانة، ويعرفون كيف يمسخون أنوفهم، أو كيف يستعملون المراض؟“.

”ما هذا الذي تقوله! أيها الكونت، إنك تُحاول عن قصد تحريف كلامي. إن النبالة مصطفاة من بين الأجيال، وطبقة شكلتها خصائص بعينها. مع رؤية للعالم وأسلوب حياة خاصين بها وحدها“.

ضحك الكونت، لكن ليس بلطف. فحجج البارونة كانت تُشكل بوضوح مصدر إزعاج له.

”إن التميّز الطبقي مُجرد وهم!“.

”أيها الكونت، يا إلهي! ... أنت تقول هذا! بالرغم من أسلافك!“ ولم تُكمل البارونة لأنه قاطعها.

”إن النبالة التي أفتخر بها، ليست مُعلقة بخيط رافة حُكامنا“. تلك الصفحة الشفهية التي تلقتهما السذاجة الأنثوية لتعليق البارونة، أتبعها الكونت بملاحظة.

”لقد بدأ الروسي العظيم ألكسندر مينشكوف مسيرته كصبيّ خبّاز، ثم صار دوقاً، فدوقاً أكبر، ثم مارشالاً، ثم قائداً عاماً، وأخيراً أدميرال. لكنه مات كعاميّ، موبوء بالقمل ومنفي في سيبيريا“.

الآن، ومهما بلغ التسامح الذي ادخرته البارونة، فقد ذهب أدراج

الرياح. لقد رغبت في الصراخ، وضرب كعبها بالأرض، لكنها تماكنت أعصابها.

”لا أعرف الكثير عن روسيا. أما في ما يخصنا، نحن الألمان، فإن كل شيء لدينا بنظام. على سبيل المثال، فإن سجل عائلتي لأمي -قون ليفين- مُسجل حتى القرن الثالث عشر، ولا يوجد صبيان حَبَزٍ بين سلالتنا.“

اتسعت عينا كاليوسترو السوداء في اندهاش، كما لو أنه يرى البارونة للمرة الأولى.

”لو كنتُ مكانك، لما شددت على عبارة ”نحن، الألمان“. لأنه لا صحة للزعم بأن كوبو التوريدي، أوّل شعب الليثونيين، كان ألمانيًا. صحيح، أنه تحوّل إلى المسيحية وذهب إلى روما لرؤية البابا. لكنه كان الـ ”لا -ألماني“ قون ليثن.“

ومُجددًا، لمحت البارونة سحابة من الضباب، بدأت تزوم حول كاليوسترو، وكانت تفيض في تيارات حارقة نحوها. فسرت قشعريرة عبر جسدها بأكملها. ربما قد أساءت فهمه؟ لكن، لا. لقد عني ما قال، مُتعمدًا ذلك.

”يا لها من نكتة سيئة أيها الكونت!“

”لم أدرك أنها أنباء جديدة بالنسبة لك.“

”سوف تُحاسب على إهانتك!“

تداعى كبرياؤها أمام عَصَف ضحكة كاليوسترو، مثل وردة ذابلة. حتى شعرت بالرغبة في الهروب -وهو ما لا تفعله الوردة عادة- إذ

شعرت بالفضيحة والعار.

”حتى لو استطعت إثبات أن قون ليفن ينحدرون من سلالة محلية، أو كما تقول، من شعب الليثونيين، وهو محض خيال فاضح. حتى إذا صح كلامك. فإن شجرة عائلتي لأبي تشمل قون هانز“.

”نعم، بالفعل. إن قون هانز أيضًا ينحدرون من نسل محلي. وقد هاجروا إلى بروسيا. وهم معروفون كذلك بلقب ”قون غايل“. لكن يظل ذلك غير مهم. وإنما علينا العثور على جبران!“.

(13)

في 14 يونيو 1940، احتل الألمان باريس، وبعدها بثلاثة أيام، هزّت دبابات السوفيت؛ حلفاء هتلر في ذلك الحين، أرض ريجا. كانت لاتفيا حتى تلك اللحظة، دولة مستقلة، وعضوة بـعصبة الأمم.

كان الجو آنذاك مشمسًا وحارًا، ويانيس بعيدًا بمعسكر الكشافة في سيغولدا. لم أعلم بما جرى في وسط المدينة، لكن قريبًا من العزبة، انحرفت دبابة روسية مُسرعة عن الطريق الرملي الضيق وخرقت منزلًا خشبيًا مكونًا من طابقين.

أحضرت البارونة الراديو الخاص بها إلى المكتب، كان سلوكها غريبًا، فلم تفعل سوى الجلوس أمام الراديو، عاقدة يديها على الطاولة، بينما كان الشيء الوحيد المُذاع هو الموسيقى.

ركضتُ ناحية المطار، فوجدته مُغلقًا، بينما وقفتُ دبابات معفرة بالغبار أمام حظيرة الطائرات. وقد حلقت طائرات غربية لم أرها من قبل فوق المطار الصامت، طائرات بأنوف بارزة، مرت فوقنا ثم اختفت.

في تلك الليلة، عاد جدي إلى المنزل على واحدة من عربات الجنازة ذات الجياد الأربعة، قادمًا من إحدى الجنازات الفاخرة. ليُخبرنا بأن حشدًا من الأرثوذكس المُتشددين، تشاجروا مع الشرطة بالقرب من المحطة المركزية بوسط ريجا، أثناء احتفالهم بعيد العنصرة. وأنه لم يعبر خلال الفوضى، لكنه سمع إطلاق النار بأذنيه، كما رأى شُرطيًا على حصانه كان يسحب حصانًا آخر مغطى بالدم.

كانت البارونة ساهمة بجانب الراديو.

”ما الذي يحدث للعالم؟ وكيف سينتهي ذلك؟ ليس معقولاً أن تخسر هذه الكثرة من الناس عقولها في آن واحد“.

جلس جدي، مستغرقاً في التفكير، ثم خلع قبعته الطويلة كي يمسح جبينه المتعرق. حتى اللحظة، كنت أرى تجاعيده فقط عندما يضحك، وقد أدهشتني الآن رؤية الإرهاق المنعكس على ملامح وجهه، وثقل السنين.

”يعمل العقل مثل كاسحة الجليد، إنها تدفع أكثر فأكثر إلى الأمام، فقط حتى تتراجع مُجدداً“.

لم يمنع هذا التقدير المتشائم جدي من أن يحب الحياة. ومسترخياً بظهره على المقعد، أضاف:

”لقد مرّ الوقت بالفعل في هاملت. لكن حفار القبور واصل عمله بجد. وعلينا أيضاً الاستمرار بالعيش. فالناس سيتزوجون، والأطفال سيُولدون، لأن الإنسان يريد الحياة!“.

بالفعل، استمرت الحياة بالدار كالمعتاد. وحملت العربات حديثي الزواج، وحملت النعوش الميتين. ولم يُقابل سقوط الرئيس أولمانيس بأي رد فعل داخل منزلنا. إن الدكتاتوريات مثل السفن في المياه الاستوائية: سرعان ما يُصيبها الجمود، فتغزوها الحلزونات والطحالب. ضحك جدي بصوت عالٍ على الرئيس الجديد كيرهينشن، كما وصف وزارة لاسيس بأنها مجموعة معيبة من أوراق اللعب، التي تحوي زوجاً من الأصوات فحسب، والكثير من المُهرجين.

ربما كانت الربيبة تجاه المستقبل وكل الأسئلة المُعلقة دون إجابة تستحق أن نغتم بشأنها. لكننا أردنا أن نبقى سويًا في نفس المكان، حتى نستمتع بلم شملنا المتأخر. أو هكذا حسب الأمر.

في المساء، كنت أذهب بصحبة يانيس إلى جدي دون سبب مُعين، وكانت محادثاتنا تستمر لساعات. في البداية، لم نكن لنتعمد ذلك. لكننا فعلنا لاحقًا، حتى إن البارونة انضمت إلينا.

كان الصيف ينسلخ إلى خريف. وظلت الليالي مُنيرة ومُبهجة إلى حد كبير. بينما كانت النجوم في ازدياد. ومثلما منح الخُزَامُ والمنثور الفناء الأعبش رائحة فاتنة، منحت أحاديثنا المسائية، المُتَعَرِّجة التأملية، حيوية مُثيرة لخيالاتنا التي لم يقدر ضوء النهار على إثارتها. كما كان لدى يانيس هذه القدرة الفريدة على سبر أغوار أي موضوع حتى عمق ثلاثة أو أربعة أجيال. أما أنا على سبيل المثال، فلم أكن أعرف شيئًا عن والدي جدي.

حَدَمَ والد جدي، دانييل أولست، في سلاح الفُرسان، وقد عمل مع رجل من كورلاند يُدعى كريستبس هيلمانس، والذي كان الطبيب البيطري الخاص بخيول الحرس الشخصي للقيصر. كما كان أيضًا، أول من يبتكر مصلًا لمرض الرُعَام لدى الخيل، لكنه التقط المرض ومات في 1892. ومن ثم انتقل دانييل أولست إلى ريجا، واشتغل في إدارة إسطبلات كريستبس موربيرج.

امتلك موربيرج أكثر المباني ترفًا في ريجا، لكنه رغب أيضًا في امتلاك أكثر الخيول روعة، أكثر روعة من الخيول الستة التي قادت عربة المدعو ستريكس، ثاني أكبر عُشاق الخيل، ومالك مصنع وولفشميت للعبة.

لقد تبين أن تجربة البارونة مع النظام البلشفي في 1919، كانت في غاية السوء. نعم، هي تذكر المجاعة. والتجمد داخل سندرة باردة، والتي غامرت بتركها خلال الليل فقط، حيث كان من المفترض أنها "فرت للخارج". كذلك، فقد ذبح النظام البقر، وصادر الخيل.

آنذاك، سكن ثلاثة أشخاص القصر بالإضافة إلى يوهانا وهم: مربيتها العجوز التي كانت مُرضعتها في الطفولة، والحوذي الذي فقد بصره بالكامل تقريباً بمرور الوقت، وأخيراً؛ رجل هزيل بشكل لا يُصدق، والذي أُطلق عليه دون سبب واضح: مُوزن البيانو.

كان جدي أقل احتكاكاً بالحمر. ففي ذلك الحين، كان يُوظف معرفته البيطرية الجزئية في كورلاند، حيث رعى جياذ كتيبة مُشاة كالباكس. ولاحقاً، سمح له وزير الدفاع زاليتيس بالذهاب في أوديسة بحرية من ليابجا إلى آيناغي لتنظيم الرعاية الطبية لخيال الجيش اللاتفي بالشمال.

عرف جدي الكثير عن عام 1919 على لسان والده، الذي قضى السنوات البلشفية في سكن مُشترك رفقة موربيرج، بالمبنى المُقابل لحديقة باستيجكلنس. وذات يوم، طُرق الباب بعنف، ولمّا كان موربيرج مقتنعاً بأنه سوف يُختطف ويُقتل بالرصاص، فقد ارتدى معطفه المُبطن بالفرو ثم خلعهُ وأعطاه لأولست. لكن نوايا النظام الجديد بدت بخلاف ذلك، هي مُصادرة شقة موربيرج وممتلكاته. وقد ساعد المعطف الناجي موربيرج جيداً، بعدما سكن في شقة كنّاس الشارع السابق، فالشتاء كان قارساً، دون تدفئة، لأنهم أخذوا حطب التدفئة مع كل شيء آخر، وذلك إذ توقفت شاحنة أمام المبنى في اليوم التالي للاقتحام، وقذف الجنود عبر سير خشبي، محتويات مكتبته الشخصية، من الطابق الثالث إلى مؤخرة الشاحنة.

أمطرت المُجلدات المنمقة، في زَخَاتٍ من الأغلفة. فلم يقدر موربيرج على احتمال المنظر، وخاطب القائد: "إنها ليست طُوبًا، بل كُتبٌ تستحق بعض الاحترام!" لم يُراوغ جدي في حديثه عن النظام الجديد، فاستعمال مصطلحات من قبيل شيوعي، أو السيطرة الروسية، أو البلاشفة. وقعت جميعًا بالنسبة له تحت عنوان واحد هو "الحُمُر".

أتذكر اليوم الذي توقف فيه تداول عملة اللاتس، واستُبدلت بالروبل الروسي. كان منتصف الليل تقريبًا عندما غادرنا مكتب جدي، أنا ويانيس، عائدين إلى غرفتنا، عندها سمعنا طرقًا صاخبًا على الباب الأمامي. مؤخرًا، كنا قد استمعنا وتحدثنا عن تلك الزيارات الليلية المتأخرة، وعن ضرورة أن نكون مستعدين لها. لكن، رغم ذلك، شعرنا بالمفاجأة والصدمة. فبدا جدي مضطربًا تمامًا. وفي طريقه لفتح الباب، توقف لسبب ما ولبس قبعته، والتي عُدت رمزًا لعدو طبقي، ونالتها السخرية في كاريكاتيرات الصحف. لكن ما العمل؟ فقد كانت قبعته الطويلة التي ارتداها في الجنازات.

دخل ثلاثة رجال، اثنان في ملابس رسمية، وآخر بزي مدني. كان بالإمكان رؤية الجيش الروسي في كل ركن من أركان ريجا، لكن ظل من الصعوبة الاعتياد على مظهرهم الغريب. بالقمصان الخضراء الضاربة للرمادي، الواصلة للرُكبة، وقبعاتهم المُستديرة بحوافها القائمة، وأحذيتهم طويلة الرقبة، ملفوفة بعدد لا متناهٍ من الربطات حول الكاحل. كما بدا وكأنهم قد أمروا باستخدام كميات كبيرة من الكولونيا الحُلوة المُثيرة للغثيان.

"نحن نبحث عن المواطنة يوهانا هولييندير" تكلم الجندي، ناطقًا الرءاء من سقف حلقه.

كانت البارونة هي الوحيدة التي لم تُغادر غرفتها، وحتى الدقات على بابها بدت غير مسموعة. وعندما خرجت أخيراً، أعطتنا انطباعاً بأنها كانت تتوقع زوار الليل هؤلاء، فكانت بكامل هندامها، حتى ربطة العنق والأقراط، وكل خُصلة من شعرها في مكانها الصحيح.

”هل يمكنني أن أقدم لضيوفنا شيئاً، شايًا أو قهوة؟“.

”في وقت آخر- ر- ر“ رد الجندي، بينما ارتفعت يده في نصف تحية.

لقد بدا أنه مُستعد لتقديم التحية العسكرية للبارونة، لكنه تراجع، إذ لم يكن في ملابسه الرسمية. ”نحن نريد إجابات عن بعض الأسئلة حول علاقتك بإحدى دول الحلفاء؟“.

”بكل سرور، تفضل“.

”ليس هنا، وإنما في المُفَوَّضِيَّة“.

تجمدت البارونة، ورمقته بحدة.

”هل يعني ذلك أنني قيد الاعتقال؟“.

من الواضح أنها لم تكن المرة الأولى التي يسمع فيها الجندي هذا السؤال. فجاء جوابه تلقائياً، مثل تذكرة قطار تخرج من ماكينة آلية.

”إطلاقاً. لكن من غير اللائق أن نتركك تتكبدن عناء الانتقال وحدك“.

لم ننم تلك الليلة، حيث كنا في انتظار البارونة. التي عادت إلى المنزل في الصباح.

عندما نزلت من السيارة، وجدت نفسها أمام مبنى مألوف لديها، لقد

كان مقر وزارة الشؤون الداخلية في ما مضى. حيث عُلقَت ذات يوم، المُلصقات السياحية التي تقول ”اكتشف لاتفيا الجميلة!“ و”اعرف وطنك الأم!“، مُقابل شارع بريفيباس. لقد جاءت هنا في الماضي لإنجاز بعض الإجراءات الشكلية لدى إدارة الإطفاء.

أدخلوها إلى غرفة حيث يجلس رجل عسكري وراء مكتبه، ويبدو وكأنه قفز لتوه من مسرحية لتشيخوف: فشعره أشعث لم يمسه مشط، ويرتدي نظارات مُثبتة فوق أنفه. لم يتحدث الرجل باللاتفية؛ بينما تكفل الجندي الذي استدعى البارونة بالترجمة، وقد تبين أن معرفته هو الآخر باللاتفية محدودة للغاية. وهكذا، شأؤوا أم أبوا، فقد لجؤوا بالنهاية إلى الحديث بالروسية، أما النبرة العدائية للمحادثة فلم تكن نذير خير.

”لماذا تُخفين حقيقة كونك البارونة ميكلينشتاوفز؟“

”كُنت بارونة ميكلينشتاوفز. وعندما تزوجت جوزيف هوليندرز عام 1928، وبصفته مواطناً لاتفياً، فقد أصبحت يوهانا هوليندر.“

”ومن هو جوزيف هوليندر؟ أين هو؟ ما خلفيته الاجتماعية وما وظيفته؟“

”إن جوزيف هوليندر متوفى. ومدفون في مقبرة مارتينا.“

”أنتِ ألمانية. فماذا كان غرضك من البقاء هنا؟ لماذا بقيت؟“ تتابعت الأسئلة دون توقف، إلى درجة أن كلا الرجلين تحدثا بالوقت نفسه. وكذلك، نطق الرجل وراء المكتب الرء من سقف حلقة تماماً كالجندي، فبدا أنهما يُحاكيان بعضهما بعضاً، ويهذران مثل سرب من الطيور

المُنفعلة. وذكّرنا سبيل الكلام، بهمجية الباعة بأكشاك شارع مارياس، الشيء الذي أثار صدمتها، بافتراض أن تلك هي مؤسسة حكومية مُحترمة.

سَلّمت البارونة بأن اختلاق الأعذار سيكون عديم القيمة مثلما هو شرح علم التضاريس للافتات على جانب الطريق.

”لديّ وثيقة بالرفض“.

قضى الرجلان وقتاً في التدقيق بخطاب وزير الخارجية الألماني، وهما يغمغان ”غير مر-رغوب فيها“، ”تُعتبر غير مر-رغوب فيها“.

”غير مذكور أي تفسير هنا. فما هو أساس الرفض؟“.

”أعتقد بأن الأمر مُتعلق بأقاربي. فجدتي لأمي اسمها سارة هيدبيرج“.

وكما لو أوقفهم عصا مايسترو فجأة، تجمّد الرجلان لبرهة، وتبادلا نظرات ذات مغزى.

”مان-ذا-ا! أنتِ لست ألمانية؟“.

”بإمكان الدم أن يُخبرك كم من الكحول شربت، لكن العلماء لم يكتشفوا بعد طريقة لتحديد نسبة القومية في الدم“.

استمر الحديث بذات النبرة الخشنة، لكن أحسّت البارونة بأن عدوانية الرجلين قد تضاءلت. وفي النهاية، أعلنّا أن التحقيق سوف يستمر وأنها قد تُستدعى مرة أخرى عند الضرورة. وأن كل ما رآته أو سمعته يجب أن يبقى سرّياً.

”هل أخذ هذا الليل بطوله؟“ كان يانيس مُندهشًا. لقد كانت الساعة صباحًا، وها نحن في زينا المدرسي.

”آه-آه، لقد كانت عملية مملة، وقد دونوا كل سؤال وكل إجابة. كما وجدوا مشكلة مع القلم، حيث تلطخت الورقة ببقع الحبر. خرج أول ال ”ر-ر-ر“ بضع مرات، في الغالب بحثًا عن شيء، لكنه لم يجده. وأحيانًا، كان الاثنان يتركانني ويذهبان لمناقشة بعض الأمور. أظن أنهما كانا يُقرران إذا كانا سيستشيران مُديرهما أم لا.

لكن، هل تعرفون أي شيء فاجأني أكثر؟“ أضافت البارونة بعد تفكير. لكن بمُجرد طرحها السؤال، تغيّرت تعابير وجهها بسرعة مُذهلة، إلى درجة أتاحت على الفور؛ كشف المضمون الحقيقي للساعات الأخيرة بوضوح. وتمامًا، مثلما ينهمر الماء من وجه السباح وهو يطفو إلى السطح من بين الأمواج، تدحرج الرعب، والقرع، والاضطراب، والتعب على جبين وخدي البارونة. ”بحلول الصباح، عندما ملأ الرجل العسكري ”ر-ر-ر“ التحقيق، وقادني الجندي ”ر-ر-ر“ إلى المخرج، أضيء المبنى بأكمله مثل مصنع غزلٍ خلال الليل. فكان بإمكانني التقاط الأصوات خلف كل باب، والألعاب السوءاء التي تُحاك في وضح النهار.“

”إن العمل ليلاً مُربح اقتصاديًا. لأن الكهرباء تكون أرخص في المساء.“ ففكر يانيس بصوت عالٍ.

ابتسمت البارونة وهي تُغادر صاعدة إلى غرفتها، ثم توقفت ومدت يدها قارصة شحمة أذن يانيس. لقد لمستني بهذا الشكل من قبل العديد من المرات، لكنها بدت المرة الأولى ليانيس.

”آه، تذكرت“ نظرت البارونة للخلف، ”ما أثار فضولي أيضًا، هو

رؤيتي الطيار هناك. ففي طريقي للخارج، مر بجواري في الردهة، شخص يرتدي أحد تلك القمصان الطويلة النظامية. لقد كان هو دون شك، وقد تظاهر بأنه لم يرني. لكنني واثقة من أنه هو، كان يرتدي زي الطيارين اللاتفيين الرسمي، لكن دون شارة النقيب، وإنما بنجمة حمراء فوق قبعته“.

(14)

إن ما حدث متعذر على الوصف، فالرحلة إلى سان بطرسبرج هي مُغامرة مجنونة، لم تكن حتى لتخطر ببالها، وخصوصاً، في وضعها الحالي، لكن رفض عرض الكوبتا العظيم لم يكن ضمن حدود قدرتها.

وبخلاف توقعات فايتروت فون بريغن، تبين أن الرحلة كانت ممتعة إلى حد ما. فالطريق كان يُمكن احتمالاً، ليس في نطاق فيدزيم فحسب، بل في بليسكافا ولوجا أيضاً. لم يسافروا في مركبة جماعية، وإنما في عربتين، استعار إحداهما الكونت من بيتر دوق كورلاند، أما الأخرى فمن دار الضيافة. وقد دَثَّرَت المقصورة الفخمة ذات اللون الأحمر المخملي ركابها؛ مثل اللؤلؤ والأحجار الكريمة الموضوعة بصندوق للمجوهرات. أما الخوف الذي زرعه إيلسا فون دي ريكة داخل فايتروت، من أن الكونت سيتحول إلى شخص خطير كلما تقدمت الرحلة، فقد ثبت زيفه.

حضرت لورينزا ملكة سبأ رفيقة درب الكونت. وبرفقتهم صحبة صغيرة وفضولية. فمن طرف لورينزا، حضرت وصيفتها الزنجية چو، والتي قد تكون رجلاً -أو على الأرجح- خنثى، وأيضاً، القزم فو ذو الثلاثة أقدام وإنشين، وهو راعي الحيوانات، إذ كانت لورينزا تخرج دومًا بصحبة حمامة تجثم فوق كتفها، وحيّة أوروبية برونزية اللون، اسمها هوميروس، كانت تطوق ذراعها مثل سوار سميك. وكذلك، طباخ كاليوسترو الخاص، وهو ألماني مُبتسم وسمين، وذو لُغد كبير للغاية،

بالإضافة إلى الخادم الشخصي الجديد الذي عُين في يلجافا قبل السفر بوقت قصير، ومُنجمٌ أشبه بالغرَاب اسمه ميداس، والذي تحدث معه كاليوسترو بلغة الملك سليمان.

جلس رجال الحاشية بجوار الحوذي بالخارج، أو عند مؤخرة العربة على مقاعد خاصة. في حين ركبت البارونة وبون سبريت بمفرديهما. في ما عدا الأوقات التي زارهما فيها الكويتا بأخبار جديدة، أو بالوجبات الخفيفة من المؤن التي زودهم بها الدوق.

وفقاً للقانون الروسي، كان يتمركز خمسة من الخيالة الشُّرطية عند كل مكتب بريد. وعندما اقتربوا من سان بطرسبرج، طلب الكونت من إحدى مجموعاتهم مرافقته. وكانوا فرساناً في سترات سوداء مائلة للزرقة، وحرابهم مُوجهة للأمام، وقد ساروا أمام العربة، فكان الموكب مُثيراً للإعجاب.

كان المُحيط يزداد كآبة، كما لو أن شبكة عنكبوت ضخمة قد غطت كل شيء. الغابات كانت مُثيرة للشفقة، ومُسواة بالأرض، ومحرومة من كل أشكال الحياة. وبهتت الألوان وغمقت إلى الرمادي. مُروج أشبه بالمستنقعات، وجذوع أشجار عارية وميتة. ونوارس وحيدة تحت سطوة الرياح، وسماوات غائمة. وفجأة، كشفت عن نفسها، مثل سراب هائل فوق أكمة⁽⁹⁾ مستوية: مدينة هائلة ذات قمة ذهبية، ترتفع من وسط الغيوم الزرقاء البعيدة مثل البستوني في ورق اللعب. إنها تُماثل في أقل تقدير، عشرة أضعاف مساحة ريجا ويلجافا مضمومتين معاً! قصر وراء قصر، وجسر وراء جسر، وبرج وراء برج.

9- الأكمة الأوراسية: هي تلة صغيرة، عادةً يُقصد بها مجموعة من الهضاب ذات الحجم والمستوى المتساوي تقريباً مثل السلاسل المتصلة. (المترجم، المصدر: ويكيبيديا)

تذكرت فايثروت القصة التي حكتها لها مُربيتها، عن الصياد الثرثار الذي فرد ذراعيه بأقصى ما يستطيع، مُختلاً بحجم سمكة الكراكي التي اصطادها من البحيرة. ولما قيده صديقه بحيث لم يستطع غير تحريك يديه فقط، فتح كفيه بحجم الكرب وقال: ”انظر، كانت عينا الكراكي بهذا الحجم!“. نمت المدينة فوق عدة جزر، فكان انعكاسها على سطح الماء، أشبه كذلك بالعين، عين ضخمة، تمنحك تصوراً عن حجم الجسد الذي تنتمي إليه. التقى كاليوسترو عند بوابة المدينة بالسيناتور يلاجين، وهو السيد الأكبر لماسوني سان بطرسبرج الأحرار، رفقة سادة كبار آخرين. وبسبب الرياح القادمة من خليج فنلندا، أو على الأرجح، بداعي إنجاز بعض الطقوس؛ فقد وقف وفد الاستقبال على جانب الطريق، يرتدي كل منهم عباءة سوداء بغطاء للرأس، فوق زيه الحريري المُزخرف.

صعد السيناتور يلاجين إلى العربة برفقة الكوبتا العظيم. في حين ركبت لورينزا وأحد أعضاء الوفد –رجل طويل في منتصف العمر، نحيل وشاحب– مع البارونة فون بريغن لما تبقى من الرحلة.

”اسمحي لي أن أقدم نفسي، أنا فون شنتزلر، أمين متحف كونستكاميرا“⁽¹⁰⁾. بدا صوت الرجل الشاحب أجوف، كأنه يتحدث من قاع برميل. ولم يكن الحديث مُريحاً أو سلساً، فقد اكتفى الأمين بتسمية المباني من حولهم.

10- هو متحف بطرس الأكبر للأنثروبولوجيا والإثنوجرافيا، ويُعد أقدم متحف في روسيا، أنشأه الإمبراطور بطرس الأكبر ويقع في سانت بطرسبرغ.

”هذا قصر بطرس الأكبر... قصر إليزابيث ... قصر كاثرين..“.

”كم قصرًا بالمدينة؟“ سألته فايتروت.

وكما لو أن موجة غير مرئية قد صدمته؛ التفت فون شنتزler بباروكته المُموجة.

”الكثير. بل أكثر من ذلك يجري بناؤه“.

”ولماذا يبني كل حاكم قصرًا جديدًا؟“.

”ربما بسبب الأشباح. الذكريات السيئة، والجيران غير المرغوب فيهم“.

أرادت ملكة سبأ أن تعرف عن أكبر فضيحة بالبلاط، والتي يحكي الجميع عنها.

لكن شنتزler تردد، وتلملم، وارتعشت تفاحة آدم في عنقه لأعلى وأسفل. لكن ابتسامة لورينزا وضحكتها الناعمة طمأنأه، فهذا تدريجيًا، وعاد إلى الحياة.

”إنها كارثة غير معقولة. فقد وُلدت الأميرة سالتيكوفا صبيًا أزرق اللون. أزرق بالكامل، كما لو أنه نُقِع في الحبر. وكانت قد أنجبت من قبل إنثاءً فحسب، والآن أصبح لديها وريث يحمل اسم العائلة. لكن لا!“.

عضت فايتروت شفيتها وقالت: ”فظيع! غير معقول! فماذا لو أنجبت وحشًا مُروعًا؟ مكسوءًا بالشعر، أو له رأسان“.

لكن سرعان ما هدأتها ملكة سبأ. كما فعلت مع شنتزler المُغفل، حتى إنها لمست يديه لطمأنته.

”لم تعد هناك مشكلة! فبمقدور الكوبتا العظيم علاج مثل هذه الأمور. مثلما فعل مع نجل الحاكم العام لكورسكا، والذي وُلِدَ أخضر، حتى إنه بكى بدموع خضراء، والآن قد صار بخير حال. لذا، طمئن الأميرة سالتيكوفا. أخبرني؛ هل لا تزال العلاقة بين الإمبراطورة والأمير بوتيمكين مُتقددة؟“.

”مؤخرًا، شوهدت الإمبراطورة أكثر بُصحبة الشاب سادوفسكي، لكن لا تزال الحُطوة الأكبر لجريجوري ألكسندروفيتش. فهو يُغريها بـ“مشروعه اليوناني“، إنه يُريد أن يهزم تركيا، ويُسلم العرش البيزنطي إلى حفيد كاثرين“.

”أمّا ماتوشكا: [الإمبراطورة]” نطق شنتزلر هذه الكلمة بالروسية – فتُخبره ”عندما يتعلق الأمر بالنساء فإنك يا جريشونكا [بوتيمكين] أشبه بشبكة مُهترئة، يتساقط منها كل شيء. لكن الأمير أجابها بصراحة ”باستثناء السمك الكبير، لأنه واقع بشباكي مدى الحياة“. إن بوتيمكين لا يشبع، فلديه الآن صبي من إحدى قريباته. لكن، هل من أخبار جديدة في أوروبا؟“.

لا أعرف إن كان الحديث مسموحًا لي أم لا. لكن الكوبتا العظيم قد تنبأ بوفاة القديس جيرمان. والذي لا يعلم أحد عمره الحقيقي. فالقديس جيرمان يدّعي أن عمره أربعة آلاف عام، بالرغم من أن خادمه يتهمه بأنه يُبالغ في ألف عام على الأقل، لكنه يدّعي أيضًا، أنه حضر مآدب نبوخذ نصر في بابل“.

مأخوذًا بما يسمع، هز الأمين وأوماً برأسه الكبير المُضنى، مع كلمات ملكة سبأ.

”من المؤكد أنه سيموت ذات يوم“.

”على الجميع أن يموتوا مرة على الأقل. توقع الكوبتا أيضًا، وفاة ماريا تيريزا في المستقبل القريب، كي يتحرر الإمبراطور جوزيف منها. إنه واحدٌ منا، والنمسا تتقدم باتجاه تغييرات عظيمة“.

”فقط، لو كانت روسيا الحبيبة تتقدم نحو التغيير!“.

”هنالك الكثير من الحديث حول روسيا داخل أوروبا!“.

لوى شنتزلر شفاهه السميقة بشكل استثنائي، في ابتسامة ساخرة.

”إن إصلاح روسيا يُشبه قوس قُزح؛ فهو ليس جسرًا يُمكن عبوره“.

مرّ الأسبوع سريعًا. ودومًا كانت تحصل أشياء جديدة، أشياء لم تُسمع من قبل، ولم تُر من قبل، غير مُتوقعة. لحظة من الراحة، ومن ثم الجولة التالية. زيارات وُنزهات، وعروض مسرحية، وحفلات راقصة. الحياة في قصر يلاجين كالحلم. عندما قرر السيناتور أن يُفرّجهم على خيله، فرش خمسون خادمًا سجادًا من بخارى وقندهار على السلالم الرخامية والأرضيات المُبلطة، واستعرضت الأحصنة بقاعة الرقص. كما أعلن كاليوسترو فوق طاولة اللعب بأنه يفهم لغة المغاربة؛ وبمجرد أن صفق يلاجين بيديه، اندفع راقصون داكنو البشرة، يرتدون ريشًا مُلونًا إلى القاعة.

أعتمت سماء سان بطرسبرج الليلية قليلًا، قبل أن تُشرق شمس جديدة. واستيقظت فايتروت فجأة من قيلولة قصيرة. فكانت الغرفة مُضاءة، والعندليب يُغني بصوت عالٍ، بشوق، خارج النافذة، تقريبًا مثل أقربائه في فيدزيم. حقًا، إذا كان كل شيء ممكنًا بهذا القصر، حيث

تتحول كل الأمانى إلى حقيقة، فهي تُريد بحق -لا تتمنى فحسب- أن يصير إبهارت بجانبها، هنا، في هذا السرير الطويل والواسع كساحة موكب عسكري! ولا يهم كيف. سواء كان بوجهه، أو بذقن النقيب أولست العريضة وشاربه الرمادي. فلا يزال بمقدورها رؤيتهم، وشمهم، والشعور بهم فوق خديها، وعنقها، وصدرها. إنها بحاجة إلى رجل على قيد الحياة، كاملاً أو، إن لم يكن، فمجزأً إلى نصفين، أو ثلاثة، أو أربعة، المهم أن يكون أحداً ما هنا بصحبتها، كي يجعلها تحيا كما ينبغي لامرأة شابة. امرأة كاملة. فلماذا يجب عليها، هي فايتروت، أن تضحي بشبابها في سبيل الخير الأعظم؟ إنها لا ترغب في أن تصير أمًّا لبوذا، أو مريم العذراء. فحتى بعد إنجابها المسيح، أنجبت مريم أربعة، أو خمسة أطفال كعادة ذلك الزمان. إذًا، لقد مَسَّها الرب برحمته، أفلا تستحق، هي فايتروت، بعض تلك الرحمة؟ كم هذا عجيب، أن تكسب البشرية قُدرات جديدة، في حين لا تحصل هي على شيء، لأن طفلها، لن يكون من الروح القدس، بل من النصف السفلي لجسد ما. عزيزي إبهارت، أين أنت؟ كم سيكون هذا رائعًا، لو أننا هنا سويًا، ننصت للعنديل! سوف أستلقي في حضنك، أما أنت فسوف...

يكفي جلدًا للذات! تقلبت البارونة وتلوت. ثم دلكت حلقها كما لو كانت ظمآنًا، ولمست ثدييها الناهضين والمنتفخين. أه، كم هذا مُحزن! حُزن لا يُطاق!

تساءلت فايتروت متى سيقابلون جبران بشكل يومي تقريبًا. لكن الإجابات كانت مراوغة: "إننا بحاجة لموامة بعض الظروف"، "ليس الوقت مناسبًا". كانت تلحظ أن عقل كاليوسترو في مكان آخر، ويبدو لها أن الأمور لا تسير وفق خطته. لكنه ظلّ يستحضر الأرواح في محفل

الماسونيين الأحرار، ويمنح تنبؤات فلكية، مُدعيًا أن بمقدوره تحويل عنصر إلى آخر، لكن فكرة المحفل المصري، لاقت دعمًا باهتًا بين سيدات سان بطرسبرج، بينما تأخرت الإمبراطورة في الانتباه لوصول ضيوفها.

إن الكونت مشغول بحق، لا يُمكن إنكار ذلك. وبينما تكشف المدينة عن نفسها وكأنها الجنة ذاتها، فإن طبقتها العليا مهمومة بالكثير من المآزق والقلقل، ولذا، يطلب الجميع معونة الكونت. فالرجال الأكبر سنًا من زوجاتهم الشابات؛ يطلبون الطاقة النجمية، ويريد لاعبو القمار المُثقلون بالديون؛ تحويل البرونز إلى ذهب، أما النساء العجائز فيريدن إكسیر الشباب. صحيح، أن الكوبتا كان يردّ بعضهم بفضاظة، إن لم يكن بوقاحة، لكنه ظلّ يُخبر كل شخص جاءه بأشياء كانت تجعل عيونهم تتسع وقلوبهم تقفز، ليس هنالك من شك، في أن نظرة واحدة كانت تكفي الكوبتا حتى يقرأ من أمامه مثل كتاب.

مثل طفل سالتيكوفا الأزرق حالة فريدة من نوعها. وسرعان ما ذاعت الأخبار حول قدرة كاليوسترو على درء البلاء عنه. وانتظر الجميع ما سوف يحدث، لكن المهمات الخطيرة تتطلب تحضيرًا جديًا.

طاف الكونت بأرجاء سان بطرسبرج؛ داخل عربة دوق كورلاند المذهّبة، متحمسًا منابع الطاقة التي لا تنضب، وخالقًا روابط مع أناس يشغلهم نفس الهوى. بينما أصبحت ملكة سبأ نديمةً لأمين المتحف شنتزlr. لقد حدثت أشياء رائعة لهذا الرجل. هذا الألماني السانج، المُثار بلطف لورينزا، قد صار عاشقًا مُتيمًا، ولم يَعدِم إصراره المردود. ودون شك، مثلما كان حبيبي إبهارت يقول دومًا، إن المنّي، وعرق رجل يحتضر، هما رائحتان لا يُمكن لأنفٍ نسيانهما.

وأخيراً، جاء اليوم: فقد أرسلت الإمبراطورة كاترين تطلب حضور كاليوسترو إلى قصرها الجديد في بيترهوف. فوصل الكوبتا العظيم في موكب من خمس عربات بكامل حاشيته. أيضاً، كان رئيس الماسونيين المحليين، الكونت يلاجين مدعوًا.

بأبعاده الصغيرة؛ بدا صف الأروقة الطويل، الذي مشوا عبره أثناء استقبالهم، مُعبّرًا عن البساطة. لكن في الوقت نفسه، فإن الفخامة والغنى والترف، كانوا مُكسبين على نحو مُفطر، إلى درجة تجعلك تشعر بأن الطريقة الوحيدة لمُجاورتهم هي المشي بملاصقة الحائط. فعلى الجدران والسقف والأرضيات، رُسمت غابة من اللوحات. وتراصت أكداس الكريستال والخزف والذهب والأنسجة المُزدانة بالرسوم والكهرمان. فضفاضة ومائجة ومُنحنية، كأنها تُحاكي أجسادًا أنثوية. وكذلك انتشرت العناقيد البراقة من الثريات، وصالونات الاستقبال، وغرف الجلوس، وطاولات اللعب بأرجلها المنحنية المُوحية. هذه اللوثة من الفائض الاستفزازي، والإسراف الطائش، سيدعوها المؤرخون في ما بعد بأسلوب ”روكوكو“، لكن آنذاك، كانت البارونة المنفعلة هي الوحيدة التي شعرت بأنها غادرت لتوها عالم الباروك المألوف، إلى عالم رائع مُغاير كليًا.

وقفت الإمبراطورة في منتصف القاعة: امرأة عجوز، بخدود ممتلئة، ورقبة غائرة وناعمة، بذقن رجولي، وشفة عليا رفيعة، وعينين زرقاوين هادئتين ويقظتين. كانت ترتدي فستانًا أرجوانيًا مُموجًا. بينما صحت إشاعة أنهم لم يعودوا يضعون شعرًا مستعارًا هنا، حيث عُقد شعر كاترين في تموجات عريضة. أما الأمير بوتيمكين فكان يرتدي باروكة، لكنها كانت ناعمة بشكل غريب، مع عدة تجعدات فوق الأذنين. كما كان

وجهه البدين فُكاهياً: فكان عريض الحاجبين كأن أحداً قد رسمهما على وجهه، وعيناه لصيقتان بعضهما ببعض، أمّا أنفه فأشبه بسدادة الفلين، وذو أرنبه قصيرة وسميكة. وقد ربط شريطة سوداء فوق إحدى عينيه. وبالرغم من بنيته الممتلئة، إلا أن الأمير بدا ضئيلاً عند وقوفه بجانب الإمبراطورة، كما بدت أكتافه الممتلئة مشدودة في استعداد، مثل قطة تتربص بفأر، هكذا، بدا على وشك الانقضاض في أي لحظة.

لم تلاحظ البارونة أيّاً من الحُضور الآخرين بالغرفة. لأنه ربما كانت ستقف يوماً، أمام الرب عزّ وجلّ -وفق مشيئته- أو ربما لا. أمّا هنا والآن، وعلى مسافة لا تزيد على ثلاث حُطوات منها، وقفت كاثرين العظيمة والأمير بوتيمكين ذائع الصيت.

عقب التعارف، دعت الإمبراطورة الجميع إلى الغرفة المُجاورة، وهي عبارة عن صالون به مدفأة كانت تطلق. وعموماً، اختلفت مراسم الاستقبال عن تلك التي اعتادت عليها فايتروت في المجتمعات الأقل سُمواً.

قفز بوتيمكين إلى كرسي، وعلى الفور، أشعل غليونه الهولندي الطويل؛ أما الكونت كاليوسترو فأخرج علبة تبغ الاستنشاق من جيب سترته في حركة مُتباهية.

”إن الحقد مُستشار سيئ. فبدافع النكاية بالسويديين؛ بنى بطرس عاصمته في مكان حيث يتجمد كل شيء شتاءً، ويتعفن صيفاً. إن ريجا تصلح كموقع جيد للعاصمة الروسية“. تكلمت الإمبراطورة، بسهولة كما لو أنها تُدرش مع أصدقائها المُقربين في نُزهة، مُوجهة حديثها إلى الكونت كاليوسترو: ”ما رأيك، هل ستُعلن إنجلترا الحرب على هولندا؟“.

”بالتأكيد“ أجاب الكويّتا دون تردد، فقط بعد برهة أضاف:
”جلالتك..“.

”أأنت واثق؟“.

”بل أكثر من واثق“.

”وهل سيوقف الحصار البريطاني الأمريكيين؟“.

”لا، لن يفعل“.

”هل بإمكانك رؤية ذلك؟“.

”نعم، أراه. كما أن روسيا ستمتلك الجنوب الدافى“.

”هل رأيتِ يا ماتوشكا! وقد كنتِ تشكين بذلك!“ صرخ بوتيمكين،
وهو يبدو أطول في كُرسيه.

”لا، يا جريجوري ألكسندروفيتش، لم أكن أشكُ في ذلك. لكنني لم
أُرد لك ولجيشك التورط أكثر فأكثر في البلدان الأكثر دفئاً..“ لم تُغير
الإمبراطورة نبرتها.

حاولت فايتروت استيعاب ما يُقال، رغم انعدام صلته بمهمتها. وكانت
كلما مرت بطاولات اللعب، استمعت في حيرة إلى عبارات: ”انسحب!“،
”ارم!“، ”وزّع!“، أما هنا، فكانت عبارات ”مُعاهدة مع السويد“،
و”مُعارضة لورد ساوثمبتون“، و”أفكار بومارشيه“ ذات معنى بالنسبة
لها. وعموماً، تمتع كل من الإمبراطورة والأمير بوتيمكين بلعب الورق،
وكانا بارعين للغاية فيه.

من الغريب أن يلاجين لم يُشاركهم اللعب، وشكّلت فايتروت انطباعاً

بأن الإمبراطورة لم تكن حتى لتراه. أما هو فلم يفعل شيئاً حتى يُذكرهم بحضوره، وإنما جلس في جمود، وانحشر جسده المليء؛ باعوجاج في الكرسي مثل شمعة مشوهة مُثبتة بشمعدان نحيل.

كذلك، كانت ملكة سبأ صامته. لكن دون أن تُستثنى من اللعب، وقد استقرت الحمامة البيضاء فوق كتفها، في حين نامت الحية هوميروس مُطوّقة معصمها، وبين الحين والآخر كان أحدهما يُصدر ضجةً تلفت انتباه الحُضور، وللمرء حق الاعتقاد بأنهما ما كانا ليهمساً دون أوامر لورينزا.

وفجأة، شعرتُ فائتروت بما يُشبه الغرق. لقد شعرتُ بنظرة كاليوسترو مُسلطة عليها، فعرفت أنها ليست سوى مُقدمة لشيء أكبر، وأن شيئاً ما يجري الآن، فأحست بخديها يزدادان سخونة، كما لو أنها عادت إلى خجل العُذرية مُجدداً، عندما كانت الحرارة تنتشر من خديها إلى كامل رقبتها، وصولاً إلى مشدها، فتخطف أنفاسها.

”اسمحي لي بسؤال، ماذا يعمل مسيو ديدرو هنا؟“ بدا صوت كاليوسترو بارداً.

”إن مسيو ديدرو هو أمين مكتبتنا، وهو لا يزال في سان بطرسبرج. فقد عانى من مشاكل صحية مُؤخراً“. لم يكن الموضوع مصدر مُتعة بالنسبة للإمبراطورة مثلما بدا في كلامها.

”عندما واجه مسيو ديدرو متاعب في سبيل نشر الموسوعة الفرنسية الكبيرة في باريس، تعهدت جلالتك بالموضوع تحت حمايتك. حتى إنك كنت تبحثين عن فرص للنشر بريجا..“

”لم تحن بعد الضرورة لتنفيذ ذلك.“

”إن ألمع عقول أوروبا قدّرت اهتمامك. فقد كانت تلك لفتة مُلهمة، حينما اشتريت مكتبة ديدرو الفقير المُعسر، وأتيت به إلى سان بطرسبرج، فلماذا فعلتِ ذلك؟ ... جلالتك؟“.

”سؤال فضولي“ أجابت الإمبراطورة، بلامبالاة ظاهرة، وهزت كتفيها المُحدودبتين بعض الشيء.

”لم يكن هذا سؤالاً... جلالتك. فأنا أعرف الإجابة. فبمساعدة الموسوعة، أردت تغيير عقولهم“. لبرهة، تجمدت الإمبراطورة من الدهشة، وتضاءلت هيبتها على الفور بتأثير السخرية الحادة في نظرة كاليوسترو الباردة.

”حديث بارع“.

”بل حديث الحقيقة“.

”إنني لا أختلف معك. فالتقدم يعني التغيير“.

”دعيني أمنحك فرصة جديدة..“.

”لنشر الموسوعة؟“.

”بل لتغيير الرؤوس“.

”ها-ها. بل لتوظيفك. فهل من مزيد من المشاريع الأدبية؟“.

”لا، بل الجراحية. اسمحي لي بأن أُعطيك مثلاً، قبل سنوات قليلة في

موسكو، ودّع بوغاتشيف⁽¹¹⁾ رأسه. لقد كان عقابه عادلاً، لكن بربرياً، كما أنه لم يُرضِ الجميع. ألم يكن من الأجدى تثبيت رأس آخر فوق كتفيه؟ أي استبدال الرأس المُتمرد بآخر محل ثقة. تخيلي الآتي: أن يُصبح بوغاتشيف مُواطناً مُطيعاً ويذهب للحرب ضد الأتراك، ويخوض الجنود تحت إمرته خلال الماء والنار!

لمعت ابتسامة الإمبراطورة كفكي كماشة. وجاهدت كاثرين حتى تزن وتُقيّم ما سمعت. لكن استدعاء سيرة بوغاتشيف لم تكن لتسرّها.

”هل تعلم بأي حالات استُبدلت فيها الرأس بنجاح؟“

”الرأس، وأجزاء أخرى من الجسد، بالضرورة.“

”نكتة غريبة.“

”إطلاقاً!“ قام الكونت بالتفاته واسعة باتجاه فايتروت.

”ها هي، أقدم لك البارونة فون بريغن، سليلة نبلاء آل ليفن. إن زوجها هو إبهارت فون بريغن، الضابط بفوج الدوق الأكبر قسطنطين، والذي خسر رأسه في معركة بطولية ضد الأتراك. بالإضافة لكتفيه وصدوره. أمّا الجزء السفلي منه فقد خُيِّطَ بالنصف العلوي للفرايهر؛ النقيب أولست، وقد عمل المُركب بشكل طبيعي. والبارونة حامل في شهرها الثالث بوريث زوجها.“

لم تدر فايتروت ماذا تفعل، إذ رمقتها عينا الإمبراطورة الزرقاء الباردة

11- يميلان بوغاتشيف. كان مطالباً بعرش الإمبراطورية الروسية وقائد ثورة القوزاق في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية. فُضِّص عليه وسبق إلى موسكو وأعدم بقطع رأسه في 21 يناير عام 1775.

بحدة دقيقة. ومن باب الحيلة، وقفت فايتروت، وانحنت بإخلاص، ثم عادت فجلست.

”من منظور وطني، فإن الإمكانيات وافرة“. ازداد صوت الكوبتا حماسة بينما واصل ”ارتفاع ثقة الشعب بالبلاط، واستعادة الجنرالات العظام المُقلدين بالأوسمة، وتطعيم شباب ورجال الطبقات الدنيا برؤوس ذوي الألقاب! ستكون هذه خطوة تجاه خلق المساواة، الهدف الذي مجّده أكثر العقول بصيرة بقرننا، قرن التنوير“.

أراد الكونت تنميق خطابه بالمزيد من الأمثلة، لكن الإمبراطورة قاطعته بنفاد صبر. من المحتمل أنه قد خطرت لها نفس الأفكار التي خطرت لفايتروت إثر حديث الكونت، وهي: يا إلهي، ماذا لو كان زوج كاثرين الأحمق بطرس الثالث كان قد بدّل رأسه الأسطواني المُثير للشفقة بأخر أكثر ذكاءً؟ على الأرجح، لكانت كاثرين هي من أُعدمت بدلاً منه، وكان استمر على قيد الحياة، مُتربّعاً على العرش وإلى جانبه ليزا فورونتسوفاً زوجته.

”تحدث المُعجزات في بلدنا، دون علمنا! ربما لديك خبر يا جريجوري ألكسندروفيتش؟“.

”هذا جديد عليّ، جديد تمامًا!“.

وأخيراً، دفع شيء ما الإمبراطورة للانتباه إلى يلاجين.

”وأنت، كونت يلاجين، هل لديك علم بخصوص ذلك؟ إنك تهتم بتطوير المجتمع مثل حديقة ورودك، ولن يكون مفاجئاً إن قررت رأس من سوف تذهب لمن؟“.

لهث الكونت يلاجين بصوت عالٍ مثل قاطع أخشاب مُرهق يدفع
منشاره جيئةً وذهاباً. ثم قفز من مقعده ويده الممتلئة على قلبه.

عندئذ، صاح الكونت كالويسترو ”على أي حال“، مُقاطعاً يلاجين
مثل مسجون طائش، وشخص متبجح عديم الذوق. ثم تَنَحَّح بصوت
عال، وواصل كلامه رغم كل شيء.

”...جلالتك، إنني هنا لتولي هذه المسألة. نعم، قد أبقيناها سرّاً،
فجلالتك تعلم كم تنتشر الشائعات بسرعة، وكم هي مُدمرة نتائجها.
والآن، فإن لدينا من هو صاحب خبرة سابقة بالمسألة“.

رفعت الإمبراطورة يدها كضربة برق. حتى إن الكوبتا العظيم جَمَدَ
فجأةً بفعل تلك الإيماءة الصارمة.

”ونحن نريد معرفة مَنْ ذلك الخبير!“.

”إنه ليس غريباً عن سان بطرسبرج“. بدت إجابات الكوبتا الباردة
مُهينة بعض الشيء. لكنه لم يكن يُريد أن ينفعل أمام الإمبراطورة. فهو
أكثر تفتحاً من ذلك، ولا تعني له تلك التفاهات شيئاً. ”إنني أقصد جراح
فوج الدوق الأكبر قسطنطين، أي المُصطفى جبران“.

”لم يسبق لجلالتنا مُطلقاً رؤيته هنا!“.

”نعم...جلالتك! لأن الفوج متَّجه صوب البحر الأسود“.

”المزيد من الأخبار الجديدة!“ صفقت الإمبراطورة يديها، ورفعت
حاجبيها في اندهاش مُفرط بعض الشيء. ”جريجوري ألكسندروفيتش،
لم نعطِ الأوامر بحشد القُوات، أليس كذلك؟“.

”بلى، صحيح يا ماتوشكا. لم يصدر الأمر. لكن مثلما يبيت المرء في عُليّة الحظيرة، وتكون الفتيات في الجوار، فإن نكوصه عن الوصية يبتعد عن أن يكون خطيئة“.

”إنك لست في حظيرة! يا أمير بوتيمكين!“.

”آسف يا ماتوشكا، لقد سرحت بخيالي..“.

” لم نر ذلك بأعيننا بعد..“. ترددت الإمبراطورة. ”هذا...النوع من المصير: رأس جديد“.

”ليس الرأس فحسب. وإنما رأس شخص، والنصف السفلي لشخص آخر“.

”هذا ليس مهمًا طالما أننا لم نر هذا الشخص بعد“.

”بالضبط...جلالتك“. لم يتردد الكونت كاليوسترو، بل تحدث بثقة، وبنبرة أقرب لكونه من يُدير المُحادثة لا الإمبراطورة. ”لقد عاد الجسد المُكوّن حديثًا للخدمة بفوج الفرسان المُدرعين. وعلى الأرجح، فإنه مُتمركز حيث يُوجد الجراح جبران، قرب تُوريدا. وبأمر من جلالتك، سيعودون لسان بطرسبرج خلال أسابيع. إن اكتشافات فيثاغورس ونيوتن ستبدو ضئيلة مقارنة بجبران“.

لم يترك ذلك ولو شبه ابتسامة على وجه الإمبراطورة. إذ كانت شفاتها مضمومتين بإحكام كعازف ينفخ نايّه.

”إننا نتفهّم حماسك. لكننا ننصحك باستيعاب حجم مسؤوليتنا. فقبل تخطي فيثاغورس ونيوتن، يتطلب الصولجان والتاج وضع كل

شيء في الحسابان“.

وبمجرد أن قيل ذلك، رقصت ملامح الإمبراطورة بمشاعر الانفراج.

”... والآن، رأيت كم أن الأمير شره لأن يصبح بوتيمكين أوف توريدا.

وفي حال شنَّ حربًا في القرم، فإنه سوف يحتاج للجنود والجراحين“.

”وأنا رهن إشارتك يا جلالة الملكة... لقد حُزتِ على إعجاب أوروبا بأن

دَعوتِ مسيو ديدرو إلى روسيا. وربما تودين حصد المزيد من الإعجاب

عبر السماح لمسيو جبران بالسفر من روسيا إلى فرنسا؟“.

هنا، اشتعلت حرب صغيرة بين الإمبراطورة والكوبتا العظيم.

حيث كان كلاهما مُغتاضين لدرجة الارتعاد. وساد صمت طويل أرجاء

الصالون. ثم سمعت الإمبراطورة صرخة قصيرة، أدارت رأسها، فرأت

البارونة ثون بريغن، الشاحبة بشكل غير طبيعي، وهي تسقط من

فوق الكرسي المذهب. ليندفع كاليوسترو نحوها، ويضمها بين ذارعيه.

برشاقة مدهشة، وكأن ثون بريغن لا تزن شيئاً. في حين بدت البارونة

أصغر فأصغر بين ذراعي الكونت، حتى بدت أخيراً مثل طفلة صغيرة

سقطت نائمة على حجر والدها.

غادر الكوبتا العظيم الصالون. فأذعنت حاشيته وغادرت وراءه.

وحده السيد الأكبر يلاجين، من تردد في الخروج. فأدار رأسه، ثم جلس،

وأخيراً، لهث ماسحاً عرق جبهته، ثم قام وراء الآخرين، لكن مُتبعاً

إتيكيت البلاط: حيث خطا بظهره إلى الباب.

اقتشعت الإمبراطورة كما لو أصابها الدُّوار.

”ماذا حدث للتو يا جريجوري ألكسندروفيتش؟“.

”ماذا حدث؟ لا شيء، كل شيء بخير يا ماتوشكا... لقد قُلت... قُلتِ إن الزيارة قد انتهت“.

”غريب حقًا... بل إننا شهدنا شيئًا آخر... ولم يُعجبنا... فلتستدعِ جوزوبوف“.

دخل كبير المستشارين إلى الغرفة، وهو هرقل حقيقي في أناقته بنت القرن الثامن عشر بامتياز. وعمومًا، فقد مثل الرجال داكنو البشرة -تمامًا مثل جوزوبوف- نقطة ضعف كاثرين الثانية.
”أمرٌ جلالتك“.

”راقب كل خطوة يخطوها كاليوسترو! وراقب تلك الحاشية برمتها! سوف نتحدث عن يلاجين في وقت لاحق“.
”مفهوم!“.

وكان لجوزوبوف مشية غريبة، إذ مشى بذقنه مرفوعًا في الهواء، كأنه يتشمم شيئًا هو الوحيد الذي يُدركه.

(15)

لم تُستدعَ يوهانا للتحقيق مُطلقاً عقب ذلك. وقد بدا أن التفسير الوحيد لذلك، هو التطور المُتسارع للأحداث، حيث زاد أعداء النظام الجديد باطراد. تُعلمنا الحياة أن الأحداث ليست منطقية بالضرورة. فقد تحطم طائرة، فيموت 99 من ركابها المئة وينجو واحد، أو يمتد حريقُ غابةٍ نحو منزل أحدهم، وقبل أمتارٍ قليلة من مُلامسة دوامات اللهب للسطح، تُغيّر الرياح اتجاهها حارفةً النيران في الاتجاه المُعاكس. لماذا يحدث ذلك؟ تُصنّف هذه الأشياء تحت عنوان عريض واحد هو الحظ.

الدار أيضاً، أنقذته ضربة حظ. إذ كان مُسجلاً في وثائق الملكية القديمة للغاية، بصفة حوزة قروية؛ في حين لم تُطبّق مُصادرة الملكية على الحوزات القروية. أما تجارة النقل الخاصة بجدي فقد أُمتت، لكن دون تغييرات جوهرية. وإنما شكّلت نقابة محلية تضم الحوذيين وحمّالي النعوش. وفي حين صار جدي مُديراً تنفيذياً لا مالكا، استمرت البارونة في العمل لديه كمُحاسبة وأمينة صندوق. كما أصدرت المُفوضية الشعبية أمراً بنقل الخيل إلى محطة تأجير الخيل والسيارات، المنشأة حديثاً، والفريدة من نوعها بقطر عشرين كيلومتراً. بينما لم يتوقف الناس عن الإنجاب، والزواج، وتعميد أطفالهم، والموت. فلم يَعدوا الحاجة إلى النعوش، مثلما ظل حديثو الزواج بحاجة إلى نزهة بالعربة.

انشغلت رفقة يانيس بالتغييرات الطارئة على المدرسة. فالمعلمون قد استبدلوا، وكذلك المناهج. وطفحت علينا الكلمات الجديدة فأغرقتنا: الانتصار الكبير للطبقة العاملة، وسلطة البرجوازية المهلهلة، وشمس دستور ستالين. تَفَجَّرت عريضة لغوية في دَفق هائج. وفقط بين الحين والآخر، وسط الأمواج العنيفة، عندها يصبح الوجه المُرتعب والشاحب لأحد الغرقى مرثياً. إذ يُعتقل أب أو جد أحد التلاميذ ليلاً، أو يَسْتَقْبَل إخطاراً بالمثل للتحقيق. وقد اختفى آباء الآخرين ببساطة، دون أي وسيلة لاكتشاف ما حدث لهم.

انتهت صفوف يانيس في الرابع عشر من يونيو. أما من استعدوا منّا لارتداء القبعة الذهبية المُقلَّمة في الخريف، كعلامة على انتقالهم للمرحلة الثانوية، فقد استمرت صفوفهم. كان ذلك نهراً مشمساً ودافئاً، وقد سارت عربات الترام البلجيكي القديم، كأنها قد صُنعت خصيصاً للسير خلال الطقس الجيد. وبعد أن عبر الترام البقعة الرملية بميدان أوزفارا وانعطف عند محطة تورنياكلنس باتجاه الجسر العائم، سار بجانب سيارة ذات حُمولة غريبة، فوسط عدد كبير من الطُرد، جلس رجل في معطف شتوي، وامرأة في معطف رمادي من فرو الأرنب وعلى حجرها طفلة بملابس مُبالغ فيها أيضاً بالنسبة للصيف. في حين جلس جندي من الجيش الأحمر بركن السيارة الأخرى، قابضاً على بندقيته ذات السكين بين ركبتيه. وقد لفت المشهد انتباهنا، بداعي الدهشة لا الفزع، لأن الجو - كما ذكرت - كان جميلاً واليوم الدراسي قد انتهى، ولأنني كنت مثل غالبية أبناء وطني، عاجزاً عن إدراك المأساة التي كانت تجري أحداثها بلاتفيا في ذلك الزمان. ولأن نشأتني وتصوراتي عن القوانين التي تحكم العالم، لم تكن لتدفعني إلى التفكير بأن شيئاً مُفزعاً، وغير إنساني، وغير عادل بالمرّة مثل هذا، قد يحدث في وضح النهار.

في المدرسة، كان المعلمون يتصرفون بغرابة. كما أن نحو ثلث زملائنا لم يحضروا إلى صفوفهم، ولم نكن مُتأكدين في ذلك اليوم من أن الدراسة سوف تستمر.

لكن، بعد عدة أيام، تلقت أفكارتي التي عفا عليها الزمن؛ ضربةً قاضية. فقد ذهبت رفقة يانيس لزيارة أحد الأصدقاء بجزيرة ليف المرتبطة بشارع موسكو عبر حاجز كريدينرا الصناعي، والواقعة بين ضفتي نهر دوجافا، حيث وقع أرخبيل من الجزر ذات الأسماء الرومانسية من قبيل: الحُلبَة، الطيور، عصفور الدُورِي، الرجل الهادي، القصر، الراهب، وخبز الزان.

كشفنا أجسادنا البيضاء بلون الربيع للشمس، مُسترخين على الشاطئ، وتفتتح آفاق دفيئا وريجا أمامنا، في حين تبدو أقواس الجسور واطئة على المدى البعيد. وقد تمايلت قوارب التجديف والقوارب الشراعية على طول النهر، وسحبت البواخر الصغيرة العواماتِ وزوارقَ الحمل، فيما كان الصيادون بقواربهم ذات المُحرك. والشمس تُضيء بحرص عروق الأخشاب المُكدسة على طول ضفتي النهر، ويتنأهى إلينا أنين المناشير، ورائحة نشارة الخشب فوق سطح المياه الهادئة.

بحلول المساء، ظهرت الطائرات فوق الضفة اليسرى للنهر، قادمة من ناحية كورلاند. ومُحلقةً باتجاه البحر، في سرب مُثلث الشكل، وكأنها جزء من عرض جوي. عندئذ، بدأت المدافع المضادة للطائرات بإطلاق النار، فارتفعت سُحب بيضاء حول السرب، وأدركنا أن الأمور ليست على ما يُرام. لم تصلنا أصوات الانفجارات، لكننا رأينا عمود دخان يشق السماء في ما وراء الجُسور، ويقطع بشكل دائري سماء

يونيُو المُشمسة. إن خزانات الوقود وحدها التي يُمكن أن تحترق بهذه الشدة وهذه القتامة. لقد بدأت الحرب.

كان الطريق إلى المطار مُعبأ بالدخان. وقد رأينا حفراً مُحترقة، وشظايا زجاج، وأسلاكاً ممزقة، وفروع أشجار مُحطمة. أما القتلى والجرحى فقد تم نقلهم بالفعل. وعند سور المطعم الصغير المقابل للمحطة النهائية للترام، تحوّلت امرأة إلى بقعة من الدماء. كان مُحتملاً أن يكون أي منّا محلها: أنا، أو يانيس، جدي أو البارونة.

وبالنسبة لي، كان أي اعتداء على الحياة البشرية جريمة تستحق العقاب، لكنني الآن شهدت كيف أن الحياة البشرية كانت مُجرد نرد. وأن استقرار النرد على الحياة أو الموت، كان مُقررًا دومًا بواسطة التصادف الخفي لأرقام النرد حتى قبل أن تدحرج. ترفض عقولنا استيعاب ذلك، كما ترفض غريزتنا للبقاء التسليم به. وفي المُحصلة، فإن ذواتنا الحرة تصير بلا معنى.

أُصيبت الدار جزئيًّا جراء القصف العشوائي. فتمددت شجرة الزيزفون بسنوات عمرها المئتين في الفناء، كما لو أنها سقطت بفعل فأس؛ فيما حوّلت الشظايا المَشْتل الواقع وراء الإسطبل إلى أنقاض.

تفاعل جدي مع اشتعال الحرب بهدوء لا يتزعزع، مُرددًا أبيات مونتيني: "لا يُمكنك الفرار، لا من الحياة، ولا من الموت. لذا فقد جاريت كليهما، بحلوهما ومرهما". لقد كان على قناعة بأن الغارات الجوية ستتواصل، لذا، بحث في المتنزه عن ملجأ آمن. وفي النهاية، قررنا أن قبو الدار

البارد سيصلح كفاية؛ حيث غطت أرضيته طبقة سميكة من التراب، واستند سقفه المُقوّس بثبات فوق أعمدة حجرية. لكن البارونة رأت، في مقبرة أسلافها ملجأً أكثر أماناً. حتى إنها اقترحت إحضار بعض الكراسي، وطاولة صغيرة، وأرجوحة شبكية معنا هناك.

تلاحقت الغارات واحدة تلو أخرى، كان معظمها مساءً. وبينما كانت صفارات الإنذارات المُنتحبة تُطلق لحنها الجنائزي، وتتساقط القنابل. ظل جسدي يهتز من الرعدة، بينما أفض من سريري، مُرتدياً ملابس في عجالة، هَرَعاً إلى القبو. وقد أقنعت نفسي بأن ذلك لم يكن سوى نسيم الليل البارد، لكنه لم يكن غير البرد المُتسرب من السماء في صورة أصابع عَظمية بيضاء من أضواء الكشافات النابضة في الظلام.

استبدلت النهارات المُشمسة بأخرى قاتمة ومَظيرة. ومثل قلعة سامقة، انتصب مصنع النسيج فوق مُحيطنا. نافثاً دخانه، قامت أعمدته الممسوخة وجدرانه المُحترقة كصرح كئيب. أما المطار فلم يحمل علامة حياة واحدة. وسار الترام عدة أيام قليلة، ثم اختفى دفعة واحدة. وقد سمعنا أن الجسر العائم قد أُغلق أمام حركة المرور المحلية، وأن مجموعات صغيرة من المشاة، ترافقها سيارات مُدرعة، هي فقط من كان مسموحاً لها بالعبور.

جلست البارونة جلستها المعتادة بجوار الهاتف، يُغطي كتفها وشاح اسكتلندي. ومُشعلة سيجارة وراء أخرى، بينما تعذبها قلة الزبائن. في حين لعب الحوذيون وحاملو النعوش الورق في سقيفة العربات. ثم أمرهم جدي بتجهيز عربة جنازية، لأنه زاهب في نُزهة استطلاعية. وعندما عاد، أخبرنا بأن الخنادق حُفرت على طول مجرى الدوجافا. وقد ارتكز رجال مُرهقون، ووسخون، وهزيلون بوجوه واطئة مُسودة في مواقعهم. فبدأ أنهم لم يستوعبوا أين كانوا، ولا سبب وجودهم هنالك.

لقد أفرغوا مَثائِنَهُم وأمعاءهم هنالك في الخنادق، إما بسبب الأوامر بالتزام مواقعهم، أو بداعي اليأس المطلق والكامل. صممت الصفارات في الليلة الأخيرة من يونيو؛ وأوقفت المدافع المُضادة للطائرات نيرانها. ثم حلقت الطائرات الألمانية بانخفاض شديد، فكان بمقدورك رؤية الصُّلبان البيضاء فوق أجنحتها السوداء. وبين الحين والآخر، رَعَدَ الهواء رعدة طويلة وخافتة: إذ كان يتم تفجير شيء ما في مكان ما.

وفي الصباح، حضر الحوذي الذي يسكن جادة جورمالا راكبًا دراجته، ليخبرنا بأن منطقة باردوجافا الآن تحت السيطرة الألمانية. عندئذ، ذهب جدي إلى كومة من الحطب، واستخرج منها الراديو الذي خبأه هنالك. فاستطعنا التقاط الكلمات الأخيرة من النشيد الوطني: "...لنعش هناك سعداء، في بلدنا لاتفيا!".

"إنه كورال رايتز" قال جدي، "سته مُغنين... كم هو صافٍ صوتهم!".

تبددت السُّحب الرمادية القاتمة مثل كوابيس الليل الثقيلة. فهبت الرياح وسطعت الشمس وسط السماء الصيفية المُبهجة. وبحلول ظهر

اليوم التالي، صعدتُ رفقة يانيس إلى أحد القوارب بمرسى زوندا، وأبحرنا عبر دوجافا صوب ريجا. فكان كل جسر مُحطماً في بعض أجزائه. والمدينة نفسها، وخصوصاً وسطها، إذ تم قصفه بعنف. وذلك بينما رفرفت الأعلام الحمراء، والحمراء-البيضاء فوق صواريخها الجديدة، على كلا جانبي نُصب الحرية. وتراكتم الزهور على قاعدته، كما ظل حرس الشرف في مكانه. واجتمع الناس سويّاً، فضحكوا، وتباكوا، واحتضنوا أحدهم الآخر. حتى إن شعوراً غريباً بالبهجة قد غمرني، ربما بفعل مَنْ حولي، أو لشعوري بأن كل شيء كنت أسمعه أو أراه كان عبارة عن إلهام ضخم، وكما لو أنها المرة الأولى التي أرى فيها نُصب الحرية، والأعلام الحمراء، والحمراء-البيضاء، والناس والزهور. لكن حتى الأشياء المألوفة، بدت الآن في هيئة جديدة، لأن الأشياء لم تعد هي نفسها من الآن فصاعداً. فحتى ريجا التي كنت أرى، وأسمع، وأتكلّم فيها، كانت ريجا غير مألوفة بالنسبة لي، ومُختلفة كلياً. حتى إنني وعيت بذاتي كشيء جديد ومُختلف كلياً.

كان يانيس مفتوناً بالتكنولوجيا الألمانية: المدافع الدوّارة المُضادة للطائرات، والرشاشات المُلحقة بالدراجات النارية. ثم تساءل إذا كانت الحرب قد انتهت. فأجبتّه بلا، بالرغم من أن ما رأيناه لم يكن بالضرورة مؤشراً على الحرب. إذ كان الجنرالات الألمان المهيبون، المُقلدون بالأوسمة، الذين تُزين أصابعهم الخواتم، وأيديهم القفازات من جلد الأيل، يتجولون في الشوارع والمتنزّهات دون قلق. وبين الحين والآخر، كنا نُصادف جنرالاً لاتفيّاً أو أحد مُعلمينا وهو يمرّ بالجوار، حيث كانت النُخبة المحلية لا تزال تأتي في الغالب من تجارة الخشب في ريجا، ناهيك عن النساء الأنيقات. ووسط الأنقاض، العابقة بروائح النار والدخان، جلس الفنانون الألمان في لباسهم العسكري، يرسمون بألوان

الزيت والماء، ويشحذون أقلام الباستل خاصتهم. فبدا هذا الحشد من الأوروبيين المرنين والمُنفتحين، في تناقض صارخ مع الحشود الشعثاء والريثة التي غادرت ريجا.

عند دخول المقهى، كان الجنرال الألماني من هؤلاء، يلقي قبعته وجراب مسدسه الثقيل والمُوثق إلى مُضيف الاستقبال بأبهة لا مبالية. تفوح منه رائحة السجائر باهظة الثمن. كما انتشرت تشكيلات الجنود المُصفرين بمرح. لكن في وضح النهار البراق، كان بمقدور العين التقاط بعض الظلال، التي تُذكر بظلام الأمس -على الرغم من أنها قد لا تستحق الانتباه لها- فقد ساق رجال مسلحون بعضاً من الناس عبر الشارع، يا عالمٍ إلى أين! فيما انكمش سجناء الحرب خلف سياج من الأسلاك الشائكة المُقامة على عجلة مُتسخين ومُتعبين؛ ربما كانوا هم، نفس الرجال الذين رأهم جدي من قبل في الخنادق.

في مساء اليوم الثالث لتوليهم السلطة، اختطف الألمان البارونة. ولأنني قضيت اليوم بطوله مع يانيس في الطواف بالمدينة، فقد نمنا بعمق حتى إننا لم نسمع شيئاً. وفي الصباح، لم نفهم لِمَ كان جدي جالساً بمفرده على طاولة المطبخ في ملابسه الداخلية، وعباءته الباليرينية فوق كتفيه، ولِمَ اذ كان القنديل مُضاءً أمامه في ضوء النهار. "هذه الفوضى برمتها خطئي" تكلم جدي بصوت خافت ومختنق، واضعاً رأسه بين كفيه. "لماذا لم أستشرف ذلك؟ لماذا لم أفكر في ذلك؟".

كان حديثه منمقاً ومُشردماً.

”الجستابو، في أكثر المظاهر ابتداءً... سترات جلدية، وكابات سوداء... أياديهم في جيوبهم... مُتحدثين بلهجة ألمانية بلطيقية وألمانية شفاينية..” سيدي، دعنا نقوم بذلك دون شوشرة؛ أين اليهودية؟“ ولم أعلم بداية من يقصدون، فسألت: ”أي يهودية؟“. فأجابوا ”تلك التي تدّعي أنها ألمانية، وترغب في تهريب نفسها عائدةً لألمانيا العظمى..“. وكان بيد أحدهم ورقة، حيث أمكنني رؤية نسخة من الخطاب الذي أرسلته يوهانا من قبل إلى برلين ”لا تخبرنا بأن السيدة هوليندر خرجت في عطلة نهاية الأسبوع.““.

”ماذا يعني ذلك؟ وما الذي سيحدث؟“ تلعثمنا بالأسئلة. التي ربما كانت تشغل جدي طوال الليل. ولأنه كان يزداد حدة حين يعجز عن التصرف أو يضطر للتسليم بقلّة حيلته، فإنه وحتى في ذلك الحين، قد نظر لي بشبه ازدراء، ثم قال ”ما الذي سيحدث. يجب أن نُخرجها! وإلا فلسنا غير قطع من الخراف!“.

”لكن، هل الخروف سيئ بالضرورة؟“ لم يستوعب يانيس عبارة جدي. ”فقد يكون الخروف ذا قرون، مثل الكبش، فهو عنيد، ومُقتص، ويفضّل المواجهة..“. سعل جدي، وفكر ملياً للحظة، ثم وقف وأطفاً القنديل.

”أنت مُحق! هذه المرة علينا أن نكون كباشاً. كباشاً حقيقية!“.

لقد بدا كئيبيًا، أمّا الغموض أسفل حاجبه المعقود، فقد تبدّل فجأة. كضوء القمر المنعكس فوق بحيرة مُتجمدة. أو نور النهار المنكسر عبر غيوم الشتاء الرمادية.

بَرَم جدي حول نفسه، وأجرى بعض الاتصالات، وقابل هنري

سكانغلز، وحزم بعض الأمتعة، وكتب بعض الرسائل، لكنه لم يقدر على اقتفاء أثر يوهانا. لم أستطع التخلص من يقيني بأنه تمامًا مثلما اختفت البارونة على حين غفلة، فإنها ستُعاود الظهور على حين غفلة. وستجلس في غرفتها أو على طاولة مكتبها. فداخل عقلي، لم تكن هذه المصطلحات من قبيل: سجن، جريمة، عقاب؛ تمت لها بصلة. وحتى لو كانت بالسجن، لم يعن ذلك سوى أن سوء الفهم ذاك في طريقه للحل آجلاً أم عاجلاً.

لقد سمعنا الكثير من القصص عن السجون. إذ لم يكن لدى الصحف والمجلات شاغل آخر غيرها، مُسلطة الضوء على الفظائع التي ارتكبتها السلطة السوفيتية المهزومة حالياً. حيث حُفرت المقابر الجماعية في أفنية السجون، لدفن من قُتلوا خلال العام الماضي. أثارت صور الأكوام البشرية العارية الغضب، واحتوت كل صورة تقريباً على وجه أحد المعروفين ممن ظهرُوا بالصحف والمجلات في السابق. وزراء مرموقون، وجنرالات، وفُرسان، وفلسطينيون⁽¹²⁾ مُحذقون بعيون فارغة، وأفواه بلا شفاة، بينما ثقوب الرصاص السوداء في جباههم. أيديهم المُتخللة بالفعل كانت مُقيدة بالأسلاك الشائكة، وأصابعهم منزوعة الأظافر.

لقد سمعنا بمثل هذا التعذيب في محاكم تفتيش العصور الوسطى، فلا نزال نقشعر لها بعد مرور قرون، لكنها صارت الآن تخمينات في أفضل الأحوال، أو شائعات، أو نممة. فقد عملت مؤسسات التطهير الطبقي مُتخفية عن غالبية المجتمع، تقريباً، مثل مجاري الصرف،

12- الفلسطي (philiistine) هو مصطلح ازدرائي لوصف الشخص المُناهض للفكر، والذي لديه وجهة نظر مادية ووسطحية غير مُبالية بجماليات الفن والثقافة. (المترجم، المصدر: ويكيبيديا)

والتي يصعب تصوّر وجودها أسفل الأسطح الناعمة للجادات والشوارع. والآن، نُزعت أغطية المجاري، وصارت مكشوفة، وما رأيناه كان خاطفًا للأنفاس.

مُكتئبًا وأشعث؛ توقف جدي عن إحضار الصحف للمنزل. فكنا أنا ويانيس، نذهب إلى الكشك بأنفسنا. وكانت كل صفحة تكشف عن شيء جديد وغير معقول بالمرّة. حيث قوائم المُبعدين، ورسائل الوداع المُلقاة من القطارات، وشهادات الشهود. فبين عشية وضحاها، سيق خمسة عشر ألف رجل وامرأة وطفل إلى ستين من عربات الماشية، بغرض إجلائهم عن لاتفيا إلى سيبيريا. كما كان ستة آلاف، قيد الاعتقال، ومنهم من أُعدم، أو أرسل لسجن في الخارج.

كان بإمكان أي شخص الذهاب إلى أقبية التعذيب تلك، كي يرى بنفسه معدات الصعق الكهربائي، والسنانير المُدلاة من السقوف، ومزاريب تصريف الدم المحفورة في الأرضيات الإسمنتية لغرف الإعدام.

”جدي. ماذا تستنتج من كل ذلك؟“.

”لا شيء لاستنتاجه. فقد خرجنا من زوج مخالب أحدهم فقط حتى نقع بيد آخر. لقد عرفنا حتى الآن مختلًا واحدًا، ليساعدنا الرب في النجاة من الآخر.“.

كانت تنبؤات جدي كاشفة. ففي خلال أسابيع، تداعت الآمال بإعادة استقلال لاتفيا، حيث تحدث الألمان عن ضمها رفقة ليتوانيا وإستونيا وبيلاروسيا إلى المنطقة الغربية. في حين عُثر على الكولونيل ديجلاف، الذي كان الأشد إصرارًا على استعادة الجيش اللاتفّي، صريعًا برصاصة في الرقبة داخل شقته.

أما رجال الميليشيا السابقين، وموظفو المنظمات الشيوعية، ومُدبرو المدارس، وكل من ردد الأغاني الثورية، أو حمل العلم الأحمر، فقد تم اضطهاده، دون معرفة مصيره. هكذا، في غمضة عين، صارت السجون مُكتظة مُجدداً.

بالطبع، وجه الجميع اللوم إلى اليهود. وبطريقة ما، كان طيف العدوى قد نال من يوهانا، ومِنَا على إثرها. ولم تَنطق الصحف بكلمة عما فعل الألمان عقب استيلائهم على ريجا، من تسوية كنائس اليهود بالأرض والناس بداخلها. ورغم ذلك، لم يكن مُمكنًا إخفاء هذا النوع من الأمور. خلا وجه يانيس من التعابير، بينما نفخ جدي وأصابه اليأس.

”لك أن تتخيل، أنه لا أحد في ريجا، قاتل دفاعاً عن الأمة اللاتفية سوى السكارى خارج الحانات! تخيل كيف كان بلومانييس⁽¹³⁾ لروحه السلام— ليشعر حيال ذلك؟ وهو الذي زوّج سارة اليهودية لجوسكيس على المسرح، جنباً إلى جنب مع إلينا وألكسيس، في مسرحية أيام الخيَاط في سيلماوس“.

طُفح الراديو — كما لو كان في جدال مع جدي— بتيار من الاتهامات [ضد اليهود]:

‘من الذي سمح للشيوعية بإفساد العالم؟ ومن هو كارل ماركس، وليبا تروتسكي، وروزا لوكسمبورج، أو ميريام والدة لينين؟ ومن الذي استقبل المحتلين بالورود الحمراء؟ ومن ساعد الروس في ليالي الترحيل الجماعي، مُرشداً إياهم خلال الشوارع الغريبة عليهم؟ ربما كان سيمون

13. أديب ومسرحي لاتفي معروف.

شوستين، الذي وقَّع على مئات أحكام الإعدام بمبنى التشيكا؟⁽¹⁴⁾ كان جميع الشيو عيين قد فروا أو اعتقلوا، في حين مشى اليهود بالجوار دون عقاب، مُتاعين أفضل المنتجات، ومُدبرين مؤامرات جديدة. لذا، ومن أجل إقرار النظام في العالم، فلا بدَّ من اجتثاث الشر من جذوره...’.

بدايةً، أمر مكتب القومندان اليهود بتسجيل بياناتهم. وبعدها مُنعوا من ركوب المواصلات العامة أو دخول المتاجر. ولاحقًا، صدر الأمر بأن يسيروا بالطرقات فقط ومنعهم من السير فوق الأرصفة، كما وجب عليهم ارتداء نجمة داود صفراء بحجم كف اليد فوق ملابسهم. وبمنتصف أكتوبر، كان على يهود ريجا الالتحاق بالجيتو الواقع في حي فورتستات موسكو، والمُحاط بسياح مرتفع من الأسلاك الشائكة.

تحوّلت النقاشات بشأن تلك الأمور، إلى طقس يومي لاستذكار يوهانا. فلم نَتَلُ الصلوات على الطعام؛ ولكن كان أحدنا يتكلم: أتساءل كيف هي يوهانا الآن؟

وفي وقت متأخر ذات ليلة، دخلت امرأة عجوز-تعمل مُدرسةً على الأرجح- بدراجتها إلى فناء القصر، وأعطت يانيس قصاصة من ورق الجرائد، عليها كتابة بخط البارونة، تُخبرنا فيها بأنه تم نقلها من السجن إلى ”الجيتو“. وعندما تمكّن يانيس المذعور من إيجاد جدي، كانت المرأة العجوز قد اختفت، فلم نعرف أكثر من ذلك.

وبّخ جدي يانيس بصوت أجش على هذا الخطأ، لكنه لم يستطع مُدارة بهجته. فقرأ الملحوظة مرارًا وتكرارًا، وأعطاهَا لنا لنرى، ثم

14 - CHEKA: اختصار هيئة الطوارئ الروسية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب، والتي مثّلت جهاز الأمن الداخلي الروسي منذ إنشائها في 1917 قبل أن تُحل في 1922، وتعقبها المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية عهد جوزيف ستالين، والتي جمعت بين أنشطتي الشرطة والشرطة السرية.

أخذها منا كي يقرأها مُجددًا.

”من الجيد أن تتصف ببعض الوضوح! ونفاز البصيرة!“.

في الصباح التالي، أعلن جدي على طاولة الإفطار، أنه سيحاول عمل شيء لمساعدة البارونة.

”كيف يُمكن أن نساعد؟“ رمقني يانيس بنظرة فرحة، على استعداد لأي شيء.

”بالجلوس في البيت. فعلى من الرغم من وصف الفوهرر لليابانيين بأنهم آريو آسيا، فإن الألمان مُتزمون عقليًا حيال أي بشرة أعمق منهم.“.

”طيب، وأنا؟“ سرت سخونة غير مريحة بخدي. وكان كل ما يمس اختلافًا جسديًا بيني وبين يانيس، يخلق داخلي شعورًا من المقاومة أشبه حتى بالخلج.

”سوف تأتي بصحبتني كدليل مادي. فأنت مثال على آري أصيل.“.

فهمت أن شعري الأشقر كان دليلًا على الأصالة. حتى إنهم كانوا يدعونني خلال سنواتي الأولى بالمدرسة ”زبدة“.

أمر جدي بإخراج العربة ذات الحصانين، والتي سُميت لسبب ما : السُفْرَجِيّ المتنقل. ورغم أن الجو كان باردًا، فقد حمل جدي عباءة الباليرينية على ذراعه. وقد ارتدى معطف الفراك ذا الحواف المُستديرة، وسروالًا مقلّمًا، وشاحًا أسود أسفل ياقة قميصه المُنشّى. بينما استقرت قبعته الحريرية العالية فوق رأسه بزاوية أنيقة.

للأسف، لم أعد أتذكر اسم الجهة التي ذهبنا إليها. فأسماء المؤسسات

الألمانية كانت طويلة ومُعقدة. لكنها وقعت بوسط مدينة ريجا، في مبنى وزاري قديم أنشئ خلال السنوات الأخيرة للاستقلال. وكان جدي مُتيقناً من أنه لا تُوجد سلطة مدنية أعلى من هذه الجهة في لاتفيا كلها. طلب الجنتلمان جدي "لمناقشة مسألة قد تهم غورينغ مارشال الرايخ شخصياً" مُقابلة المدعو دريسلر، دروسلر أو بين هذا وذاك.

حَرَسَ البوابات الرئيسية رجال مسلحون بالمدافع الرشاشة. وقد سمحوا للنبيلين النازلين من عربتيهما والذاكرين المارشال غورينغ بالمرور في يُسر لافت. لكن، ازداد الأمر صعوبة في الطابق التالي، فاختلف الطاقم، كما غرقت أقدامنا في السجاد المُتَرَف بصمت، وملاً شذا الأرضية الخشبية والأثاث الجلدي الفراغ من حولنا. وأمكنا سماع مهمة أشخاص خلف الأبواب الطويلة من خشب البلوط، بالتزامن مع النقرات المُنتظمة على الآلات الكاتبة.

استغرق الموظفون في زيهم الدرّاج الذهبي وشارات الحزب الخاصة بهم؛ وقتاً في استيعاب طلب الموثوقية الخاص بجدي. فدَرسوا كلينا بحرص شديد، وتناقشوا في ما بينهم، هازين أكتافهم وفاركين رؤوسهم. في حين وقف جدي مُستقيماً، مشدود الصدر، ومشفوط المعدة. وقبعته مُتزنة بأناقة فوق كُوعه المثنى.

وفي النهاية، خرجت إحدى الموظفات، ثم عادت وطلبت أن نرافقها إلى الطابق التالي. حيث ساد الهدوء والسلام، وكأنه يخلو من أي روح حيّة. وسرعان ما ولجنا إلى غرفة كبيرة مُزينة بسجاد شرقي، ولوحات على الحائط، بالإضافة لتمثال رخامي فوق منصة من الطراز الإمبراطوري. ومن ثم، تسلل من الغرفة المُتاخمة بهدوء مثل فأر، مخلوقة رمادية صغيرة، أفضل ما قد تُوصف به أنها راهبة في زي رسمي. بالتأكيد،

كانت ترتدي نظارات، وحذاء ذا كعب صغير، وقد تبادلت بعض الكلمات المسموعة بالكاد مع مُرافقتنا، ثم اختفت عبر باب مخفي بواسطة ستارة ثقيلة. ثم عادت بعد فترة من نفس الباب، وأومأت لنا بالقدوم عبره.

كان أدولف هتلر هو أول ما يلفت النظر على امتداد الغرفة الفسيحة. فبالإمكان استيعاب إشارة ذراعه الممدودة كعلامة على التحية، أو كتوجيه بالصمت أو التحذير: اثبت مكانك! مكانك! والذي يعني البقاء بعيداً عن المكتب الواقع أسفل اللوحة، وعن الرجل الجالس أمامه، والذي كان يرتدي معطفًا كمعطف الفوهرر، وسروالاً أزرق غامقاً كسرواله، كما ثبتت نفس الصليب الحديدي على صدره. وكانت رقبتة أكثر ما يُثير العجب به، فهي عبارة عن كومة قرمزية غائرة، والتي بدا وجهه فوقها أشبه بقناع كارتوني مُلتصق بها، والذي ينتهي بجمجمة مُدببة، يكسوها شعر مفروق على أحد الجانبين، مثل هتلر باللوحة وراءه، ومُمشط بشكل مائل نحو حاجبه الأيسر. لكن شعر هذا الرجل لم يكن يلمع؛ بل صنعت جمجمته ما يُشبه عُرف ديكٍ فوق هامته.

لم يُضيع جدي الوقت في المقدمات، فربما كان يُسارع لاحتكار الحديث، وهكذا، اندفع بالكلام كُمبارز ينقض على خصمه دون هوادة. وقد مكنتني معرفتي الأساسية باللغة الألمانية من متابعة مراقبته التي سارت بإجمال كالتالي:

”... حينما يسمع مارشال الرايخ بهذا الأمر، فمن المؤكد أن بعض الأشخاص سيتمنون لو أنهم لم يولدوا. برأيي فإنكم واعون بنقطة

ضعف نائب الفوهرر، المتعلقة بتخليد ذكرى زوجته السويدية⁽¹⁵⁾ الراحلة، وبالعلاقات الوطيدة بين قصر كارينهول⁽¹⁶⁾ والسويدي بيرجر داهلروس. أنا مندهش من أن مستشاريكم لم يُخبروكم بذلك. فخلال العشرينيات، وظّفت السفارة السويدية بريجا قريب الراحلة، وهو أرين هيدبيرج. وأنداك أيضًا، أقامت الممثلة سارة ليندر⁽¹⁷⁾، سليلة هيدبيرج (التي وجب عليك معرفتها لكنك لم تفعل) في ريجا فترة من الزمن، ولماذا أقامت السيدة ليندر بريجا فترة من الزمن؟ ذلك لأنها أحببت أمها بالمعمودية هيدبيرج والتي سُميت بالأصل تيمناً بها... صحيح، لم أتشرف باسمك يا سيدي المُبجل؟“.

”اسمي؟“ تورد صاحب الرقبة الغليظة خجلًا. ”يوهان... وبناء على ما تقول؟“.

”حسنًا، هل ترى، إنه من الكتاب المقدس! يوهان نسبة ليوحنا المعمدان، الذي اشتق منه يانيس أيضًا.“.

”بل إنه اسم ألماني! يوهان سيباستيان باخ. ويوهان جوتنبرج..“.

”إنني أقصد أصل الاسم. فاسم الدكتور جوزيف، هو أيضًا من الكتاب المقدس. فلماذا لم يصف أحد ما مدير الدعاية بأنه يهودي؟ كما قائمة

15- زوجة غورينغ المقصودة هي كارين أكسيلينا وجنسيته سويدية، وليست نرويجية كما يرد بهذه الفقرة من الترجمة الإنجليزية للرواية. وذلك يتفق مع أصول آل هيدبيرج المذكورة بالفصل 11 ص 91 بالطبعة الإنجليزية (وهي نفسها أصول فايتروت فون بريغن)، ويتفق كذلك، مع الفقرة الأخيرة من هذه الصفحة والتي تتحدث عن تفضيل السويديين لاسم سارة. وعليه أيضًا تكون السفارة المقصودة هنا: السفارة السويدية. و”النرويجية“ سواء كجنسية أو كسفارة ليست أكثر من خطأ بالطبعة الإنجليزية.

16- مقر إقامة هيرمان غورينغ، المسمى تيمناً بزوجه الراحلة كارين غورينغ.

17- سارة ليندر، مغنية وممثلة سويدية عاشت بين السويد وألمانيا، كما أقامت سنتين بريجا وحققت نجاحًا ساحقًا في ألمانيا النازية خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. واستمرت شهرتها في ألمانيا لأعوام طويلة بعد الحرب العالمية الثانية.

الأسماء ذات الأصل الإنجيلي طويلة: بيتريس، جيكابس، آدمز، سيمنز...
مارثا، سوزانا، ماريا... والتي لدى كل أمة مُشتقات متباينة منها.
فالسويديون مثلاً يُفضّلون إيزاكس، وأبرامز، وسارة. وهذا لا يُحيل لأي
شيء أبعد من الاسم نفسه“.

”وهل ادعى أحد بأنها تعني لغير ذلك؟“.

”هذا بالضبط ما حصل، أيها المُلازم المحترم! ما حصل لسارة ابنة
إدا هيدبيرج، فيا لحسرة ومهانة تلك الشابة ذات الدماء الآرية“ - وهنا
أشار لي جدي- ”أسيرة الجيتو، هل يُعقل ذلك؟ في البداية، رُفض
طلب البارونة ميكلينشتاوفز بالعودة إلى ألمانيا العُظمى، بسبب جدتها،
والآن..“.

نكرتني رقبة المُفوّض بقطعة لحم مسلوخة. وقد أقنعه حضوري
بصفتي دليلاً مادياً على الدم الآري، فملّس على شعري الزُبدي الأشقر،
ثم هز رأسه المستدق.

”مُثير للاهتمام..“.

”مُثير للاهتمام فقط حتى يصل لمسامع السيدة سارة ليندر بألمانيا،
وهي التي أقام مارشال الرايخ في بابلسبيرج احتفالاً كبيراً بفيلهما
الأحدث: الحب الكبير. أما إذا وصل خبر إلى الدكتور جوبلز، عن شيء
قد يُهدد مصير الديفا⁽¹⁸⁾ ليندر، التي يعلم الجميع مشاعره نحوها، فإنه سوف..“.

”نعم، نعم“ سارَعَ صاحب الرقبة الغليظة بالموافقة. ”إن أفلام

18- أي النجمة الشهيرة للغاية.

السيدة ليندر في غاية الروعة“.

”سؤالٍ بسيطٍ وواضح: ماذا سيحدث ليوهانا حفيدة والدة السادة ليندر بالمعمودية؟“.

تجمّد سمينُ الرقبة لبرهة، ثم رتبّ نفسه.

”سيتم إطلاق سراح قريبة سارة ليندر. سيصدر أمر كتابي بذلك، لكن يا سيدي المُبجل، إن الجيتو من صلاحية القائد جيكلن، لذا دع له مهمة العثور عليها، لأنني لن أحشر أنفي في نطاق سيطرة القائد“.

”شكرًا لك!“ قال جدي، مُلوّحًا بيديه في حركة وداع. ”أنت رجل نكي، الرجل المناسب في المكان المناسب، لقد ربحت لنفسك عذرًا. يكفيننا الأمر الكتابي وسنحدد مكان البارونة بأنفسنا“.

ولم أفهم حينئذ كلمات جدي المُفككة. ” Was ich besitze, seh ich wie im Weiten, / Und was verschwand, wird mir zu Wirklichkeiten“، لكن الآن قد علمت أنها تعود لجوته. ”هذا الذي امتلكتُ، أراه بعيدًا، / أما ما قد اختفى، فقد صار حقيقة بالنسبة لي“.

(16)

شَعت فَايتروت فون بريغن، بأن الحماس الذي أحاط بالكونت كاليوسترو داخل بلاط سان بطرسبرج، قد انحسر الآن. صحيح، أن جلسات استحضار الأرواح لا تزال تُقام بمحفل الاتحاد السعيد، لكن نُدرت المناسبات المُقامة على شرف الكوبتا العظيم. أما ما تبقى منها فقد ميّزته بالكثير من التحفّظات.

تساءلت فَايتروت، لو أن بمقدورها مُغادرة قصر يلاجين والإقامة عند أقاربها، لحين عودة جبران من معسكره في الجنوب. إن خالتها متوفية، بينما تعيش كلتا ابنتيها في قصر مويكا. لكن الكوبتا لم يكن ليُنصت لمطلبها، فقد بدأ عملهما للتو فحسب. وخلال أسبوع من الآن، وبمعونة الطاقة النجمية، سيحوّل الابنة الزرقاء للأميرة سالتيكوفا -المحكومة بالموت- إلى وريثة مُنعمّة بالصحة، ستكون مُناسبة هامة، مثلما قاد النبي إيليا عربته النارية عبر السماوات. كما ستُقدم الكنيسة قرابين شكر، وسيطلق السادة الإيطاليون ألعاباً نارية فوق ميادين المدينة.

إن معنويات الكونت مرتفعة. فقد اقتفى أثراً عبقرياً آخر بقدر عظمة الجراح جبران. يُقيم في إحدى المقاطعات الروسية، ويعمل حداداً ومُضيفاً بأحد الحمامات العامة في الوقت نفسه، وقد تمكّن من اختراع آلة بخارية تعمل لثلاثة وأربعين يوماً مُتتالياً. هذا الرجل هو إيفان بولزونوف، وباختراعه، تكون البشرية على الطريق الصحيح للتطور عبر الميكنة. كذلك، في فرنسا، يعمل عباقرة لخير البشرية: كالطبيب

جيوتن، والمُحامي روبسبير. كما أن مارا هو نشيط للغاية، بقدر ما يُمثل سان جوست صوت الإنسانية ككل. وعمًا قريب، لن يبقى سوى شيء واحد على تغيير العالم، وهو الحصول على مُباركة بابا روما. وسيبدأ العهد الذهبي للتنوير قريبًا.

”يبدو أننا غير قادرين على نيل مُباركة الإمبراطورة“. تكلمت البارونة باقتضاب. فالأمور لم تسر بحسب توقعها. هي لا تشك في قدرات الكونت مُطلقًا، لكن مصيرها قد صار ضبابيًا من الآن فصاعدًا، والأسوأ من ذلك، كما يبدو جليًا، أن الكونت لا يُبالي. وهذا ما يخلق الاستياء البادي على مُحياها.

”لم يحن الوقت بعد“. أغلق الكونت جفونه التي تُشبه قُشور الجوز. ”يسعى البلاط لتأمين سلطانه، مُغرقًا مواطنيه في وحل الفقر وغياب الحقوق، فلا يزالون مُستسلمين لنير العبودية“.

”هل تقصد الإمبراطورة كاثرين؟“. من المؤكد أن الكونت لم يسمعها، إذ واصل حديثه بهدوء.

”إن العقل واختيار الفرد هما ما يُنجزان جميع الأشياء؛ لا القدر. لكن المُحصلة واحدة. دومًا واحدة“.

”واحدة، كيف؟“.

فتح الكونت جفنيه ببطء، لكن نظرتَه ظلت مُشتتة كما الحالم.

”عندما نقوم بفعلٍ ما، فإننا نُفضله على فعلٍ آخر كان بمقدورنا فعله. ولذا يصير ما نفعله ولا نفعله مُهمين على السواء“.

”ماذا يجب أن أفعل إذا؟ أو أن عليّ عدم فعل شيء؟ فهل تكون

رحلتي الطويلة بلا طائل؟“.

”ما يجب حدوثه. سيحدث“.

”ألا يُمكنه أن يحدث أسرع قليلاً؟“.

”تعتقد الإمبراطورة بأهمية غزو أراضي الجنوب. في الواقع، من المهم لروسيا، ألا تُوجه جيشها ضد بروسيا وفرنسا. اعلمي أن جميع الأشياء مُتصلة في ما بينها، فلا شيء بمنأى عن غيره. بما في ذلك الإمبراطورة كاثرين، وأنتِ، والعالم المتغير من حولنا، والمحفل المصري، وتقدم الجنس البشري“.

لا تفهم فايتروت الكثير مما ينطق به الكوبتا، لكن إعجابها به وولاءها له في ازدياد. كما حَطَرَ لها أن أسئلتها المُباشرة نوعاً ما، رُبما قد أثَّرت على الكونت، فسارعت لإضفاء النغمة البريئة لدردشة الصالونات على المُحادثة، تلك التي يدعوها الفرنسيون causerie.

”أولئك الذين يفهمون العلوم، يُدعون في العادة علماء“.

تهلل وجه البارونة بابتسامة، مُتفحصةً وجه الكونت. ”فهل تعتبر نفسك عالماً؟“.

”عالم؟ يا للحماقة!“.

”إِذَا، نبي؟ سفير للرب؟ مبعوث من عالم آخر؟“.

ارتفع حاجبا الكونت الأسودان الثقيلان على جبهته المرشوشة بالبودرة. فلم يسبق لأحد أن طرَح عليه مثل هذا السؤال. لكن بسبب مزاجه الجيد، ولأن السؤال طُرِح على سبيل اللهو. فإنه قد فضّل الإجابة.

”ماذا لو أُجبت بأنني فنان؟“ تقمّص الكونت نبرة البارونة.

”سأرد بأن ذلك في غاية الروعة. ثم أتساءل، ما معنى أن تكون فناناً؟“.

”أن تُدعي ما ليس بمقدور الجميع إبداعه. ما يستطيعه أناس قليلون جداً، ربما شخص واحد على وجه البسيطة“.

”مثل ليونارد دافنشي؟ أو مايكل أنجلو؟“.

”بالضبط“.

”لكن، كلاهما عاش في الوقت نفسه، ولذا، لا يُمكنك القول بأنهما أبدعا ما لم يستطع غيرهما إبداعه“.

انشرح الكونت كالويسترو بالضحك. من الواضح أنه مُولع بقون بريغن.

”إن رُوحين عظيمتين مثلهما لا يُمكن أن تتنافسا“.

”هل لك مُناظِر أيها الكونت؟“.

”اثنان، بل حتى“. خفض الكونت صوته بطريقة مسرحية. ”أحدهما يُدعى موزارت، والآخر بيتهوفن، لكن لا يزال الصغير لودفيج يتلقى دروسه على يد سالييري. وهو في العاشرة من عمره الآن“.

أقيم طقس شفاء الرضيع الأزرق ابن الأميرة سالتيكوفا بمحفل الاتحاد السعيد، الخاص بالماسونيين الأحرار، وأعضاء الصليب الوردى، والمتنورين. بصحبة والدي الطفلة وضيوفهما. كما مُنحت الأولوية للنساء الأكبر سناً، واللّائي يُعد كل ما يتعلق بالميلاد، أو الموت، أو

الشفاء، أقرب ما يكون لقلوبهن، واللاتي بمقدورهن أيضاً، التعاطف مع؛ وتقدير أي شيء. وبالتالي، مُنِحَت الأولوية كذلك إلى مرافقيهن من الرجال النبلاء المُتمرسين، والذين ضاعفت الرغبة في تجديد الشباب شغفهم بالغرائب التي تُحيط ولادة أحفادهم، وأبناء أحفادهم.

استقبل أعضاء المحفل الكونت كاليوسترو باحتفال شعائري. فاصطف على جانبي الدَّرَج رجالٌ في عباةاتهم الحريرية السوداء وقلانسهم المُدببة، سيوفهم مرفوعة ومُنقاطعة بعرض السلم. في حين حضر الكونت بصحبة كل من لورينزا ملكة سبأ، ومرافقيه القزم فولاً، والمُنجم ميداس. وتابعت البارونة فون بريغن المشهد من بعيد؛ لأنها لم تشعر بالانتماء لحاشية الكونت.

ساد الظلام بالداخل. فلم تُوقَد ولو شمعة واحدة بالثرثرا المُعلقة فوقهم. وكان الممر مُحدداً بواسطة خُدَّام يرتدون زيّاً مُوحداً، ويحملون شمعدانات فضيَّة. فخفقت الظلال بأشكال وحشية تعلو درجات السلم الخشبية التي تصدر صريراً.

أما داخل القاعة، فقد أُضيئت شمعة واحدة بجانب المذبح. وعليه كانت تلوح جمجمة مصفرة، والمجرفة والمنقلة الماسونيتان، بالإضافة إلى اللفافة الجلدية والمنشور الكريستالي.

لمعت الأحجار الكريمة في غبش الظلال المُراوغ، كما لمعت البواريك بخفوت، وحففت التنانير والأحذية العسكرية أثناء الحركة. وفجأة اختفى الخدم المُرشدون من القاعة، وأقفل السيد الأكبر يلاجين الباب من الداخل.

ثم عُزف لحن رشيق على الفلوت. ووصل الكوبتا العظيم للمذبح،

فقدم له المُنجّم ميداس؛ المنشور الكريستالي. وأطلقت لورينزا حمامة في الهواء، والتي ضربت بأجنحتها مُحلقة بأرجاء الغرفة، ثم عادت لكتف لورينزا. وترنح القزم فولاً بسرعة صوب باب مُؤدِّ إلى غرفة الصداري⁽¹⁹⁾. بينما توقف الفلوت فجأة عن العزف. فعلاً صوت التنفس الجماعي للحضور. وسقط الصمت كحجر في بئر، مُتعتشاً للصدى.

وفجأة، بكى طفل. بكاء حاداً، ومذعوراً، وصاحباً. حتى سمعوا غرغرة أنفاس بين صرخاته. ومثلما بدأ الصراخ فجأة، فقد انتهى فجأة. ثم أخذ الكويتا العظيم المنشور بيده، وبدأ في تلاوة مقاطع مُبهمة، وسحرية، في أصوات غريبة. قد تكون باللغة المصرية القديمة، أو بلغة الكلدانيين الحكماء. لكنها تطلبت جهداً واضحاً. وقد نضح الكونت بالعرق، ورجف جسده بالكامل، وتخللت كلماته بعض التهديدات الخفيفة.

ومن وسط ظُلمة الصداري، برز خادم يحمل صُرة بيضاء، وضعها بإيماءة رسمية على المذبح أمام الكويتا العظيم. وببطء، وحذر شديدتين، فضَّ الكونت قُمط الرضيع الواهن شيئاً فشيئاً، حتى انكشف بمنتصف المذبح مثل سداة زهرة السوسن. إذ كان متغضناً، ورخوياً، ومزرقاً. وبدأ رأسه كبيراً للغاية مقارنة بجسده، كما لو أنه مُثبت بطرف عصا، ورقبته مُجعدة كالطائر الصغير الساقط من العش، وینفتح الثقب الأسود لفته وینغلق، لكن دون صوت.

وبينما واصل ترنيمته باللغة المُبهمة، التقط الكويتا العظيم الرضيع، ورفع عاليًا، ثم أعاده إلى القُمط الأبيض الذي طواه ثانية. ثم هبط عليه من السقف العالي ستارة مخملية سوداء؛ فتوارى كل من المذبح،

19. اسم يُطلق على غرفة المحفظات الكنسية.

والصُّرة البيضاء، والشمعة الوحيدة المُقادة خلف حجاب أسود ثقيل.

استمرت الظلمة العامية لبرهة. ثم انكسر الصمت الطويل والمقبض بناقوس عميق؛ طَنَّ الهواء بعده لبعض الوقت. وتوهج ضوء بالركن الخلفي الأيسر من القاعة، في بقعة لم يكن أحد قد انتبه لها حتى اللحظة؛ حين انزلق منها فوق رؤوس الحضور؛ شبح جمجمة وهَّاج، وذراعان نحيلتان ممدودتان. وسرعان ما توقف صدى الناقوس، واختفت الجمجمة.

في الظلام. أدار الحضور رؤوسهم ثانية ناحية ناحية الستار الأسود وهو يرتفع. فكان كل شيء في مكانه، الشمعة تحترق، والصُّرة البيضاء فوق المذبح. والكوبتا العظيم واقف أمامه، رافعًا ذراعيه، وملوحًا بهما بطريقة استعراضية. ثم عزف الفلوت مُجددًا، بلحن أكثر حماسة وأقل صبرًا. وفَضَّ الكوبتا طبقات القُمَاط: الطرف الأول، فالثاني، فالثالث فالرابع... وهكذا برز في منتصف القُمَاط، رضيع وردي، ملائكي، وممتلئ الجسم.

عزفت الفلوت، لكن أحدًا لم يسمعها، في مقابل صرخة الدهشة التي فجرها الجمهور دفعة واحدة. لقد شهقوا، وصفقوا، هاتفين بالثناء. أما الأميرة سالتيكوفا، التي تابعت الطقس شبه فاقدة الوعي، فقد ضغطت فمها بمنديل برتقالي يشبه الزهرة، ثم صرخت وألقت نفسها ناحية الطفل، فأخذته، وعصرته بحضنها، باكيةً بدموع الفرح. وتساقطت العكاكيز من أيدي الرجال المُحترمين العاجزين عن الكلام، كما أُغمي على الأميرة فولكونسكايا.

”افتحوا الباب.“ صاح الدوق. ”أحضروا المياه بسرعة!“.

وحتى البارونة فون بريغن، تلفتت حولها كالمشذوثة. فما حدث للتو، قد ضرب وترًا حساسًا لديها. فإذا كان باستطاعة الكوبتا مساعدة الأميرة سالتيكوفا، فإنه يستطيع مساعدتها هي أيضًا، إن قدرات هذا الرجل بلا حدود. وقد هزها عميقًا هذا الإدراك الجديد -أو بالأحرى، هذه الاستفاقة، لأن كلمة إدراك لن تفي بهذا الشعور- بأنها لا تدري بعد أي مخلوق سوف تلد! فماذا لو جلبت إلى العالم مخلوقًا فظيعةً كذلك الأزرق البائس بجلده المتغضن، ورقبته الطويلة الرخوة؟ أو مخلوقًا برأسين كنسر العرش الروسي؟ فهل بإمكان مصطلح طفل -أنا حامل بطفل- أن يستوعب ما حدث لها؟ وإذا كان قران السر المقدس قد نتج عنه مثل هذا المخلوق الأزرق المشوه، فماذا تتوقع من مجرد تجربة تطويرية؛ من النوم مع مُركب مُجمع من رجلين بدلاً من رجل طبيعي واحد؟

ضغطت فايترت ذراعها على بطنها، وللمرة الأولى؛ شعر جسدها برعشة الأمومة. وبأن النبض المتسارع الساري بدفء عبر فستانها الحريري لم يكن نبضها فحسب. وإنما نبض كائن آخر كذلك، حياة جديدة تنمو بداخلها، والتي تشغل حيزًا أكبر فأكبر، حتى كادت قوة النمو تُمزق أحشاءها.

لماذا داهمها ذلك الإحساس الآن فحسب؟ ولماذا استوعبت موقفها الجديد بدقة في تلك اللحظة بعينها، حينما ضغطت الأميرة سالتيكوفا وريثها بصدرها بنشوة وولع؟ ربما استوعبت فايترت المدى الشاسع بين دلالات السعادة والتعاسة التي تختبئ في ما بينها فكرة الطفل.

توافد الخدم على القاعة، حاملين الشمعدانات الفضية. وقد تكاثرت الشموع لدرجة أن حرارتها عبأت الجو، مثلما عبأته رائحة الشمع الذائب

برائحة العسل. ثم انتزعت فايتروت من أحلام يقظتها بواسطة عناق، فدهشت لوهلة، ولم تُدرك في البداية من الذي يُقبلها بهذا الحماس! ثم تنبّهت لأليكساندرا، عزيزتها ليكسيت! لقد قابلا بعضهما أخيراً! لكن لا ينبغي لها أن تُفاجأ، إذ كان الحضور إلى سان بطرسبرج دون رؤية ليكسيت، ليمثل مفاجأة أكبر!

بعد أن قبّلتها، تراجعت أليكساندرا خطوة للوراء، مُتفحّصة فايتروت بملامح مُشوشة بعض الشيء. فقد غيرت كليتيهما السُنون الطويلة منذ آخر لقاء بينهما. وهكذا، خمدت فورة الحماس الأولى بشعور الغربة التي صار عليهما تجاوزهما.

ذكرت أليكساندرا أنهم وصلوا هذا الصباح، قادمين من جاتتشينا حيث كانوا يقضون أيام الصيف الأولى. وقد سمعوا عن كاليوسترو، وحتى عن فايتروت أثناء وجودهم هناك. تعثرت كلمات أليكساندرا بعض الشيء، لكن وجهها الناضر والأخّاذ، ظلّ وردياً ومُتوهجاً من الحماس؛ وحتى بودة الوجه لم تستطع إخفاء ذلك. وقد منحها قوس حاجبيها المرتفع نفس الاندهاشة الدمثة والتعبير المُختال بعض الشيء الذي ميّزها على الدوام.

”أوه، سامحيني، لم أعرفك فيودور بافلوفيتش. أتذكّر عندما قدّمناه لأمي، أرادت على الفور معرفة أي دُوق أو كُونت هو في عائلة نيكولين. لكن فيودور أجاب: من عائلة الكيميائيين، حيث عمل والده مساعداً للومونوسوف، ولأن فيودور نفسه هو رئيس كلية الكيمياء بالأكاديمية الروسية“.

غصّت قاعة الأرواح بالناس؛ وكان الجميع يجولون على مقربة شديدة منهم، لدرجة أنه الآن فقط؛ لاحظت فايتروت الشاب الطويل، في معطف أسود، وظيفيرة شعره السوداء بصحبة أليكساندرا، فتبادلا التحيات.

”لدينا أيضًا أليكسي فيودوروفيتش. عُصفورنا الذهبي بوزن سبعة كيلوجرامات، وعُمر ثلاثة أشهر ونصف الشهر. ستريته لدى قدومك إلى مويكا، سنسعد باصطحابك إلى هناك الآن“.

لم تُطلِ فايتروت التفكير. فكان ما يشبه الناقوس يطن ويتردد في عقلها، وما إن يتوقف حتى يتبعه آخر. إن شفاء الرضيع الأزرق، وأفكارها بشأن وليدها المُستقبلي تزيد مشاعرها حدة، وقد أدركت استمرارية هذا الشاغل؛ أي الطفل، في دعوة ألكساندرا.

”حسنًا جدًّا، لنذهب يا عزيزتي!“.

ومن ثم، تذكرت الكونت كاليوسترو. ربما وَجَبَ عليها إعلامه بالأمر. لكن الكوبتا العظيم يُشبه قلعة مُسوَّرة بخندق.

وأثناء توجهها صوب الباب ببطء، شعرت فايتروت بانعدام الوزن. وكأنها محمولة بواسطة تيارات هوائية خفية مثل زهرة هندباء.

”أعرف أنك لا تصدق كاليوسترو يا فيودور بافلوفيتش“. تكلمت أليكساندرا ”لكن الحدث كان خارقًا، وقد التقينا فايتروت أيضًا“.

”نعم، أنا في غاية السعادة“.

”لم أقصد ذلك بالضبط“ أخرجت المسألة فيودور بافلوفيتش، عالقًا بين رغبته في الدفاع عن رأيه، وتفادي الجدل مع أليكساندرا، التي لا

تزال تُحبه بجنون. ”أنا مُندهش بهذه الرابطة، فكم يستحيل الحُمو دون الذكاء، وكم يُوجد الذكاء بفضل الحماقة“.

ثم صعدوا إلى العربية بمساعدة رجال حَزِين، يرتدون ما يشبه مزيجًا من الملابس المدنية والرسمية؛ والذين تفحصوا الرُكاب، حتى إنهم فتشوا أسفل المقاعد. ولم تكثر لهم قايتروت؛ لأنها سمعت الكثير عن السلوك المُريب للروس.

وفي النهار التالي، أعادت أليكساندرا وفيودور بافلوفيتش قايتروت إلى قصر الكونت يلاجين. وقد بدا السيد الأكبر مُحبطًا، فكان قصير النَّفس، وبالكا استطاع الكلام.

”يا إلهي، ألم تسمعي بما حدث؟“ ضغط الكونت يده الممتلئة والمُرصعة بالجواهر على جانبه الأيسر، ورجَّ رأسه مثل حصان يزعجه الذباب. ”لقد غادر الكوبتا العظيم! نَهَبَ! أنا خائف من مُجرد التفكير في كيف سينتهي ذلك!“.

”غادر؟ نَهَبَ؟ نهاية؟“ رَدَّت قايتروت في فزع. إن المفاجآت التي تُضرم نار خوفها تسقط عليها مثل طيف بارد. ”ما الذي تقوله؟ ماذا يعني ذلك؟“.

”آه، لو أمكن معرفة كيف حدث ذلك، إن ماتوشكا ذكية، فحتى جوزوبوف لم يكن ليجازف برقبته في فعل كهذا!“.

”رجاء، تكلم بمزيد من الوضوح أيها الكونت“.

”يُقال بأن الطفل لم يُشفَ، وإنما استُبدِلَ بآخر. وقد قبضوا على امرأة وبحوزتها الطفل المريض“.

”هل من المعقول استبدال طفل؟“.

”يعرف جوزوبوف كيف يستغل أوراقه الراححة ببراعة. الآن، سوف تُضيق الإمبراطورة الخناق علينا..“.

لم تُرد أليكساندرا ومعها فيودور بافلوفيتش ترك قايتروت في قصر الكونت يلاجين. لذا، حزمت بون سبريت الأمتعة. وكانت رحلة العودة إلى ميكا باهتة، مثلما يعود المرء من حفل رائع انتهى بوفاة أحدهم. حيث تبادلوا جميعًا النظرات، دون أن يهمس أحد بكلمة. لقد أذهلت الصدمة النساء، أما فيودور بافلوفيتش فلم يكن مُرتاحًا كثيرًا.

بحلول موعد تناول الشاي، وصلت صديقة أليكساندرا الكونتيسة فولكونسكي مع شائعات جديدة. فقد أُلقي الكوبتا العظيم بزنانة فردية في قلعة بطرس وبولس. وحينما دق جرس الكنيسة عند منتصف الليل، سمع الحُراس صوتًا مكتومًا وثقيلًا لباب ينفتح وركضوا لتقصي الأمر، فأعماهم ضوء شديد، كأنهم نظروا مباشرة إلى الشمس. وعندما استردوا بصرهم، لم يجدوا أثرًا للكوبتا.

كان الكونت فولكونسكي حاضرًا عند إعلام الإمبراطورة بالحادث. أما هي فقد ابتسمت بطريقة ساخرة هازة كتفيتها ومُعلّقة ”ألا يدهمك ذلك مثل مشهد من كوميديا ما؟“.

اختفت عربة دوق كورلاند الذهبية رفقة الكوبتا العظيم. لكن، لحسن الحظ، لا تزال العربة الخاصة بدار ضيافة اللورد مارشال في سقيفة العربات الخاصة بقصر يلاجين. وبإمكان البارونة فون بريغن المغادرة صباحًا لو أرادت. فلماذا تبقى بسان بطرسبرج يومًا آخر؟ كم هذا فظيع! ف-ظي-ع!

(17)

أسرع جدي بنزول السلالم، فكان يُصَفَّرُ مفعماً بالنشاط الذي تصعب مُجاراته؛ لا من جانبي فقط، بل أكثر من صاحب الشارة الذهبية الذي رافقنا من مكتب المُدير إلى الخارج. وعند البوابة الرئيسة، صرخ جدي بسعادة مُلوِّحاً بقبعته. فتبادل الجنود حاملو الأسلحة الرشاشة نظرات سريعة، مُؤدِّين تحية المغادرة؛ خَبَطَ كل منهم إحدى فرديتي حذائه بالأخرى بخفة، ومن ثم عادوا لوضعية الانتباه.

”والآن، إلى الاختراع الإيطالي!“ صاح جدي بمُجرد أن ركبنا العربة.
”إلى أين؟“

”إلى الجيتو! اختراع البابا بولس الرابع، والذي أسس الجيتو الأول بروما عام 1550. هل تدري لماذا؟ لحماية اليهود“.

”لقد وضع الباباوات أيديهم على كل شيء!“.

”ليس باليد حيلة في ذلك. فحتى من الناحية الاقتصادية، كانت امتيازات الكنيسة لا تقبل الجدل. لدرجة أنه في عام 1179، منع البابا المسيحيين من صرف العُمَلات أو أخذ القروض“.

كان اليوم مُعتدلاً، ومشمساً. حيث انتزعت الرياح آخر أوراق الزيزفون على امتداد الجادة. ناثرة إياها فوق الأسفلت والأرصفت الحجرية. وقد خلا

المكان أمام الأوبرا حيث اعتادت أسراب من الحمام التجمع. فانتشرت الإشاعات بأن الجنود الألمان كانوا يأكلونهم. كما بدت الترامات على غير عاداتها، فقد غُطيت نوافذها بطبقات سميكة من الطلاء، فقط مع ترك شريط في منتصفها بعرض اليد دون طلاء. في حين غاب حرس الشرف عن نُصب الحرية. وحتى الأعلام الحمراء-البيضاء كانت قد اختفت.

مررنا بأسفل جسر السكة الحديد المُواجه للمحطة المركزية. حيث استقرت المدافع المضادة للطائرات فوق المنحدر العشبي، مُوجّهة فوهاتها الأسطوانية نحو السماء. وقريباً من كنيسة يسوع المسيح، سدّ سياج من الشائك الطريق.

عندئذ، بدت الكلمات التي تفوه بها جدي من النوع الذي لا يُقال في العلن، فكانت المرة الأولى التي أسمعها يتحدث فيها بهذه الطريقة.

”لا شيء في العالم أشد حمقاً من شارع مُسيّج“.

وما زلت أتفق معه؛ اليوم، مثلما في الماضي آنذاك. حقاً، عندما يغلق شارع بواسطة سلك أو جدار، فإن ذلك مؤشر على انعدام الإحساس.

انكشف المشهد السخيف أمامنا. حيث ارتفعت الركائز الإسمنتية الخاصة بالبوابة في منتصف السياج الكاشف والمنسوب على عجل. فذكرتني هيئتها وأحجامها الهائلة بفخاخ الدبابات على خط سيغفريد، والتي شاهدها بالمجلات. وبجانب البوابة، أقيمت نقطة تفتيش ومهجع للحرس، مبنية من ألواح خشبية مقطوعة حديثاً، وتعلو سقفها مدخنة طويلة، كمدخنة قاطرة ستيفنسن. ربما، ليست مثلها تماماً، لكنني أخذت هذا الانطباع بفعل الكشف المُثبت بها.

لم تخرج مواكب الموت بعدُ من الجيتو، بينما تنامت الذرائع لتعبئة اليهود في مكان واحد. وبقدر ملاحظتي، يُمكنني القول بأن الحي على الجانب المُحتجب وراء السياج لم يكن مُختلفاً بعد عن نظيره خارج السياج. وقد عملت نقطة التفتيش كصمام للتحكم، فاستمر الناس بالدخول والخروج، أفراداً ومجموعات. لكن بدت وجوههم ضامرة وشاحبة، وخطواتهم مُرهقة ومُختلفة، أشبه بخطوات المرضى الذين يجولون رُدهات وحديقة المشفى.

ظننت أن جدي سوف يُوقف العربة على جانب الشارع، وأنا سوف نُكمل سيراً على الأقدام. لكن، بدلاً من ذلك، فقد لَوَّح بقفازيه الأبيضين، وصَّفر، ثم عَرَج بالأحصنة صوب البوابة؛ ما معناه أنه يُريد القيادة بالداخل أيضاً.

”مرحباً! مرحباً!“ نادى جدي. ”هيا!“.

خرج رجل من مهجع الحرس، من المرجح أنه شُرطي، وألقى نظرة سريعة فاحصة على العربة، ثم عاد إلى موقعه.

”مرحباً! هيا!“ صاح جدي بإصرار.

وبعد بضع دقائق، خرج رجل ثانٍ من أقرب مباني الجيتو بالنسبة لنا، مُتكلِّماً على عُكان، وماشياً نحونا بخطوات جامدة متأنفة. وقد ظل كل من رتبته وسلاحه العسكري لغزاً بالنسبة لي. فكان بنطاله العسكري مدسوساً داخل حذائه القصير، وزينت عصابة فضية ياقة

سترتة الميدانية، فأشار ذلك إلى أنه قد لا يكون ضابطاً. سأل الألماني جدي عن سبب وجوده هنا. وأجاب جدي بأنه يُوصل رسالة من المُفوّض دريسلر-دروسلر، وأن عليه التحدث إلى الأمر الأعلى مُدير الجيتو، أما صوته الذي دلّ بوضوح على أن هذه لم تكن مُناقشة؛ فقد نُبح عبر الصباح بحدة مرة أخرى.

”هيا! هيا!“ أنصتَ الألماني لجدي، وهو يحك قفاه بيد واحدة. لقد أنصت وأوماً رأسه، ما يُمكن تفسيره كعلامة على الموافقة، وتلميح بالاستيعاب. ثم صاح ’Losfahren! فانفتحت البوابة، وولجنا إلى الجيتو.

ثم ركض الألماني نحو مهجع الحرس، على الأرجح لإجراء مكالمة هاتفية. وانتظرنا وقتاً أطول، حتى لاح رجل ضئيل يرتدي معطف مطر مطاطياً داخل سيارة عسكرية رمادية اللون. فقط أَضْفُ دبوساً هلامي الشكل لسترتة، وخوذة فوق رأسه وستحصل على شرطي درك نموذجي. لكن كتّافاته المحبوكة وكابه أشارا لعلوّ رتبته عن غيره ممن ارتدوا الكابات المُطرزة بشارة الجمجمة. لم يترك الرجل السيارة، وإذا أمكن استشفاف شيء واحد من وجهه الجامد، فهو أن ملامحه أشبه بمنحوتة من الغراء الجاف، تطفح بالغطرسة واللامبالاة بما يجري أمامه.

مُسنداً ظهره للعربة؛ بلامبالاة مماثلة، عرض جدي خطاب المُفوضية المدنية بين أصابع قفازيه الأبيضين، فسارت المحادثة بينهما كالتالي:

”حسنًا. ماذا بعد؟“.

”كل شيء مذكور في الخطاب! يجب إطلاق سراح السيدة هوليندر على الفور!“.

”بالتأكيد. ليس لديّ مانع“.

تحدث الضابط بأكثر نبرة لامبالية قد يتحدث بها إنسان.

لكن سرعان ما تداعت تعابير الضجر على وجهه في غضون ثوانٍ. وتشوّش الوجه الجامد، وانكمش وتلوّى في سلسلة من التكشيرات التي أظهرت الكره، والازدراء، والفرع، والتهكم. ليس تجاه جدي. ولا حتى تجاه السيدة هوليندر المذكورة آنفًا، وإنما تجاه الغائب دريسلر-دروسلر.

”يُمكنه الحضور إلى هنا والعثور على السيدة بنفسه! يا له من مُتحدلق! بارع! هل لديه أي فكرة عما يكون الجيتو؟ هل يستوعب كم من الآلاف يعيشون هنا؟“.

وبمجرد أن توقف عن الصياح، ساد صمتٌ قاطعه جدي بدوره باعتراض مُهذب. فلم يكن ينقصه سوى وضع يديه على كتف كتلة الأعصاب تلك ذات معطف المطر المطاطي، فيربت على رأسه ويُملّس شعره مثل طفل صغير مُرتاع.

”إننا نتحدث عن شخص مُقرب للغاية من مارشال الرايخ، يكاد يكون قريبه. لذا، لا تُصعّب الأمر على نفسك! ولنفعل ما نشعر بأنه في مصلحة كلينا. فالواجب واجب!“.

بدا لأعيننا أن الضابط قد سئم المُحادثة.

”هينكه!“ صاح بصوت مُلائم لإصدار الأوامر. ”جِدِ المرأة! افعل كل ما عليك فعله! لكن دون مفاطلة!“.

حُرِبَتْ بعض الكلمات على الخطاب وانتقل إلى يد هينكه، فقبض على الورقة التي في مهب الرياح بيده، كعامل تحويلة يقبض على الراية بجانب السكة. واستدارت السيارة الرمادية، ثم اختفت بنفس السرعة التي ظهرت بها أول مرة.

”حسنًا“ فرك جَدِي يديه ببعضهما. ”لتذهب! فليس لدينا الكثير من الوقت“.

”لن يكون الأمر بهذه السهولة“ ضغط هينكه بعكازه على الحصى.

”إن فحص سجلات أربعمئة منزل ليس سهلًا كقراءة قائمة مطعم في وقت الحرب. وكذلك، فإنهم لا يُبقون على السجلات كما هي. بل يُشوهونها عمدًا لإزالة آثارهم، فالأمور تزداد حرارة، خاصة في الليل، حيث يُصفون الأغنياء، ويطاردون النساء الجميلات“.

”مَنْ يُصَفِّي مَنْ؟ ومن يُطارِد مَنْ؟ ألا يُوجَدُ شُرطيون بالجوار؟“.

”بلى، فهم من يقوم ذلك“.

”يا لها من حقارة!“.

”بالطبع هذا حقير. كما يحصل الحرس على البقايا“.

”اعذرني؟“.

”لا أستطيع أن أعدك بأي شيء“.

”في هذه الحالة سوف نعثر عليها بأنفسنا إذًا!“.

ركبنا العربة التي شغلت كامل الطريق، أنا وجدي وهينكه. ثم دخلت مجموعة من كبار السن الجيتو على الأقدام، ونجمات داود الصفراء على صدورهم وظهورهم، وزكائب الرعاة مُعلقة حول رقابهم، بداخلها طعام أو أي شيء آخر. وعندما وصلوا إلينا، توقفوا، وساروا في صف واحد ضيق. فكانهم مُحاطون بسحابة من الإرهاق والكآبة.

”ماذا تنتظر؟ لماذا لا تتحرك؟“ هزَّ هينكه عُكازه.

”لقد أمرنا بالسير في الشارع.“

”لا تدّعي الغباء! أنت داخل الجيتو!“

ثم عبرت البوابة؛ سيارة رياضية مكشوفة ذات مقعدين.. كان في ريجا واحدة منها فحسب إذ كانت تُصنع حسب الطلب. فلم نضطر للسؤال عن صاحبها. وأراهن على أنه لا الطيّار، ولا جدي، قد سعدا برؤية أحدهما الآخر. وإنما ظهر عليهما الارتباك، كما لو أن رجلين من عائلتي مونتيغيو وكابوليت قد تقابلا صدفة في مكان ما. (20)

لم يكن الخلاف بين البارونة والطيّار من شأنٍ، والرب وحده يعلم الدور الذي لعبه جدي في كل هذا. أما الآن، فإن كلينا يُمثل فريقيًا واحدًا في صف البارونة. فإذا سبق للبارونة رؤيته في مبنى التشيكا بنجمة حمراء فوق قبعته، فما الذي جاء به إلى هنا؟ خاصة أن الطريقة التي فُتحت البوابة بها أمامه، تشي بأنه من ذوي المكانة.

انعطف جدي إلى جانب الطريق، تاركًا السيارة تمر. وبغرض السخرية على الأرجح، قاد الطيّار سيارته بالقرب من عجلاتنا.

20. العائلتان المُتصارتان في مسرحية روميو وجوليت لشكسبير.

”ما هذا؟ حسبت أن لواء الإطفاء قد استجاب لإنذار حريق كاذب.
والآن أجدكم“.

كان لدى الطيار عادة تضيق عينيه عندما يتحدث. بحيث تتجدد
زواياها، وترسم خطوط ناعمة على وجهه المسفوع من الشمس. كان
في نحو الأربعين من العمر، وقد جعله كل من شعره الأسود، وحاجباه
الثقيلان، وأنفه البارز يبدو إيطاليًا أو إسبانيًا. أو يهوديًا، لكن ربما
خطرت لي هذه الفكرة، فقط، بسبب المكان الذي نحن فيه.

”هناك نار حقيقية، حسنًا“. تحدث جدي باحتراس، دون أن يُقرر
بعد ما إذا كان يستحق الإجابة أم لا.

”حسنًا؟“ مال الطيار نحو جدي مثل لاعب طائرة يستعد لاستلام
كرة.

”إذًا... فأنت هنا؟“ ولم يكن جدي يرغب في الكلام، لكن نظرة الطيار
المُسَلطة عليه استفزته.

”إذًا؟ إنني مُدير النقل هنا... في وقت إيجاد البترول فيه أصعب من
العثور على الماء بالصحراء الكبرى“. استطرد الطيار، كما لو كنا في
حاجة لمعلوماته. ”صحراء صغيرة معزولة.. ولديها مواصلات“.

لقد حدّقا بعضهما ببعض مثل كبشين في معبر ضيق.

”فقط إذا أحببت معرفة ذلك“ تحفّز جدي ونطح الكبش الآخر بإيماءة
عنيدة ”نحن هنا لأجل البارونة، لديّ إخطار ينص على إطلاق سراحها.
سوف يُشبه ذلك البحث عن إبرة في كومة قش“.

لم تُدهشني صدمة الطيار، وإنما تحول هذه الصدمة سريعًا إلى

غضب. حيث انكمش وتراجع للوراء، عاقداً حاجبيه الثقيلين.

”البارونة هنا؟ لا تكن سخيّاً! لماذا؟“.

”لماذا! ... حتى يسوع المسيح كان ليكون هنا أيضاً. أنا لا أتحدث نيابةً عن أبيه الذي في السماوات“.

انقبض وجه الطيّار المُسمّر، حتى بدا فكه على وشك الانطباق فوق بعضه، بينما كان يُناضل لفتحه.

”إنكم، أيها السادة المُحترمون، لم تفهموا المكان بعد. فهذه ليست كومة من القش، بل كومة خراء“.

وأخبرنا بأن نلزم مكاننا، ثم قاد سيارته، وبعد ساعة وسبع وأربعين دقيقة -كنت شديد التركيز على الساعة- عاد وبصحبتة امرأة كبيرة في السن، ترتدي خرقاً بالية. وبمجرد التدقيق فيها؛ ارتعبتُ، فقد كانت هي نفسها البارونة.

(18)

عادت فايتروت فون بريغن من سان بطرسبرج، لكن لا تزال الأحداث الأخيرة تُثقل عليها. كغرق سفينة في ذاكرة أحد الناجين، أو مثل ضحية اختطاف تتذكر حياتها والسكين على رقبتها. لم تستطع التخلص من هذا الشعور. وبالرغم من أن الأيام ظلت تمضي، فتتعاضم بمضيها المسافة بين الحاضر وتلك الأحداث، إلا أن فايتروت كانت تنجرف مُرتدة صوبها بين الحين والآخر.

يا له من عار! ويا لها من فضيحة! لا تستطيع فايتروت تصديق أن كاليوسترو زائف؛ لا بدَّ من وجود خطأ ما، أو ضربة مشؤومة من الحظ السيئ، وأن حديثه عن الأطراف الحاقدة لم يكن حديثاً فارغاً. ثم هكذا، في غمضة عين، وفي غفلة من الوجود.

لكنها لا تستطيع، بل لا تستطيع مُطلقاً، التوقف عن التفكير بالأميرة المسكينة سالتيكوفا. فهل بمقدور القلب الصمود أمام تحطم الآمال بمثل هذه القسوة؟ فكم بدت سعيدة وهي تحمل الطفل الملائكي المُعافى بين ذراعيها! حتى إن فايتروت كانت تُحلق بسعادة فوق جناحي تلك المعجزة. ويا لها من سقطة عنيفة! إنها تشعر بالأسى نحو الأميرة، ونحو الجميع.

صحيح أن فايتروت لم تتورط مباشرة في ما حدث، إلا أن اسمها سِيلوح في أطياف الذكرى. ”آنذاك، عندما كان كاليوسترو والبارونة..“.

حاول كل من أليكساندرا وفيودور بافلوفيتش التصرف كما لو أن شيئاً لم يحدث. لكن سلوكهما فضح الكرب والإحراج الذي كانا فيه.

لكن هكذا تجري الأمور دوماً كما تشتهي الرياح الهابّة على القصر، والأمر سواء في فيرساي، أو بوتسدام، أو يلجافا. كما أن سان بطرسبرج ليست استثناءً.

وبالإضافة إلى مرارة العودة للمنزل وحدها، فقد بدأ يتابها الشك في أصولها المُنتمية إلى سلالات ليثن وهان، بعد أن فنّدها الكوبتا. لكن ليس هذا الوقت الملائم كي تُسهب في ذلك، فإذا كان الخاتم، يرتكب الأخطاء كغيره من البشر، فما المانع من أنه قد أخطأ في حديثه عن آل ليثن وآل هان؟ وأن أسلافها ينتمون بكل تأكيد إلى قبيلة المُحاربين الشهيرة التي أُنيط بها مهمة نبيلة، مثلما هو مذكور في أسطورة الكأس المقدسة الشهيرة أو دُرّة تاج لوسيفر، التي حرسها جنود فرسان الملك آرثر داخل القلعة. أيضاً، لقد اعتادت في صغرها، الاستماع إلى القصص حول كيف حارب أسلافها من الفرسان الألمان ضد الوثنيين البلطيين عقب نهاية الحروب الصليبية بفلسطين، وهذا دليل آخر على نسبها المُميز إذ كان الفرسان قدوة للأجيال في الماضي.

حاولت فايتروت استخلاص بعض المعلومات من البارونة أميليا آنا، دون فائدة. كانت والدة إبهارت مُثيرة للاشمئزاز لأقصى حد. فارتعشت أصابعها الناتئة بمنديل مُخرم، بطريقة محمومة كما لو كانت شبحاً غير مرئي، مُدثرةً بمزيج من الروائح النتنة والمُثيرة للغثيان، والتي تفوح

منها. وقد بدا أن المرأة المُسنة على وشك الإصابة بنوبة قلبية، لكن لحسن الحظ، انتهى الأمر بنشيج من الدموع.

”عار عليكِ يا تروت؟“ “Trautchen, schämen Sie sich!“

حضر العم يواهيم بنهاية الأسبوع، لقد مرت فترة طويلة على آخر لقاء جمعهم، فبدا جسمه أكثر استدارة هذه المرة، وقد مائل وجهه الباسم، والأخضر المائل للزرقة؛ عن حق، كرة أرضية بشعر مستعار ومسنودة إلى كتفيه.

إنه حقًا الشخص المناسب في التوقيت المناسب. فكّرت فايتروت، بأنه مهما كانت المسألة، فلا بدّ أن العم يواهيم لديه الإجابة.

وقد همّت بالسؤال عن جذور آل ليثن وآل هان، ثم تذكرت صيحة حماتها، ”تروت، يا للعار“. فتراجعت على الفور.

حتى إذا بدا سؤالها مُريبًا، ليكن كذلك. لماذا تخجل من رغبتها في معرفة الحقيقة؟ إنها مُتيقنة من أن العم يواهيم سوف يُصدّق على ادعاء كاليوسترو. فهل هذا حقًا ما تريد؟ ربما تكون أميليا أنا على حق؛ وأنها في غنى عن طرح الأسئلة السخيفة. لكن الأمر لا يتعلق بها وحدها، بل بابهارت والكوبتا العظيم كذلك. بالإضافة لشخص آخر، والذي في سبيله، عَقَدت العزم على معرفة الحقيقة، في سبيله وحده!

”عمي يواهيم!“ تثبتت فايتروت بصرها على عرابها وهو مُسترخ على الكرسي ذي المسندين، وعاهدًا يديه فوق بطنه كما لو كان يُصلي. ”أخبرني بالحقيقة، هل حقًا أن عائلتي ليثن وهان تنحدران من شعب هذا البلد؟“

ضَحْكُ الراعي بينه وبين نفسه، وسعل بقَوَاقَاة. كما هي حال البالغين الذي يرون الأطفال يبلغون بدورهم، فلا تزال فايتروت صغيرة في عيني أوريلْيوس. حسناً، لقد نضجت، واكتسبت بعض الخبرة، لكنها لا تزال صبية. لذا، لم يصدمه السؤال، بل رغبتها في معرفة الإجابة. كما يحدث في كثير من الأحيان، عندما يسأل الأطفال عن العلاقات بين الرجل والمرأة، فلا يكون محتوى الإجابة هو المشكلة، وإنما اختيار الكلمات المُلائمة للتعبير عنها.

وكان لصرامته الرسمية اليد العُليا، فتحوّلت الأصوات المُبهمة إلى سيل من العبارات.

”صغيرتي الغالية، إن معرفتنا عن التاريخ تظل ناقصة. فلم ترسو سفن الألمان على شاطئ بلاد يسكنها الهمج، كما احتاج أسلافنا لأكثر من السيف حتى يُكملوا ما جاؤوا من أجله. وقد تأسست ليثونيا داخل لعبة الصراع بين السكان المحليين والقادمين الجُدد، والذين مثلوا قوة يُحسب حسابها. فقط، تقرر مصير ريجا في 1210، عندما انحاز كوبو، ملك ليثونيا⁽²¹⁾، إلى جانب الألمان. وقبلها، حاربت روما وفرسان أخويّة السيف الجرمانية ضد الليثونيين⁽²²⁾، الذين امتلكوا قاداتهم، ونُبلأهم أيضاً، والذين إن لم نكن قد عقدنا سلاماً معهم، لَتَمَّ إقصاء الفرسان

21- ليثونيا: الاسم الذي أطلقه الألمان في القرن الـ12 على الأراضي الواقعة على الساحل الشرقي لبحر البلطيق، والتي تُمثّلها كل من لاتفيا وإستونيا الحديثتين. وقد دعاها الألمان بهذا الاسم نسبة إلى الليثونيين وهم إحدى القبائل الوثنية من السكان الأصليين للمنطقة. انطلقت خلال القرن الـ12 الحملة الصليبية الشمالية بمرسوم من بابا روما سلسنتين الثالث، ومشاركة ممالك السويد والدنمارك والإمبراطورية الرومانية المقدسة (ألمانيا) بهدف تنصير الشعوب الوثنية بشمال أوروبا بمن فيهم سكان البلطيق، حيث غزت أخويّة فرسان التيوتون ثم أخويّة السيف المدعومتان من الألمان لاتفيا الحديثة، وأسسا ”كونفدرالية ليثونيا“، كما عقدوا تحالفاً مع كوبو التوريدي ملك قبائل الليثونيين الذي تحوّل إلى المسيحية وقابل بابا روما شخصياً، وبهذا انضمت ليثونيا إلى الحملة الصليبية على باقي شمالي أوروبا. (المترجم، المصدر: الموسوعة البريطانية)

22- السكان الأصليون لشمالي لاتفيا وجنوب غرب إستونيا.

القادمين من ألمانيا على الفور بهذه السهولة. بينما على الجانب الآخر، كان هنالك الكورلانديون، والزمغاليون المُنظمون، بالإضافة إلى اللاتغاليين⁽²³⁾، والذين تدرّبوا على شاكلة المصارعين الرومان، وقد جعل الألمان من أولوياتهم إيجاد حُلفاء وسط هذه المجموعات.“

بدأ أن أوريليوس كان مُندمجًا في نبرته التعليمية وأنه ينوي الحديث طويلاً، لكن تملل فايتروت الأنثوي لم يُكن مُلائماً للمحاضرات الطويلة.

”هل تقصد أن آل ليثن وهان ينحدران من نسل كوبوا!“

”لست أدري بشأن آل هان، أما آل ليثن فصاروا مُقطّعين⁽²⁴⁾ لأخوية السيف عقب استيلائها على ليثونيا. وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، عندما كان تجنيد المُحاربين المحليين لا يزال شائعاً، بدأ استعمال البارود، ما أدى لتدهور مكانة الفُرسان، والاستعاضة عنهم بالمسكيتين، والحرس الخيالة، والمُدْرعين. ألم تسمعي من قبل بالأقنان، والفرايهرز، والملوك الكورلانديين.“⁽²⁵⁾”

لا بد من أن فايتروت مصدومة، وهي تعرف ذلك، لكنها مُشتتة

23. القبائل الثلاث من سكان لاتفيا الأصليين الوثنيين، الذين قاوموا الحملة الصليبية الشمالية بقيادة ألمانيا لتتصير البلطيق.

24. المُقطّع vassal هو شخص دخل في التزامات متبادلة مع العاهل أو ملك الدولة، فيُقطّعه هؤلاء أرضاً (إقطاعية) لقاء تعهد المُقطّع بتقديم المساعدة العسكرية. ظهر هذا النظام لأول مرة في عصر شارلمان حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذي كان يهدي لأصدقائه المحاربين قطعاً أرضية كتعويض لهم عن مساعدتهم إياه في الحروب. (المترجم، المصدر: ويكيبيديا)

25. قبيلة سكنت على ساحل بحر البلطيق، فيما أصبح الآن الأجزاء الغربية من لاتفيا وليتوانيا من القرن الخامس إلى القرن السادس عشر، عندما اندمجوا مع قبائل البلطيق الأخرى. وانتسبت إليهم منطقة كورلاندا. (المترجم، المصدر: ويكيبيديا)

العواطف. فالمسألة أكبر من الإحباط الذي انتابها وهي صغيرة، عندما اكتشفت أن معدة دُميتها لا تملأها سوى نشارة الخشب، لكنها تشعر بمهانة عميقة. وتسعى لتمالك أعصابها، حتى تفهم ما يقوله العم يُواهم بالضبط.

”هل تقصد أننا لسنا ألماناً؟“.

”لا، ولمَ قد تظنين ذلك؟ إنكِ ألمانية. أكثر حتى من شعب ألمانيا، فأولئك ألمان لكونهم وُلِدوا ألماناً. أما أسلافك فقد صاروا ألماناً لأنهم أرادوا ذلك. وحتى هنا، في هذا البلد، أشارت الهوية الألمانية إلى طبقة أكثر منها قومية، إلى الحُكام، وأصحاب الامتيازات. لكن حتى ذلك البناء الراسخ، كشف عن بعض الشروخ، والمسؤول عن ذلك هو تفشي الموضة الغربية، والرغبة في تطوير المجتمع... لقد تُوفي يانيس شتاينهاور العام الماضي، والذي كان أحد أغنى مُلاك الأرض بفيدزيم والمنطقة المُحيطة بريجا، والذي كان ليصبح عُمدة، فقط لو ادّعى بأنه ألماني. لكنه بخلاف ذلك، عيّن باحثاً تاريخياً لإثبات أن له الحق في توريث أملاكه بصفته لاتفيّاً. كما تُوجد في كورلاند واقعة أكثر غرابة من ذلك، بطلها زميلي من سُوناست، جوتهارد فريدريش ستندر، وهو من نسب ألماني لا غُبار عليه، لكنه أُمّر في وصيته أن يُكتب على شاهد قبره أنه لاتفي! لا أعلم ما يعنيه ذلك بالنسبة له، لكن أفعالاً كتلك ليست بلا عواقب“.

”لكن أُمي كانت ألمانيةً بكل تأكيد! وأبي كذلك! إنكِ تعرف ذلك مثلي

تماماً!“.

”صغيرتي العزيزة، لقد أخبرتك أن المسألة ليست بهذه البساطة.“
بدأ يواهم غير سعيد. ”عقب الغزو، ظلت الحياة كما هي فترة من الزمن.
فقط، كان على السكان المحليين دفع الضرائب، وهذا كل ما في الأمر.
حتى ظهر أول الإقطاعيين من بين الفرسان الذين لم يرغبوا بالعودة إلى
بلدهم ألمانيا. فهل تزوج هؤلاء نساءً ألمانيات؟ وحتى الأسرى، وأبناء
القادة المحليين، كانوا يتزعمون في ألمانيا ثم يعودوا إلى هنا وقد
تشرّبوا المسيحية، مُنضمين إلى مصاف الطبقة العليا. تُوجَد أماكن
في فيدزيم وكورلاند حيث تُدعى المقاطعات بأسماء البارونات، ومن
يدري، إذا كانت تلك المقاطعات قد سُميت حقًا تيمناً بالبارونات أم أن
البارونات اكتسبوا ألقابهم بالانتساب إليها...؟ على مدار قرون، بدت
الهويات كأقنعة الدومينو الاحتفالية في كرنفال فينيسي..“
أطرق العم يواهم في انتظار اعتراضات فايتروت، لكنه قوبل بنظرة مُتحيّرة
وجافلة.

”لا أرى في أولئك الأسلاف مدعاة للخجل. وعلى الأرجح، فإنك بالفعل
سليلة النبلاء، في حين أن أسلاف العديد من الفرسان لم يكونوا أكثر من
قطاع طُرق. إن أبناء هذا البلد أقوياء، ويعيشون حياة طويلة. كما أن
فيدزيم وكورلاند زاخرتان بالجميلات من النساء. وسيدات فون بيرون
هن مثال خالد على الهجين البلطقي، ومنهن على سبيل المثال، مارتا
الأيكسينية، التي سحرت أقوى أقوياء روسيا، ثم أصبحت كاترين الأولى
إمبراطورة روسيا... وهكذا تجري الأمور... هكذا..“

انتهت المُحادثة بصداق في رأس فايتروت، فلم تفهم، ولم تدرِ أي
أسئلة أخرى تُوجهها. إن بمقدور أوريلْيوس رؤية ما ينتابها، فقد كدّر
وأحزن صغيرته العزيزة. ليُعِينهما الرب! فكم يشعر بالحسرة، إلى درجة

أنه لم يجد في جعبته سوى نصيحة عابرة حفظها من أيام طفولته، هي:
إن فعلت شيئاً سيئاً، فاركض نحوه.

كان وداعهما غريباً. حيث جلسا، وكلاهما مُنصِرفٌ لأفكاره الخاصة، يرمقان بعضهما بعضاً في صمت. وفي النهاية، سحب أوريلْيوس نفسه من الكرسي. وانتظر ليعرف إذا كانت ستقول شيئاً، ربما تقنعه بالبقاء أو إلقاء نكتة كدليل على أنها ليست غاضبة. لكن فايتروت كانت تهز يديها بعصبية. فانحنى أوريلْيوس لعبور الباب، ورفع ساقيه الممتلئتين في جواربهما السوداء والحذاء ذي الإبريم الفضي بحذر من على الأرض. كما لو أن فايتروت نائمة، ويخشى أن يُوقظها.

لكن الصدمة التي أحدثها أوريلْيوس ليست شيئاً مُقارنة بما حدث بعد أيام قليلة.

لَمَّا كان الصيف شديد الحرارة. غَفَت فايتروت لعدة ساعات، مُستلقية على ملاءة ناعمة أسفل تعريشة من الأشجار. وبجانبها كتاب مفتوح، ومخربشات ولوحات لنساء من القرن الثامن عشر يرتدين فساتين أنيقة، وهن مُعْتَصرات بالمِشَدَّات، وملفوفات بالكرينولين والحريير. لقد أَحَبَّت فايتروت النَّائِق في ارتداء الملابس، لكن ليس في الصيف، حين تتسكع في الخارج بعيداً عن أعين المُتطفلين. وقد سمعت مؤخراً، شائعات جامحة عن أردية مُخصصة لحمام الشمس، وللسباحة بالخارج. وعلى أمل أن تحمي التعريشة وجهها ويديها وكتفيها من الشمس، لبست فايتروت قميصاً تحتانياً خفيفاً فحسب، والذي يدعونه في بعض الأحيان قميص نوم، أو بيجاما، أو رُوباً. وترتدي فايتروت واحداً معقوداً برباط حول رقبتها، ويفيض بشكل طليق على جسدها، يلف قوامها، مثلما يلف الجرس حول لسانه. مؤخراً، بدأت تشعر بأفضل حالاتها عندما

ترتدي القمصان. ليس بسبب الحر فحسب، بل لأنها لم تعد راغبة في حشر نفسها داخل المشد المربوط بإحكام حول خصرها، والقابض عليه. إن جسدها يتغير، ويغمرها الإحساس العارم بالنمو، مثل برعمة مدفوعة بقوة لا تقاوم، فهي تينع وتنضج. من الرائع للغاية الاستسلام للحرية التامة، والإنصات إلى دقات قلبين بينما يتخلل النسيم بشرتها المُرَهفة. هي تعتقد بأن الملابس الواسعة تمويه مُناسب للحمل، طالما أنها لم تُخبر بعدُ والدة إبهارت. لسبب بسيط، هو أنها لم تعثر بعد على الطريقة المُثلى لإعلامها بأنها سوف تصير جدّة. كما لا تقدر على طلب شهادة ذلك الآخر، أي الآخر الذي يُعد رفقتها؛ الشخص الوحيد المُخوّل بالحديث عن المسألة. صحيح أن جبران مُخوّل كذلك، لكن آمالها خابت في العثور عليه. وهل من الوارد حتى أن تُصدّق أنا أميليا شهاداتهم؟ وهي لا تعتقد حتى بأن الأرض تدور، وأنه بالنسبة للناس في نصف الأرض الشمالي، يسير الناس في النصف الجنوبي مقلوبين رأساً على عقب، أوه، بل من الأفضل تجنب التفكير بذلك! تتراءى والدة إبهارت ثانية لفايتروت، بأصابعها النابتة المُرتعشة، وهي تصرخ: ”عار عليك يا تروات“. 'Trautchen, schämen Sie sich!' ولا تملك فايتروت أي فكرة عما سيحدث عند تسجيل الطفل بسجلات الكنيسة ومِلْكِيَة الأرض. لا، لا يجب عليها التفكير بذلك، لا يجب، لا يجب!

وقفت فايتروت، وابتكأت على إحدى ركائز التعريشة، ثم نظرت حولها، على ما يدعو آل بريغن بفخر حديقة قصرهم، والتي ليست أكثر من أيكة صغيرة من الأشجار البالغ عمرها قرونًا، مع أجمة من الليلك البري والعشب الخصب الذي لا يتم قصه، بل يُترك للماشية

كي تتغذى عليه. والتي كانت في هذه اللحظة، ترعى في ركن بعيد، حيث تُوجد بضع شجيرات وينفتح المنظر على جانب التل وصولاً للنهر الذي يجري أسفله. من مسافة بعيدة، بدت الوحوش ذات الصُوف أشبه بحجارة بيضاء منثورة على الأرض. بينما تطوف راعية الغنم عارية القدمين في تنورتها الرمادية، معها عصاها، ترقص بطريقتها الخاصة وتغني بسعادة. دون أن تدري فايتروت لِمَ شغلت الفتاة انتباهها، ولماذا دفأ قلبها بتلك المشاعر الرقيقة. لتدهمها أغنية الفتاة الصغيرة! والتي اعتادت فايتروت في طفولتها؛ الاستماع إلى مربيتها وهي تُغنيها.

لم تع فايتروت أنها بدأت في الدندنة مع الراحية. وقد تحوّلت ذكرياتها عن مُربيتها إلى لوحات تختلط بغرابة بالواقع. حُرّة من المشاغل اليومية، ومن لوعة الشك؛ حلّقت الذكريات حسبما تهوى ضد الجاذبية.

كانت البارونة كورنيليا؛ التي حلّت محل والدّة فايتروت الراحلة، مُتقلبة المزاج، وقاسية، وذات رائحة مُزعجة. أما الراحلة المُنبعثّة من الدادة، فكانت أشبه بالنعناع، أو المُرّوج أو حشيشة المُلوك. كانت الدادة قوية، ومتوردة، وناعمة، ولم تشعر فايتروت بأمان أكبر مما شعرت به بين ذارعِيها. وفي الليل، كان يُمكنها العودة للنوم بعد كابوس مُرعب طالما أن الدادة بجانبها تُداعب رأسها بأصابعها الرقيقة: ”نامي، نامي، ها هي الأحلام الحُلوة ستأتي“. كما كانت تخطب الدُمى المُلونة من خرق القماش. وإذا كان مزاجها جيّداً، تفك صفائرها تاركة فايتروت تُسرح لها شعرها بفُرشاة خشنة أو مشط. وبذكرها الدادة، تذكّرت فايتروت أيضاً القَصْرِية البورسلين، وكيف إذا خاضت مشقة أثناء الجلوس عليها، وجدت الدادة تُقرّص بجانبها وتضع ذراعها حول كتف فايتروت.

إن ذكريات فايتروت مفهومة، لأنه لم يُمكن تصوّر الحياة بالقرن الثامن عشر دون قعّادات / قصريّات الغرف. وذلك حيث ظهرت المراحيض للتو، وحتى فيرساي لم تكن قد حازت على وسائل الراحة الجديدة تلك. يُقال بأن راسترلي قد صمّم بعضها لقصر يلجافا. وفي حين قضت الطبقات الأدنى حاجتها، حيث عملت في الحظائر أو في الهواء الطلق، أو بجانب ماشيتها، استعمل النبلاء قصريّات الغرف، التي غُطيت بمنديل مُزركش، أو بغطاء فضي، والتي حملها وُصفاء الغرف والخدم بشكل دوري عبر أروقة القصور والإوان، مثل وعاء ما سريّ ومقدس. كما أنه في الحالات الأكثر إلحاحًا، استغل البارونات والدُّوقات أركان وأسيجة القلاع، فكان الأمر سهلًا، على السيدات بالأخص، لأن التنانير كانت منفوشة، ولأن الملابس الداخلية لم تكن موضة بعد، فما كان عليهن سوى مباحة أقدامهن بعض الشيء. فكان بمقدورهن فعل ذلك حتى دون التوقف عن الدردشة مع سيدة أخرى؛ لقد كانت مسألة تعود ليس أكثر.

لكن لم تُفضّل فايتروت الانسلاخ داخل الأركان. فواظبت على استعمال القصريّات التي كانت تُحضرها الوصيفات ثم تُعيدها. وحتى في هذه اللحظة، تحت التعريشة، ظلت هنالك قصرية على مسافة ذراع فقط منها. قصرية من البورسلين الميسيني الفاخر، وقد نُقشت فراشة نابضة بالحياة على مقبض غطائها. لكنها لا تفكر بذلك الآن، وإنما كانت مذهولة بالراقصة والمغنية الصغيرة. بالشمس، والماشية، والحقل الزاهر! بالرعية المجيدة! بالجيرة المُحيرة للطبيعة! فلم تستطع ماري

أنطوانيت نفسها قضاء اليوم دون أغاني الرُّعاة المصحوبة بالعزف على الفلوت.

راقبت فايتروت، اللقيطة الصغيرة في تنورتها الكتانية، فازداد خفقان قلبها. آه، كم تود العودة لصباها ثانية، مُرتاحة البال، دون ذكريات. ولم تلحظ حتى أنها تقدمت عبر العشب الذي ازداد كثافة حول التعريشة. ثم لمحت الراقصة تتوقف متأملة ما حولها، ثم ترفع تنورتها وتُقرفص. بينما فايتروت تُراقب، وتُراقب، ثم تلم قميصها المُسترسل، وتجلس القرفصاء كذلك، وتتمايل على امتداد بصرها؛ المروج، والأعشاب، وزهور البرسيم. بينما تقفز نحلة طنانة على إحدى السيقان، وتسقسق الجنادب.

وفجأة، يسهل حصان، فتنتفض فايتروت فون بريغن من مكانها في نهول. ويدخل الراكب إلى الحديقة من ناحية الفناء. وقد أصبح قريباً الآن، بحيث يستحيل ألا تعرفه، إنه إبهارت فون بريغن، زوجها! يا إلهي!
!Lieber Gott

(19)

سرعان ما استعادت يوهانا عافيتها عقب مُغادرتها الجيتو. ما عدا فروة رأسها، التي حملت بعض القُرح التي لم تندمل. ومن ثم، قصّرت شعرها، واستعملت مرهم الزئبق، وعرّضت رأسها للمُصباح الشمسيّ، فتحسنت حالتها.

”بيني وبينك، أشعر بأنهم قد استبدلوا البارونة هنالك.“
”حقاً؟“

”ألم تُلاحظ شيئاً؟“ بالطبع كنت قد لاحظت التغييرات الطارئة على البارونة. سارت تجارة جدي كالمعتاد، بينما جلست البارونة على طاولة المكتب كل صباح حسب عاداتها أيضاً. لكنها تجمدت بلا حراك أمام جرس الهاتف الذي كان يرن، ويرن، وهي ساهمة في مكان ما. وعندما يأتي أحدنا ويلتقط السماعة، تندهش البارونة، ثم تتلقى طلبات الزبائن بلطافة رسمية، وبعدها تشكرنا.

”لم أسمعه حتى!“

لكن ما كان غريباً حقاً، هي نزعتها الجديدة لخلط الأحداث بعضها ببعض. فقد تحدثت عن أفعال الروس وكأنها للألمان. وعن أفعال الألمان وكأنها للروس.. وُصِف المهاجرون من الشرق والغرب بالـ ”عناصر“، أي كنوع من فوران كيميائيّ خيالي له قدامن. في حين كانت

أجهزة التشيكا، والجستابو، وفرق المقاتلين، وفرق الحراسة، أقرب لأشباح الكوبولد الماكرة، التي كانت وفقاً للأساطير القديمة، طوالح للفال السيئ. حيث أُنذر ظهور الكوبولد بغرق السفن، أو بالموت إذا ظهر بالبيوت، كما أُنذر الكوبولد الراكب حصاناً عبر المدينة، باقتراب الطاعون، الكوليرا، والجذام.

في البداية، افترض جدي أن البارونة مُضطربة، وأنها تُعاني من تشنت انتباهه أنثوي مثالي. وحاول بدقة، تعيين التوقيت أو الملامح المميزة لأشباحها، بناء على الموقف. فكانت البارونة تُنصت بهدوء، ثم تواصل الكلام.

”رَقَصْتُ فئران ضخمة في كل مكان حولنا. وبدأ إسحاق في إطعامهم، فكان الطعام الوحيد المُتاح هو القوط الميته التي اختفت بالنهاية. وطالما تبقى شيء ليؤكل، ظلت الفئران ودودة بعضها تجاه بعض، لكن بمجرد أن يلتهموا القطة بالكامل، كانوا ينقلبون بعضهم ضد بعض“.

”بالضبط! ها هي خدعة كوبولد حقيقية“ صدق جدي على كلامها. ”التهمت بولندا من الفئران الوافدة من كلا الجانبين. والآن، تم قبول ستالين بنادي الرجال المُحترمين“.

”وهل ينفي عنه ذلك كونه فأراً؟“.

”عزيزتي يوهانا، أنت على حق، لكن ماذا صار بكِ؟ فلم يسبق لك الحديث بهذا الشكل“.

”الحياة تُعَلِّم. كان إسحاق يقول دومًا إن الوضوح هو العَرَض الجانبي لخوض الحياة. لم تكن ثمة أوراق للكتابة عليها، ولذا، أُغدق علينا بعروضه الشفهية. كما كان يُردد بأن الذكريات هي لقاح ضد إعياء الأوهام القديمة. لقد بدا أن الكوبولد السابق، صاحب خبرة كبيرة“.

”ماذا تعنين بالسابق؟“.

”حسنًا، إنه لم يُخَفِ مطلقًا حقيقة مساهمته في حملة التطهير بسجن لوبيكانا عام 38. بين الحين والآخر، يتبادل الجلادون والضحايا مقاعدهم“. بدا أن العالم قد انقسم إلى معسكرين، فاستعملت المجلات، والراديو وحتى الكتب، الإحصائيات والوثائق الدامغة، لترجيح كفة أحدهما. وبينما رفض أي بلد آخر استقبال اليهود الفارين من ألمانيا، استقبلت لاتفيا الكثيرين منهم. لكنهم ردوا الجميل بتحطيم حُرَيْتهم، لأنه من بين آلاف الأعضاء بالحزب الشيوعي اللاتفي غير الشرعي، كان نصفهم تقريبًا من اليهود. حتى إنهم عملوا بالتشيكا بعد دخول الروس. ولمَّا لم يجدوا ما يُدينون به اللاتفيين، فقد اضطهدوهم في عام 1940 على استعمال كلمة ”يهودي“.

إن القصص التي سمعتها البارونة، والأشياء التي لا تحصى التي مرّت بها، دفعتها في اتجاه مُغاير تمامًا. كما لو أن غيمةً كثيفةً وسامةً كانت تملأ الهواء، فتسد ناظريّ ببطء، وتجعل أصواتًا غريبةً تطن في أذني.

”لماذا لم أعرف بأن ”يهودي“ هي كلمة مُسيئة؟“ تساءل يانيس مستاء.

”إنها إساءة مُصطنعة“. لم ينزعج جدي على الأقل من السؤال. ”حسب

ما أرى، يُمكنك أيضًا تسميتهم إسرائيليين. فكل تلك المُصطلحات ضاربة في القدم، ولا يُمكن استئصالها. إن اللغة كائن حي، وهي تتطور. يُفترض بأن الكنعانيين هم أول من استعمل كلمة "يهودي"، كما أن الكلمة اليونانية hebraios تعني "على الضفة الأخرى"، أي "أولئك الذين يسكنون وراء النهر". ها هم، لا يسكنون وراء النهر، لكن بيننا. ألم تلاحظوا أيها الأولاد، أن لاتفيا بها مسرح يهودي، ومؤسسات يهودية، ومدارس يهودية. فإذا كانت الكلمة مُسيئة حقًا، هل كانوا ليستخدموها بأنفسهم؟

ورغم أنها كانت بيننا في المنزل، إلا أن البارونة ظلت أسيرة الجيتو. حيث واطبت على معرفة ما يحدث هناك، إذ كانت تستفسر من الزبائن المارين بالمكتب أو المُتصلين على الهاتف.

وذات يوم، بينما تقرص أذني بلطف، قالت: "يجب أن تعرف أنت أيضًا. بأنه قد بدأ الأمر، فقد شكّت المرأة التي حجزت عربة زفاف اليوم، من الزكام الذي أصابها في الليلة الماضية، لأنه لم يُسمَح لأحد بعبور الطريق بينما قاد رجالٌ مسلحون طابورًا طويلًا، طويلًا للغاية من الناس باتجاه غابة بيكيرنيكي..".

ولاحقًا، عاد جدي للمنزل بأخبار عن اقتياد النساء والأطفال تحت الحراسة باتجاه غابة رومبولا. كانت ليلة غير عادية، حيث السماء الخريفية المُرصعة بالنجوم، ومن ثم، تناهت لنا أصوات أشبه بالمعارك. وبادرت العمة ألما بإخبارنا أن فرّاء الفُقمة والثعلب الفضيّ والملابس الفاخرة ظهرت بالسوق السوداء. وفي ما يُشبه السحر، تزيّنت النساء الوضيعات بالعقود واللالئ والأحجار الكريمة الأصلية.

في ذلك الحين، اكتسبت اللغة اللاتفية مُصطلحًا جديدًا هو: قاتل-اليهود، كمرادف عن القاتل.

أما بخصوص من ينطبق عليهم هذا المصطلح، والأساس المبني عليه، فلم يكن باستطاعة أحد؛ ولا حتى البارونة الإجابة عن ذلك. فقط، ظهرت إشاعات وتخمينات شنيعة ومُتوهمة لدرجة غير معقولة. وبالطريقة ذاتها، رَسَخَ الاعتقاد بأن الطيَّار عضو بفريق قتلة-اليهود كحقيقة لا تقبل الجدل. أما أنا فأخذت بالاعتبار واقعة لقائنا بالجيتو التي قد تدحض ذلك. ولم يحدث أن جدي أو البارونة استدعيا المسألة في أحاديثنا المسائية.

لم نعد نرى الطيَّار بكثرة في القصر خلال الآونة الأخيرة. من المُرجح أنه أخذ شقة بوسط ريجا؛ فلم يكن من داع للسكن بجوار المطار بعد أن تمت إزاحة الطيَّارين اللاتفيين جانبًا. ورغم ذلك، لم تتبدد هالة المُغامر التي أحاطت به مثل عباءة سوداء، ولا نظرة جدي له على أنه شخص يصعب تخمينه. فقد منحنا انطباعًا دائمًا بأنه: نصف قرصان، ونصف مُغامر، أشبه بلصوص المعابد.

التقيت الطيَّار مصادفة بدار الأوبرا. كان يرتدي بذلة الطيران العسكرية القديمة، بجيب الخرائط على صدره، والكاب الأسود بإطاره المخملي. فتذكَّرت النجمة الحمراء، ونظرت مُتفحصًا إذا ما خاط شارة أخرى محلها أم لا. لكن شيئًا لم يتغير منذ لقائنا بالجيتو. وخمَّنت أنه كان مُضطربًا لارتداء زيه العسكري القديم بسبب ضائقة الحرب.

كان الأحد أكثر أيام جدي ازدحامًا بالزبائن. فلم يكن شائعًا بعد عقد الزيجات أو الجنازات بغير أيام العطلة. أذكر أننا كنا في منتصف ديسمبر، وقد غطى غبار ثلجي خفيف الأرض. ولأنني لم أبا لي أين أحل واجب الجبر أو أدرس النحو الفرنسي، فقد جلست على طاولة المكتب أمام الهاتف، ومن آن لآخر كنا أنا ويانيس نفعل ذلك. فكانت البارونة تشكرنا، ثم تلقي معطفها من فرو الثعلب على كتفها، وتُغادر. وبينما سرحت نُتف من الثلج عبر أشعة الشمس في قشور صغيرة للغاية مثل رقائق النفطالين. كانت السماء المُغْبِثَة هي ما جذب وأسر انتباهي، وإلا ما كنت سأنظر إلى ما وراء النافذة.

وبعد قليل، عادت البارونة للمكتب، فبدت محبطة.

”هل حدث شيء ما؟“ سألتها.

”لقد طلعتُ لزيارة عائلتي“ لم تُوجّه البارونة حديثها لشخص بعينه، لكن حدّقت بدفتر السجائر بين أصابعها، والذي لم تستطع أن تلفه بدقة.

”صحيح،“ قلت: ”ما رأيك لو تزورينهم باستمرار؟ أعني بودو، ولسلوت، وأولريش“.

”بالطبع“.

”هل هذا كل شيء؟“.

ألقت البارونة بلفافة السجارة على الطاولة، والتقت أعيننا.

”الآن، هنالك أيضًا صبية في السرداب“.

”أي صبية؟“.

”لقد أُحضِرْتُ الليلة من الجيتو“.

”الجيتو؟ وَمَنْ الذي أحضرها؟“.

”إنها ترفض كشف هويته، ولن تفعل، حتى لو غرزت الإبر أسفل أظافرها“.

شعرت بثقل أطرافي. في السرداب... في الشتاء! لحسن الحظ أن الثلج ليس سميكا، وأنه ليس هنالك مُتزلجون بالجوار، وإلا وجدها أحدهم بالصدفة.

”علينا انتظار جدي“. نطقت بنبرة حازمة.

عاد جدي للمنزل مُتعباً، لكن الأخبار بشأن الفتاة أفاقته على الفور. فكان أي شيء يدغدغ مخيلته، أو يخرج عن المألوف؛ يملؤه نشاطاً كما كان يصف نفسه. وعقب التصريح بأن هنالك ”أمراً خطيراً“، فإن من لا يعرف جدي جيداً، سيظن بأنه كان لينكمش مُتردداً. في حين لم تعن تلك الكلمات بالنسبة له، سوى أنه مُتعهّد بالأمر قلباً وروحاً.

قال جدي بأنه سيذهب لاستكشاف الأمر بنفسه، لكن البارونة، التي علمت مكان الصبية، رفضت الجلوس، وقامت كي تُرافقه. وفي النهاية، عملنا بنصيحة يانيس، وذهبنا نحن الأربعة. فإذا كانت الصبية لا تزال بالسرداب، سوف تتنكر في معطف يانيس وقبعته، حتى نعيدها معنا إلى المنزل كي تستريح، بينما يتسلل يانيس إلى المنزل عقب مرور بعض الوقت.

وكما يحدث عادة في ديسمبر، فقد حلّ الليل بسرعة. إن الخيال قوة جامحة، فالطريق الذي سرنا عبره مرات لا تحصى دون أدنى خاطرة،

ضَاعَفَ كل دقة من دقات قلوبنا. لقد سرنا في هدوء، في صف طويل،
أوله البارونة، ثم جدي، ثم يانيس، وأخيراً أنا. وكانت الأرض مُتجمدة،
واختلطت طبقة الثلج الخفيفة بالرمل والتصقت بأحذيتنا. وقد بدت
خطواتنا ثقيلة، لكن ليس بسبب الرمل.

بدا السرداب في الظلام الكثيف مهجوراً بشكل ميؤوس منه. حتى بدا
من السخافة التفكير بأننا قد نجد كائناً حياً هنا. وكان من المُتَعَذِّرِ عَلَيَّ
تخيّل هذا الكهف الرطب كمكان دائم للإقامة. صحيح، يُمكن التجول
فيه مثل عُلية حيث قد ترفرف فراشة أو يلجأ إليها عصفور كناري هارباً
من قفصه.

وكما لو أنه قد قرأ أفكارِي، توقف جدي أمام السرداب، والتفت نحونا
هامساً:

”لا أظن أنه يُوجد أحد هنا.“

”انتظروا هنا، وسأقول شيئاً، حتى لا ترتعب هي.“

صرّ الباب الحديدي بصو عالٍ وهو ينفتح. فلم يسبق أن بدا صوته
بمثل هذا الوضوح وهذه الحدة.

”لا تخافي..“

ثم صرخ صوت طفولي ضعيف في الظلام. وكان يرتجف في تأتأة
تُشبه ضوضاء ماكينة الخياطة القديمة. ومدفوعاً بحماسة، لم يستطع
جدي الحفاظ على صوته هامساً، فتكلّم، لكن بنبرة لطف جعلت صوته
مصدراً للأمان. وأرادت البارونة أن تُدخّن، فلفّت سيجارة. وعلى ضوء
الكبريت، رأيت وجه الصبية، أو بالأحرى عينين واسعتين ولامعتين.

ثم تبين أن الصبية طويلة مثل شخص بالغ. وقد لبست معطفًا مقلسًا فوق معطف آخر، يُشبه ما يرتديه الفلاحون الطيبون في الرحلات الطويلة. ربما أحسّت في باطنها بأنه لا يجب أن تخشانا. كانت ستنتقل لمسافات أبعد، وصحيح، كان لديها بسكويت لتأكل، لكنها كانت ظمآنة. لكن فجأة، سُلط علينا شعاع ضوء أبيض.

”ارفعوا أيديكم! ما الذي يجري هنا!“.

ومن ثم سكنت جميع الأصوات والأنشطة، كما لو أن شريط الفيلم قد احترق.

”ما الذي يجري؟ نحن من يرغب في معرفة ذلك.“. كان جدي أول من استعاد اتزانه.

تمايل الضوء الأبيض، كاشفًا حامله بعض الشيء. فكان هو الطيَّار واقفًا عند المدخل.

شعرت بأنني سقطت بإحدى قصص المغامرات التي اعتدت قراءتها في الطفولة. وبدا أن كل ما سمعته عن أفعال الطيَّار الغامضة معقول. فقد كان يتبع البارونة بتكتم وصبر في كل خطوة، في انتظار اللحظة المناسبة للأخذ بالثأر مقابل إحراجة عند سرقة لحم الخنزير. ومثل لاعب بلياردو، ضربت تسديده ثلاث كرات دفعة واحدة: البارونة، ونحن، والصبية التعيسة التي انكشف أمرها بسببنا، فقد قُدنا الصيَّاد إليها مباشرة.

”أوه، إنه أنت! لا أحد غيرك“. بدا أن الطيَّار ليس أقل اندهاشًا منّا.

كم من أمور عجيبة، وغير معقولة قد تحدث في عمر المرء! فالمباني
الفولاذية تنهار، وتُسمع أصوات الملائكة وسط زُقاق الكراهية، وتنسل
الأفعى خفية وعلى رأسها تاج الملك، كما تنسل الحقيقة على وجهك مثل
نسمة هواء بالكاد تُثير رموش عينيك.

لم يتبعنا الطيَّار، ولم يتعرف علينا، ولم يتواجد هنا بفضلنا.

أراد جدي قول شيء، لكن أمسك نفسه، متمسكاً بهدوئه ومهابته
المُعْتادة. في حين دخّنت البارونة بثبات. وذهب الطيَّار ناحية الصبيّة.
”إنها ليّاً“ نطق بصوت بدا -للأمانة- على قدر من الصفاقة المألوفة
لي. ”لا بد أن تبقى هنا لبضعة أيام“.

انتظر الطيَّار برهة حتى يرد أحدنا؛ ولما لم يحصل على رد، أضاف
بذات النبرة:

”أمامنا أسبوعان، حتى تسنح الفرصة بتهريبها“.

”أظن أنه سيكون من الأفضل مناقشة ذلك بالمنزل“ قالت البارونة.

عندما كنت ألعب الدومينو أو بيتر الأسود رفقة البارونة. كنت أجرب
الاستسلام بكليتي لحرارة اللحظة. والآن، كان الكابوس قد تراجع
تدرجياً إلى عقلي الباطن، لكنه دون أن يختفي كلياً. لقد عُدنا بهدوء
عبر الليل إلى المنزل. مثل أشباح سوداء، أو هكذا أظن.

(20)

لا، حقًا، إنها ليست مُخطئة! فليس ما تراه سحرًا من أسرار الظهيرة. بل إبهارت ينزل من على حصانه، ويمشي نحوها. مُبتسمًا في زهو، وناقراً بالسوط على حذائه الطويل. تمامًا، مثلما تمتن قاييتروت في أحلامها وتاقت لأن تراه، وأن تحظى به ثانية.

...وهي تستيقظ، بينما إبهارت بجانبها على السرير؛ أو تفتح الباب فيسقط إبهارت بين ذارعيتها؛ أو تركض نحو عربة نزل إبهارت منها للتو.

والآن، ها هو! والأدهى من ذلك، أنه بكامل نصفه العلوي! كما لو أن شيئًا لم يحدث. أو أنها ربما، مُجرد نُسخة مُجمعة أخرى منه؟ يا إلهي، لماذا لا تشعر بالإغماء؟ فمن المفترض أن السيدات يُغمى عليهن بمثل تلك المواقف، فتلك طريقة مُهذبة لتدارك الأمور. لكنها في المقابل، ظلت تُحدق فيه بسذاجة وبأقدام ثابتة. دون أن يفِي المرح بوصف المشاعر التي داهمتها، مشاعر الدهشة، إنها كذلك دون شك. تكاد قاييتروت تموت من الفضول بشأن ما هو قادم. كما لو أنها واقفة على شاطئ بحيرة، تُراقب مخلوقًا غريبًا وهو يسبح نحوها، مخلوقٌ مألوف، لكنه غريب كذلك.

كذلك، بدا أن إبهارت يشعر بالمثل. فكان سلوكه مُترددًا. فلم يُظهر أدنى لفظة من الحنين، رغم الفراق الطويل. ولا حتى الرغبة في ضمها إليه

كما اعتاد دائماً، أو حتى معانقتها. وبمزيد من التدقيق، فإن الابتسامه المُختالة على وجهه، كانت بدافع من الانقباض والألم لا أكثر.

”انظري، ها قد عدت“. إنه إبهارت – كما يظهر بجلاء، ومَن غيره؟ – يقف على مسافة قصيرة منها، وينقر ساق حذاءه بعنف هذه المرة.

أوه، لقد استحي لقميصي التحتي، فكَّرت فأيتروت فجأة. ثم أَلقت بروب حريري مُخرم فوق القميص، لكن لم يبد أن إبهارت قد انتبه لذلك فواصل كلامه:

”لقد عدت“.

”هكذا يبدو الأمر..“.

بدا الوضع مُريباً إلى حد ما. فلم تقل فأيتروت ما يجب عليها قوله، أو ما ترغب في قوله. في حين تفجَّرت الأفكار الهامشية داخل رأسها، فانبثقت كلماتها على نحو غير مُناسب.

”أتمنى ألا تُصدري حُكمًا صارماً عليّ. فليس لديّ أي أوهام عن أن علاقتنا قد تعود لسابق عهدا. لأن الكثير قد تغيّر. وإلقاء اللوم على أي شخص في هذه المواقف هو..“.

”ومن المُلام على ذلك؟ هل تقصد الجراح؟ أو الانقسام إلى نصفين؟“.

”أيّ جراح؟ وما دخله أيّاً كان بهذا الأمر؟“.

ابتسم إبهارت بتكلّف. وزاغت نظرتَه جيئةً وذهاباً بلا هوادة، هاربة من فأيتروت، وعائدةً إليها.

”حقاً، تجعلك بعض المواقف ترغيبين في شطر نفسك إلى نصفين...“

سأخبرك بكل شيء ذات يوم، لكن ليس الآن، دعينا نرمي الماضي وراء ظهورنا ونبدأ من جديد“.

”هل تعني بأن أحد نصفيك، ظل في مكانه على الدوام؟ إذا، فلتخبرني حالاً ماذا حلّ بالنصف الآخر؟“.

”حبيبتي قايتروت، لم تُثقلين على صدري بحجر آخر؟ فلن ينفعنا الحمل الزائد، لكن ما دُمتِ مُصرّة، فدعيني أخبرك. أولاً، ذهبت إلى الدنمارك، وبعدها إلى أمريكا“.

”أمريكا!“.

”ما الداعي للدهشة؟ فقد طلب لافاييت مزيداً من المتطوعين. ومن دون الدعم الفرنسي، لم يكن الأمريكيون ليقدرُوا أبداً على التحرر من البريطانيين“.

”دون الدعم الفرنسي؟ البريطاني؟ ما دخل ذلك ب، ب..“. توقفت قايتروت، إذ لم تشعر أن بمقدورها اختصار مشاعرها في مجموعة من الكلمات، والتي تصطدم بقطار أفكارها مثل انهيار صخري عنيف، يسد الطريق من الأمام والخلف.

”تراوت، أتوسل إليك! دعينا نؤجل ذلك! أنا لا أنكر ذنبي، لكن القصة أطول من اللازم“.

فهمت قايتروت على الفور أن المسألة تتعلق بامرأة. وبقدر ما بدت فكرة غير معقولة، بقدر ما خشخت في عقلها. ليس بدافع الصدمة من خيانة إبهارت، بل لأنها أدركت: إذا كان إبهارت قد خانها في أمريكا،

فإنه لم يكن ليعود إليها! فأى خيانة غريبة تلك، التي سيرتكبها دون نصفه السفلي، إلا إذ كان الطفل الذي تحمله في بطنها لا يمت له بصلة!

لكنها لم تعد راغبة في التفكير أكثر من ذلك. إن إبهارت مُحق، دع الأمور وليحدث ما يحدث. فقد صار ذهنها أشبه بعقد منفرد، تتساقط حباته، وتتدحرج على الأرض، وتتبعثر في جميع الاتجاهات.

”هيا لندخل“ تكلمت فايتروت بصوت خافت. وحتى لا تكشف عما يدور بصدرها، تشجعت بالنظر في عيني إبهارت، ولوت شفاهها بابتسامة. فتهد إبهارت بعمق، وأمسك يدها حتى يقبلها. ثم التف بمُجرد أن سوّى قامته. لكن فايتروت لمحت دمعة اللامعة بنور الشمس على أحد طرفي أنفه. ولبرهة، أعتمت اللوعة رؤيتها، مثلما يفعل الفستان مُنزلقاً من رأسها أثناء ارتدائه. فلم تعد تُبصر شيئاً، لكن جسدها كان مشدوداً لكل من الرائحة والملمح المألوفين بالنسبة لها.

كانت تُرحب باحتضان إبهارت لها. ومهما يكن، فإنها تفضّل التحدث إليه ثانية. كما تعصرها الرغبة في الالتصاق به لدرجة جعلتها تشعر بسريان الدم في خديها. وذلك بينما يبدو إبهارت مُكتفياً، يستجمع شتات نفسه، دون أن يُلقي لها بالاً.

”شكراً لك“ قال إبهارت ”أفضل لو ذهبتِ أولاً لتحضير أميليا أنا نفسيًا، فقد تُسبب رؤيتي المفاجئة صدمة خطيرة على أُمي“.

إن الدوامة المملة والرتيبة للحياة بالقصر، قد قضت بعزل كليهما عن الآخر لبعض الوقت، فارضة مسافة بينهما. وذلك حيث برز أشخاص آخرون وأحاديث أخرى. فكانت فايتروت سعيدة بالبقاء وحدها بينما

يُحادث إبهارت والدته، أو يُحضّر له الخدم حمامًا، أو خلال الولايم العائليّة المُقامة احتفالًا بعودته. انتظرت فايتروت انتهاء الهرج. فبالأكيد، لا يُمكنها النظر بعيني إبهارت والتظاهر بأن ما حدث بلا معنى، أو أن العلاقة بينهما ستعود لسابق عهدهما. لكن الأسئلة لم تعد تُثقل صدرها كالحُمى. مثلما لم تعد هي تشترك بالأحاديث، فهل يعني ذلك توقف الناس عن لوك الكلمات؟ إن الحياة ستستمر، حتى ولو تأرجحت فايتروت في الفراغ كورقة شجر تذروها الرياح دون أدنى فكرة عن كيفية الرجوع للأرض أو ما سيحدث بمجرد العثور على طريق عودتها إلى المنزل. كان إبهارت يُحادث أمه، أو يستحم، أو يلتهم أرنبًا مشويًا، أو يُدخن غليونه الهولندي الطويل بأناقة. بينما كانت فايتروت تُرفّه عن نفسها، وترطب شفاهها بمنديل، أو تومئ للخدم بتوضيب الطاولة. وحتى الطفل، الكنز الحي في رحمها، تصرف باعتيادية، فكان يركل بين الحين والآخر، كما لو يعترض على الظلام، هذه المساحة الضيقة وغير المريحة التي يسكنها. عجبًا، كيف لم يلحظ إبهارت شيئًا؟ وقد اعتاد في ما مضى أن يولي خصرها انتباهًا خاصًا.

بحلول الرمح الأخير من الليل، هدأت الدوامة، حيث صعدت أنا أميليا إلى غرفتها، وتسربّ الضيوف مُغادرين تباعا. ومن ثم، صعّد كل من فايتروت وإبهارت للنوم. وبداعي الاحتياط، أرسلت فايتروت بون إسبريت وإيما اللتين قرأتا ما يدور داخل ذهن إبهارت.

وكانت فايتروت مُحقة، إن لم يقف إبهارت بالباب متمنيًا لها ليلة سعيدة، بل تبعها إلى الداخل. وسيكون من السخافة أن تصده معتذرة بالإرهاق أو بكونها في منتصف دورتها الشهرية. فهل تُريد تسيير

حياتها بهذه الطريقة؟ وأي شيء ستجنيه من ذلك؟ طالما أنه لا مفر من الوضوح، عاجلاً أم آجلاً.

طُوت إيما الأغطية فوق السرير الواسع. وأوقدت الشموع. وخطت فايتروت قليلاً إلى السرير ثم توقفت. بينما إبهارت يتبعها، ويتوقف بالقرب منها. ومن ثم، يقفان في صمت.

”بماذا تفكرين يا تراوت؟“ وجدت فايتروت الصوت الذي افتقدته منذ الشهور الأولى لزواجهما، فكان لطيفاً ومتردداً في عدوبة. وهي تعرف، أنها في هذا الوضع، ولدى سماعها تلك النبرة، فلا حيلة تبقى لديها، ولا شيء ترغب فيه سوى الالتفاف نحوه والارتقاء بين ذراعيه.

هذا بالضبط ما تفكر فيه. لكنها فكرة فظيعة لدرجة أفزعته، وقد دارت نحوه فكانت سعيدة -بل الأسوأ- مُثارة لرؤية أن الشخص الواقف وراءها هو بارثولوميو أولست.

بماذا أفكر؟ التفت فايتروت، وبالطبع، وجدت إبهارت واقفاً هنالك. ”إنني أفكر، في أن الأيام تُشبه -بطريقة ما- بطاقات اليانصيب، أكثرها بلا قيمة، وعدد قليل للغاية منها هو الرابح.“

”يُمكننا اختراع طريقة جديدة لتعيين الوقت، والبدء بهذه اللحظة تحديداً. لكن مع استعادة جميع الأيام التي ضاعت.“

وببطء، كما لو كان يعبر رباحاً مُعاكسة، عَبَرَ إبهارت المسافة بينهما، ومن ثم ضَمَّ فايتروت بقوة إليه. لكنها أدركت أنه حتى في هذه اللحظة، تحوّل وجه إبهارت إلى وجه أولست. ويغمرها الخجل؛ استسلمت لِقُبَلات

إبهارت؛ هذا التسليم المتقد الذي لا تملك في ما يعقبه من أمرها شيئاً... كانت أول فكرة تخطر على ذهنها المضطرب بالأحاسيس هي الطفل، يا إلهي Lieber Gott، هل نجا من ذلك؟ لو مسّه أي سوء، فهي المُلّامة وحدها. إذ يبدو أن إبهارت غير واع بحالتها الحقيقية. أمره غريب، إن كان لم يُلاحظ الأمر وهي في ملابسها، فكيف لا يلاحظه الآن، حيث لا وجود ولو لقميص نوم يفصل بينهما... خاصة، أن أصابع إبهارت كانت حسّاسة دوماً.

رقدت فايتروت في شبه دائرة، وهي تمد إحدى يديها إلى حافة السرير مُتشبّثة بالبطّانية، والأخرى أسفل ظهرها لأجل أي ما كان يحفر بين رذفيها. فيما عثرت على مشدها محشوراً بين وسادتين.

في ما بعد، رقد إبهارت على بطنه عند حافة السرير، فارداً ذراعيه، يحاول التقاط أنفاسه. تاركاً إياها بعد أن استثّيرت تماماً، تلك العادة البغيضة هي مثال على شخصية إبهارت، التي يُقلع عنها بسرعة، فيكاد يكون هارباً. الشيء الذي كان يدفعها للبكاء عادة، حتى إنها صارت تسترجع هذه المواقف بقشعريرة مُفزعة تسري في بدنها. فهل كانت شهوة إبهارت العارمة وشدته، وأحياناً قوته الغاشمة تدل على رغبته في أن يصير أقرب إليها وأن يشعر بها بأكثر ما يُمكن؟ ربما كانت تلك معركة بائسة للنجاة من هاوية فحذيهما، ومن طراوة يديها التي تتوق للمسته؟ صراع بين الحياة والموت، يغوص عميقاً حتى يهرب مُجدداً، مُقلعاً عن رحيق الحياة لكن من دون أن يستسلم كلياً. فحالما انتهت المعركة، تركها إبهارت بتنهيدة عميقة مثل خصم مُجهّد، وتدحرج نحو حافة السرير. وهكذا، انفصلا لبعض الوقت، قبل أن يعود كل شيء إلى موضعه، وتذك معركة الحميمية حصون الهدوء.

لقد ذكّرتها الطريقة التي تشاركا بها السرير، بالموتى الراقدين في أكفانهم، حيث كانت البطانية الشيء الوحيد الذي تشاركا، فلم تتلامس أجسادهما، وإنما عقَد كل منهما ذراعيه فوق صدره، واضعاً رأسه على الوسادة، وناظرًا لأعلى.

”من هي؟“ عرفت فأيتروت أنه لا جدوى من السؤال. وأن غيرتها الأثوية تدفعها لمضايقته، وأنه من السخف إظهار ذلك له. لكن فضولها، أو ربما رغبتها لإرضاء غرورها كانا أقوى من كل شيء.

”هي؟“ ردّ إبهارت، فبدا أن صوته يصدر طواعية دون أن تتحرك شفثاه. ”زوجة زميل مُجنّد“.

”وقد جلست هنالك، في أمريكا، بمفردها؟“.

شقت ضحكة إبهارت الصاخبة الظلام.

”لا تبقى النساء القوقازيات وحدهن في أمريكا. لا تقلقي بشأنها، فعلى الأرجح أنها صارت زوجة أحد الجنرالات أو أصحاب المزارع“.

”يا له من بلد فظيح“.

”أرض الفرص“.

”لكنك لم تبقَ هناك“.

”بلى، لم أفعل. فأنا أرسقراطي، رغم أنني لم أفهم من قبل ماذا يعني ذلك. لكنني الآن قد فهمت، فليس لذلك شأن بالألقاب، لأن الملوك يُمكن غرسهم في أي تربة، أما الأرسقراطيون فلا. في أمريكا، كان بمقدوري

أن أصبح مُليونيراً، أو مالِكاً لمساحات شاسعة من الأراضي. لكن حتمًا كنت سأفشل في أن أكون أرسقراطيًّا هناك. ولذا، لم يكن أمامي سوى العودة إلى ما يجعل مني أرسقراطيًّا: هذه الأرض، وتقاليد طبقتنا، ورؤيتنا الخاصة للعالم. ونعم، إليك أيضًا، يا تراوت، لأنك جزء من التربة حيث تنبت أرسقراطيتنا“.

لم تعد فايتروت قادرة على الإنصات في صمت، فوقفت على السرير فجأة، حتى إن قلنسوة نومها مالت على إحدى أذنيها بشكل هزلي، كاشفة عن شعرها الطبيعي، الذي ظل مُحْتَجَبًا أسفل باروكتها البيضاء المرشوشة بالمسحوق طيلة اليوم.

”ألم يسبق لك عبور نهر أمور؟ ولا الإصابة بدانة مدفع تركية؟“.

”ما المغزى من هذه الأسئلة الغريبة؟ ومنذ متى وأنتِ مُطلعة على جغرافيا الحملة القوقازية؟“.

”رجاء جاوبني! لأن جوابك مهم فوق ما تتصور!“.

”بالتأكيد، كنت هناك. وهناك أيضًا أُصبت، قبل أن يؤول بي المطاف في ريفال“.

ربطت فايتروت شرائط قلنسوتها أسفل ذقنها. في شكل قوس، ثم فكتها، ثم عقدتها مُجددًا.

”هل كان بارثولوميو أولست هناك أيضًا؟“.

الآن، وقف إبهارت هو الآخر فجأة. ثم حاول مداراة دهشته عبر ابتسامة هازئة، لكنها جاءت هزيلة، كما انفضحت فيها صدمته المُبْطَنَة.

”وأنتِ، هل تعرفين بارثولوميو أولست؟“.

لم تدر فايتروت بماذا تجيب، وأحسّت بجسدها يتصلب، ما عدا أصابعها وشرائط قلنسوتها.

”نعم، كان أولست هناك“ واصل إبهارت، مُدركًا أن فايتروت لن تُبأِر بأي إيضاح، وكانت إصابته أكثر خطورة. في المعدة. إن جروح المعدة رهيبية. أظن أنه قد مات.

”مات؟“.

”ما الداعي للاندھاش؟ فنادرًا ما ينجو أحدهم من إصابات المعدة. وحسنًا، لنفترض بأنه لم يموت. فما أهمية ذلك؟ طالما أنه لا تربطنا به علاقة ما جعلنا نهتم بحياته. هذا ما لديّ، وليست لديّ معلومة زيادة عن ذلك الرجل“.

توقفت البارونة عن عقد الشرائط وحلها. وتداعت يداها على البطّانية أمامها. وحتى عيناها بدتا مُتجمدتين.

”إبهارت..“. نطقت فايتروت عقب فترة من الصمت، صمت قد نرّ منها كسم ينزّ من عضة ثعبان، صمت العجز عن إعادة الأشياء لسابق عهدها، وانتظار النهاية. ”لكنك بحاجة لمعرفة أمر ما..“.

”حيال بارثولوميو أولست؟“.

”وحياله هو أيضًا“.

طوت فايتروت البطّانية، ورفعت قميص نومها، ثم أخذت يد إبهارت واضعة إياها على انتفاخ بطنها.

”أنت رجل بالغ، ولا بد أنك تفهم أنه إذا كانت المرأة بمثل هذه الاستدارة ، فلأنها حامل. وأنا لست استثناءً. حتى نهار اليوم، كنت لا أزال مُقتنعة بأنه طفلك. أو على الأقل، هو جزء منك. لكن بعد إنصاتي لما قد قلته للتو، فلم يبق غير التسليم بأن والده هو بارثولوميو أولست“.

لا شيء جديد قد نقصه على القارئ هنا. لأنه يعرف بالفعل القصة التي أخبرتها فايتروت لإبهارت. ومع ذلك، فليس ”الخبر“ الكلمة المناسبة لوصف ما فعلته. فهي لم تُخبره، بل كانت أشبه بامرأة على شفا الولادة لا يُمكن احتواؤها. فلا خوف لديها، ولا منطق، وحتى هاجس الموت لا يشغلها. فلا يدهمها المستقبل، وإنما الرغبة في الفكك فحسب.

كم كان عجيبًا ذاك السيل المنهمر منها، إنه بحق شلال من الخطايا.

بدافع من غريزتها الأنثوية، ومن الحاسة السادسة التي كانت تدعوها ألبرتتين ”بصيرة الحمى“، عرفت فايتروت أن بمقدور إبهارت قبول حملها من رجل آخر (فذلك القرن الثامن عشر بعد كل شيء!). فلم يكن الوحش الذي مزق روحه بأسنانه الحديدية، لم يكن سوى بارثولوميو أولست.

وطوال ثلاثة أيام، حاول إبهارت فون بريغن شحذ روحه الأرستقراطية، مثل ذئب حبيس فح يحاول لعق قدمه. لكنه لم ينجح. وفي صباح اليوم الرابع، قبل الشروق بوقت قصير، لقم البارون مسدسه الفرنسي عيار 18 الذي حمّله من أمريكا، ثم أطلق النار على نفسه بحديقة القصر.

في ليلة باردة، وعجائبية من ليالي يناير، أنجبت البارونة ولدًا، أسمته يوهان أماديوس. كانوا لا يزالون في فترة الحداد، وقد دُون في سجل الكنيسة المحلية أنه عند الولادة، كانت فايتروت تلبس قميصًا أسود من

مدينة بروج. ويضيف السجل كذلك أن يوهان أماديوس وُلِدَ قبل أوانه. وكيف قبل أوانه، هذا ما لا يذكره السجل. وماذا قد يهم في ذلك؟ المهم أن فون بريغن الصغير بصحة جيدة، ويرضع جيداً.

كانت المُرْضعة شكيرستا تُلقِّم يوهان أماديوس أحد ثدييها، أما الآخر فتلقمه صغيرها يانيس.

(21)

أحب جدي السخرية من حكومة لاتفيا تحت الاحتلال الألماني بصفتها عجيبة جديدة تُضاف لعجائب العالم، حيث مثلت قفازًا يخلعه الحُكام الحقيقيون للبلاد بعد إتمامهم الأعمال القذرة. وفي المقابل، كانت عجيبة الحكومة الخاصة بها هي: رولز رويس عملاقة، أشبه بدار للأوبرا مُقامة على عجلات. والتي كانت السفارة الصينية ببرلين تتفاخر بها قبل سنوات قليلة. وعندما أغلقت السفارة إثر تحالف ألمانيا واليابان، لم يجد الصينيون من يشتري هذا الغول، الذي التهم الوقود مثلما كانت شلالات نياجرا تلتهم المياه. حتى إنها غدت أكثر وحشية -بعد إضافة مُحرك غازي- وآل بها المطاف في ريجا.

لك أن تتخيل دهشتنا ونحن نُشاهد تلك الليموزين المُذهلة، وهي تعبر إلى فناء القصر. في يوم رمادي كئيب من شهر نوفمبر 1943. تفرّجنا أنا ويانيس، مُتلهفين لاستكشاف ماذا سيحدث لاحقًا. فلم يبد لنا أن هذه الزيارة تمت بصلة لتجارة جدي.

وفي غضون دقائق، كان رجلان في زيهما الأسود واقفين أمام مكتب البارونة، ويطلبان مقابلة صاحب العمل. "يُشرفنا أن ننوب عن وزارة الثقافة والشؤون الاجتماعية"، نطق أحدهما بينما يُدير قبعته البورساليينو فيدورا السوداء والتي لها رائحة النفطلين بين أصابعه.

"إننا نمثل الحكومة الوطنية في ما يتعلق بفقدان الشاعرة اللاتفية

أسبازيا“ أضاف الآخر.

”ماذا؟ هل اختفت؟ أم تقصدون أنها قد توفيت؟“ كانت صدمة جدي عظيمة لدرجة أنسته لباافته. إذ لم يشح بيديه من قبل مثلما فعل الآن.

”للأسف، لقد كلفنا بتنظيم جنازة الشاعرة. لديك نعش بأربعة جياذ، نرغب في إلقاء نظرة عليه“.

”بالطبع“. ردّ جدي، لكن من خلال معرفتي به، أستطيع الجزم بأن ذهنه كان في مكان آخر تمامًا بعيدًا عن النعش.

”لا يُمكننا تنظيم جنازة بانخة. فقد حدد المدير المسؤول عن الدعاية ميزانية ألفي مارك، لكن ينبغي تمويه هذا الشُّحّ بقدر ما يمكن“.

نظر الرجلان إلى النعش في ألبوم الصور، وتصفّحا بقية إكسسوارات الجنازة. بينما يُسجلان الملاحظات الخاصة بالتكاليف، وبعدها رحلا، مع وعدٍ بأن لجنة الجنازة ستتخذ قراراتها وتُرسل إلينا لاحقًا.

ودّع جدي الضيفين، ثم عاد مُتحمسًا، وقد ارتدى بالفعل قبعته العالية، ووجهه مفعم بالنشاط، كأنه مستعد للقفز حالاً على مقعد العربية. ”بُخلاء! شحيحون! هكذا ينون دفن أسبازيا، أعظم شعرائنا! ما رأيك بذلك؟“.

جادلت البارونة بأن الألفي مارك قد لا تكون المُلامة فقط، لا يُريد الألمان منح الحدث جاذبية واسعة، تجنبًا لإثارة المشاعر القومية لدى اللاتفيين عند اجتماعهم في حشود كبيرة، وهكذا.

”ماذا تعنين بقولك “لا يريدون“؟“ إذا كانوا لا يُريدون، فنحن نُريد! وحتى إذا كان الكلب لا يُريد أكل المُستردّة، فيكفي أن تدهني بعضها

على ذيله، وسوف يغير رأيه على الفور!

صعد جدي لغرفته ولم يُغادرها طوال الليل. فلم ندرِ ماذا كان يفعل. وفي الصباح التالي -أتذكر أنه كان يوم السبت- قال جدي:

”سوف تتأخر عن المدرسة اليوم لسبب جيد. دعنا نذهب ونتولى الأمور بأنفسنا“.

”إلى أين؟“.

”إلى حيث تولينا الأمور من قبل“.

وَمُجَدِّدًا، ارتدى جدي معطفه الفِراك وبنطلونه المُقَلَّم. والقبعة الطويلة فوق رأسه كما لو أنه قد نام بها. ثم اتجهنا صوب المؤسسة الألمانية المهمة بوسط ريجا، حيث حرس البوابة جنديان. وفي الطابق الرابع بعد ثلاث طوابق من السكرتارية، كان ذو الرقبة الغليظة يُقرر مصائر الأحياء.

جعلهم جدي يُقدمونه بصفة ”الرجل المعروف لسعادته على أنه قريب سارا لياندر، وهو هنا بشأن مسألة لا تقل أهمية تخص عائلة روزنبرج“.

جرت الأمور كما في المرة السابقة، لكن أبطأ قليلاً، غالباً لغياب عنصر المفاجأة. أو لكوننا الآن في عام 1943 وليس 1941. وأيضاً، لم تعد المحادثات في مكاتب الاستقبال غامضة بالنسبة لي، إذ حدثت طفرة في معرفتي باللغة الألمانية.

وقف المُفَوَّضُ في نفس المكان حيث تركناه آخر مرة، مع اختلاف واحد، هو أنه رفع حاجبه الأيسر بُمجرد دخولنا الغرفة، ثم تقدم خطوات قليلة نحونا ومد يده لمصافحة جدي.

”أنت تذكرنا صحيح؟“ سأله جدي.

”أعتقد بأننا حللنا مسألة حساسة“. أجاب المُفَوَّضُ، مُراقبًا جدي برأس مائل لأحد الجانبين.

”مضبوط. وهل واجهتكم أي عواقب سلبية؟“.

صَمَّت.

”حسنًا! كان من الممكن أن يُسبب ذلك بعض المشاكل“.

المزيد من الصمت.

”أما الآن..“. واصل جدي حديثه عقب وقفة تأملية.

”هل تعرف بشأن جنازة أسبازيا؟“.

”نعم، سمعت أشياء عنها... جنازة أسبازيا“.

”سأخبرك بما ينبغي عليك معرفته. إن الاسم الحقيقي لأسبازيا هو إلسا روزنبرج، وهي والدة وزير الرايخ ألفريد روزنبرج..“.

راقب المفوض جدي بنظرة بدت مُتَحيرة. وكان من المستحيل استنتاج ما يدور داخل رأسه المُدَبَّب. وبعد ثوان، قرقر شيء ما في أعماق حلقه، فلم يبد كتجشؤ.

”إ-ي-ي-ه..“.

”نعم يا سيدي!“.

”ألا ترى أنك تُبالغ بعض الشيء؟“.

”مُطلقاً“.

عاد المُفوض لمكتبه بملامح لا تزال عصية على القراءة، ومن ثم ضغط على زر. لا أستطيع وصف تلك اللحظة بأنها مُريحة، فقد كنت على يقين من أن رجلاً بأسلحة رشاشة سيقتحمون المكان ويأمروننا بالذهاب معهم. وبدلاً من ذلك، دخلت الراهبة بزيها الرسمي إلى الغرفة، السكرتيرة المملة ذاتها.

”أحضري بيانات والدي روزنبرج“.

”الآن على الفور؟“.

”نعم، الآن“.

”سيستغرق الأمر وقتاً“.

”استدعي وينديكر“.

اختفت السكرتيرة، وملاً ضغط شديد الغرفة مثل مكبس في أسطوانة مُحرك. أمّا المُفوض، فكان يعبث بأزرار معطفه، ويخطو جيئةً وذهاباً وراء طاولة المكتب، والآن فقط لاحظت وجود ساعة حائط ذات بندول لامع يتأرجح من وإلى خزانة ضخمة. وأمّا جدي، فلم يهمس بكلمة واحدة على غير عادته، وجلس بتعبير ممل على وجهه. ولاحقاً، أدركت، أنه من الناحية التكتيكية؛ فقد كان ذلك سلوكاً عبقرياً.

عادت السكرتيرة ووضعت ورقة أمام المُفَوِّض. بحيث استطعنا رؤية قلة عدد الكلمات المكتوبة فيها. والمُجمعة بالكاد من الكتاب الذي أحضرته معها؛ لم تستطع إيجاد أي معلومات مُفصّلة. بل السيرة الذاتية الأولى فحسب.

فتحت السكرتيرة الكتاب على صفحة مُعلّمة. وهنا، قاطع جدي المهمات الهادئة كبوق الترومبون في سيمفونية تشايكوفسكي الخامسة.

”بإمكاني قول ما تذكره الورقة... وُلد روزنبرج في 1893 في تالين... وانتمى والده لأسرة لاتفية من شمالي فيدزيم، أمّا والدته فكانت ألمانية... لقد درس الهندسة المعمارية بمعهد ريجا للتقنية... كما كان عضواً قديماً بأخوية ”روبونيا“ الطلابية... وفي 1918 هاجر إلى ألمانيا... وبحلول 1934 أصبح مستشار الفوهرر في ما يتعلق بالمسائل الأيديولوجية... تلك هي الرواية الرسمية! لكنني هنا لأقول الحقيقة.“. نضح العرق على الرقبة الحمراء المكتنزة.

”الحقيقة مكتوبة هنا... هنا بالضبط...“. غرز المُفوض سبابته بالكتاب. ”ولا يعني أي شيء آخر. وبالأخص، ما يتعلق بوزير الرايخ“.

”لسوء الحظ أن وزير الرايخ نفسه يعلم الحقيقة. والرب وحده يعلم ما إذا ما كان سيتجاهل الطريقة التي دُفنت بها أمه. وبإمكانك كتابة ما شئتَ كيفما شئتَ. لكن ستظل أمك هي أمك رغم كل شيء“.

”أمه، أمه. لماذا تظهر أمه فجأة؟“.

”إليك بالحقائق. في شبابها، أرغمت السيدة روزنبرج على الزواج من رجل لا تحبه، لكن بعدها، سافر هذا إلى أمريكا. ومن ثم، قابلت ضابطاً

بجيش القيصر يُدعى كوسيفالوف. عام 1892، أُكرر، 1892، وكانت علاقتهما جادة إلى حد كبير. فرفعت إلسا دعوى طلاق إلى المحكمة. واعتبر الثنائي أنفسهما مخطوبين وجهزا للزفاف. والعائق الوحيد الذي حال دون ذلك هو أن إلسا لم تكن قد تسلمت أوراقها بعد من المحكمة. وبالصدفة، اكتشفت أن الضابط مُتورط في علاقة مع إحدى صديقاتها، وألغي الزفاف. وغادرت إلسا مرفوعة الرأس. لكن في تلك الأيام، لم يكن حمل المرأة دون زواج أمرًا عابرًا. فتركت إلسا وظيفتها كمعلمة في يلجافا، ورحلت إلى شمال فيدزيم. نعم، إنه بالضبط شمال فيدزيم المذكور منذ قليل، حيث ولدت طفلها. ثم عثرت على من يكفله لمدة من الزمن مقابل أجر. فقط لبعض الوقت حتى تعود لتأخذه بطريق التبني أو بأي طريقة شبيهة بذلك. لكن كما يقول المثل "أنت تشاء وأنا أشاء والله يفعل ما يشاء". فإنه في سنة 1894، قابلت إلسا -التي أصبحت آنذاك أسبازيا الشاعرة- حب حياتها، رينيس، أو جوته لاتفيا، لكن عائلته احتقروا المُطلقة. وكان الطفل ليكون القشة التي قصمت ظهر حبهما. وكانت أسبازيا ضالعة في فنون الحب. فلم تبدُ كبيرة في السن بالنسبة لرينيس، وقد ادّعت أنها أصغر بثلاث سنين من عمرها الحقيقي، ولم يكن أمامها سوى خيار وحيد، هو أن ينشأ الطفل في سرّية... هذه الحقيقة بشأن أمومة السيد روزنبرج الغامضة.

"هل تقصد أن روزنبرج عضو الحزب ليس ألمانيًا؟".

"إنني أقصد ما هو محجوب في سيرته الذاتية. إنني أشك في أن نابليون قد استعرض قوته بمثل هذا الحماس لإثبات كونه فرنسيًا، فكما تعلم، كان نابليون من كُورسكا، وقصيرًا بالإضافة لذلك".

اتسعت حدقتا المُفوض أكثر فأكثر، كما لو أنهما تنتفخان أمامه مثل نبات الفطر النفث. وبدا جلياً، أن المُحادثة أفرغته وحيّرتة على حد السواء.

”ثم ماذا بعد؟ ولماذا؟..“.

”من المؤكد أنك قرأت شكسبير. فمن الذي قاد الأسطول الفينيقي إلى النصر بالمعركة؟ إنه المغربي عُطيل!“.

”هذا لا يثبت أن جنازة أسبازيا ستشغل بال وزير الرايح.“.

”معذرة، لكن من أمر بإقامة احتفالية عيد ميلادها الخامس والسبعين في المسرح الوطني؟ ألم يكن أنت؟“.

”آه تقصد هذا الحدث السخيف؟ الذي لم تحضره أسبازيا؟“.

”لقد فضّلت عدم الحضور.“.

خطا المُفوض جيئةً وذهاباً، ثم جيئةً وذهاباً وراء مكتبه. ثم عاد فجلس ثانيةً، لكنه سرعان ما عاد للسير جيئةً وذهاباً. وربما تصرّفت أفكاره بالمثل داخل رأسه. وفي النهاية، وبينما ضغط بكلتا قبضتيه على السطح اللامع للمكتب، أعلن مُدير وممثل السلطة قراره.

”دعك من المسائل الخارجة عن نطاق سلطتنا، هنالك حقيقة واحدة ليس بإمكان أحد إنكارها، وهي أن أسبازيا شاعرة مهمة، وتستحق جنازة تليق بها.“.

”أنفق معك! إنها تستحق قدرها تماماً، ليس أكثر.“. بدت نبرة جدي

شبيهة بـ”ها نحن قد اتفقنا على مسألة أخرى“.

وبمنحهم الضوء الأخضر من أعلى، هبّت اللجنة مثل فرن تغذيه الأحطاب. كما أنصت صانع القرار الرئيسي بالحكومة الوطنية إلى اقتراحات جدي ووضعها قيد التنفيذ. وهكذا، حلّقت خيالات جدي بحرية كنسر مهيب. ورغم الطقس الرطب والأجواء الغائمة الكئيبة، أصرّ على أن يكون كل شيء أبيض اللون. أي ستة أحصنة بيضاء بكسوات وألجمة بيضاء. وبالتأكيد، كان على العربة أن تكون بيضاء أيضًا. وكذلك معاطف حاملي التابوت وقبعاتهم الهلالية، تلك التي يدعوها الفرنسيون incroyables.

كان في سقيفة عرباتنا واحدة بيضاء، حصلت على طلاء جديد. أمّا الخيل الإضافية فقد استأجرناها من سيرك سالومونسك، والذي كان يستضيف حاليًا مُدربي خيول من البندقية. ووفر لنا ميليزيس الذي يعمل بالمسرح، المعاطف والقبعات البيضاء. كان ميليزيس عضوًا باللجنة بصفته صديقًا للشاعرة، وبطبيعة الحال انتخب مسؤولًا فنيًا عن الجنازة. وفيه عثر جدي على شخص قريب منه فكريًا، شخص ذي إدراك مُتعمق.

كان التابوت حيث رقدت الشاعرة، قد أُرسِل بالفعل إلى كنيسة مارا. وكانت الكاندرائية في عتمة جزئية، فلم تكن الشمعدانات الكبيرة مُضاءة، وأومضت بضعة أضواء خفيفة هنا وهناك. ووضع العمال منصة للتابوت مع شمعدانات فضية، وأكاليل الغار التي صارت موضحة، لا يُمكن لحدث أن يُقام بدونها. والتي كانت تُعاد بعد ذلك، إلى بيوتها الزجاجية.

بمجرد أن رأى التابوت، ضرب جدي بكفه الأيسر على وجهه (بالطبع كان الأيمن حاملاً القبعة).

”هل يُعقل أن تُدفن أسبازيا في تابوت رمادي إسمنتي فقير! مستحيل!“

تفهّمت اللجّنة إحباط جدي، وقررت دفن الشاعرة في تابوت من خشب البلوط، بمقابض ثلاثية ونقوش برونزية.

ربما كانت تلك تجربتي الأولى لجنّازة عن قرب. فلم يسبق لي قبل ذلك اليوم أن اقتربت من جسد ميت. وقد حملت بالشاعرة متأملاً، ومشلول التعابير من الصدمة، في فضول عجيب، كما لو أنني خطوت للتو خارج عتبة العالم كما أعرفه.

”انظر جيداً وتذكّر. فهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي سترى فيها أسبازيا شخصياً. لقد قابلتها قبل عشر سنوات قُرب البحر. في يوم خريفي بائس كهذا اليوم الذي نحن فيه. وكانت تتمشى على طول الشاطئ، وقد رأيت آثار قدميها على الرمال. انظر كم هي صغيرة أقدامها مثل طفلة. مقاسها خمسة وثلاثون كحد أقصى لا أكثر.“

”هذا يعني الكثير“ تكلم يانيس. وكالمعتاد، كان تقييمه غريباً، فحسب عقيدة الشنتو، باستطاعة النساء ذوات الأقدام الصغيرة السير على شعاع القمر.

كان التابوت الخشبي جاهزاً لأجل النهار التالي. كما تجهّز الحانوتية

لنقل جسدها. إذ لم تكن قد ظهرت بعد أي إشارة على العاصفة القادمة. والتي ضربتنا نحو الظهرية؛ فبدافع الاستعراض، أو لسبب ما آخر. اتصل المُفَوَّض ببرلين. ولسوء الحظ، سوف يبقى محتوى هذه المُحادثة سرًّا أبدًا دون أملٍ في كشفه.

لاحقًا، كان جدي مارًّا بالصدفة بمُدير اللجنة عندما اتصل به المُفَوَّض. استمرت المكالمة لنحو خمس دقائق، وتألّفت بالأساس من كلمات ليس لها مرادف باللانفية. وبالطبع، كان المُفَوَّض هو الشخص الوحيد الذي تكلم، في حين جفل المُدير، وُصِّق، وارتعد دون حراك.

والنتيجة هي أن التكريم الكبير للشاعرة أُضْحِي حُلْمًا بائدًا. حيث مُنِعَ جدي من المشاركة بالجنّازة من الأساس. وأحضرت الشاعرة إلى المدفن بواسطة عربية سوداء عادية.

دائمًا ما اعتبرت جدي رجلًا لا مثيل له. لكن السقطة التي حدثت آنذاك، لم تُلائم نظرتي تلك. ومثلما مرّقت الأسهم جسد القديس سيباستيان، مزقتني الشكوك في أن جدي لم يكن سوى إنسان، مثل بقيتنا، مُعَرَّض للنجاح والفشل. وأن لديه، كأبي إنسان آخر، نقاط ضعفه، وأنه يرتكب الأخطاء، وأن لديه تناقضاته وشكوكه. يترك التقدم في السن بعض الصدا. لكن چيكابس أولست لم يكن ليحرجر قدميه مُطلقًا، أو ينزوي نحو ركن بعيد، مثلما لم يشعر أبدًا بأنه مُستبعد. فلم تكن لتشعر معه بأي ملل، ولم يكن ليتراجع أو يستسلم في مواجهة الهزيمة.

استرجعنا الواقعة أكثر من مرة على مدار السنوات اللاحقة. فجنّازة أسبازيا التي تَمَثَّلها ذهني كذكرى كئيبة لمدينة غائمة، قد صَبَّغها

جريان الزمن بمختلف الألوان. حيث أكسبني استيعابي اللاحق للحدث منظورًا جديدًا لأيام نوفمبر البعيدة تلك.

تظاهرتُ أسبازيا بأنها راقدة في ذلك التابوت مُخلفة حياتها العاصفة وراءها. لكن الحقيقة هي أنها توّرتت في حركة معارضة للاحتلال القمعي؛ لقد صارت الراية المُرفرفة على الجبهة الأمامية، تنادي، وتحشد، حيّة أكثر من ذي قبل. وقد تشققت طبقة الأسفلت الثقيلة بفعل نبتة الفطر الصغيرة الشاحبة التي هي الحرية. وهذا ما قد يصدّم أولئك الذين لا يعرفونها كفاية.

كانت مُساهمة جدي بالحدث مُجرد واقعة عرضية. لكنه ظل ممتنًا لها، وكان يضحك من قلبه. ”لا تنس أسبازيا مهما حدث! والأهم لا تقل بأنها وُريت تحت كومة من الرمال!“.

(22)

مثلما تحرف المظلة قطرات المطر، تحرف الأساطير الحقيقة. فمن ذا الذي لا يعرف أسطورة بطرس الأول غازي البلطيق؟ والتي أثبت جدي عوارها، حيث انتهت حرب الشمال العظمى، دون أن تخسر دوقية كورلاند استقلالها. فلم تتمكن روسيا من الاستيلاء عليها حتى عام 1795، عندما اشترتها من الدوق بيتر فون بيرون مقابل 2.9 مليون روبل، أي نحو 8.4 طن من الفضة. كان هذا النوع من المعاملات شائعاً آنذاك، فقد اشترت أمريكا ألاسكا من روسيا مقابل 7 مليارات دولار (ما يُعادل اليوم سعر طائرة تجارية صغيرة). وبدوره، استولى دوق كورلاند چيكابس كيتلر على توباغو وغامبيا خلال القرن السابع عشر.

يقول جدي بأنه كثيراً ما اختزل تاريخ دوقية كورلاند بطريقة سافرة إلى سادة ألمان، وخدم لاتفيين ليس لهم حقوق. لكن الحقيقة هي بخلاف ذلك تماماً. وقد أكدت الكتب التي قرأتها في ما بعد آراءه.

كانت هنالك طبقة من المُقطعين المحليين في كورلاند. وبينما احتاجت الصناعة الناشئة إلى العمال المهرة، انتهى المطاف بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الريف. حتى أصبح سُكان المُدن أنفسهم داعمي الدوقية في نزاعاتها مع النبلاء [الألمان]، ولذا يصير التمييز: ألمان-لاتفيين بلا مُسوغ، لأنه لم يُميّز بينهم سوى الفوارق الطبقيّة المعروفة في ذلك الزمان، دون حدود إضافية مُصطنعة. وتمثّل حالة بيرون دليلاً خصباً

على ذلك، مثلما هم مؤرخو الملوك، والعلماء اللاتفيون من كورلاند، ورجال الكنيسة، والأدباء، والوجهاء في كل مجالات الحياة.

كتب كل من مانشيلْيوس⁽²⁶⁾ وفوريكر أعمالهما باللاتفية. وكان معروفاً أن الأخير تزوج من أرملة لاتفية "أكثر ثراء واستقلالية" منه. لم يكن فوريكر أكثر من فوريكر "رفيع الثقافة"، أما زوجته فكانت "الثرية والمستقلة". عادة ما تحدث بارونات ومزارعو الدوقية بعضهم إلى بعض باللغة اللاتفية، التي اكتشف جدي أن دوقات كورلاند كانوا يعرفونها، ومنهم أرملة الدوق بطرس، أنا دوروثيا، والتي وقع في غرامها أكثر سياسيي القرن الثامن عشر حنكة، أي تاليران. أيضاً، تحدثت الشاعرة إليسا ثون دير ريكة زائعة الصيت أوروبياً باللاتفية، ومثلها فعل كارل أمندا صديق بيتهوفن، المولود في تالسي، بالإضافة إلى شقيق كانط، يوهان هاينريش الذي عاش في فيكسول.

كانت معرفة اللاتفية أمراً مفروغاً منه لمن عاشوا بدوقية كورلاند. وحتى بعد مئة وعشرين عاماً على نشره لأول مرة بيلجافا عام 1789، فقد أثرى قاموس ستيندر⁽²⁷⁾ الألماني - اللاتفية معرفة الكاتب رينيس، وحتى إن أسماءً مثل: أنتيوس، وجاتيش، وبيرنز، وليبيست أخذت مباشرة عن قاموس ستيندر.

26- عالم لاهوت ألماني بلطفي لوثري، عاش في لاتفيا. ووضع أول قاموس للغة اللاتفية.
27- كان جوتهارد ستيندر قساً لوثرياً لعب دوراً كبيراً في تاريخ الثقافة اللاتفية، كما وضع أول قاموس ألماني - لاتفية.

... إنه يونيو من عام 1799، قبل عيد منتصف الصيف بقليل. وعقب استراحة طويلة، سافرت البارونة فايتروت قون بريغن مُجددًا لقضاء الصيف مع ابنة عمها ألبرتينا. ومع أن شيئًا لم يتغير بـكـورلاند خلال السنوات الماضية، إلا أن المقاطعة بدت مُختلفة كليًا. يا إلهي، كم يتغير العالم بسرعة!

إنها السنة الرابعة الآن منذ إلحاق كورلاند بالإمبراطورية الروسية. بينما تستمر الثورة في فرنسا، وأوروبا محكومة بالفوضى. لقد خسر كل من الملك لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت رأسهما على الشفرة المائلة للمقصلة المُخترعة حديثًا. ووصفت صحيفة باريسية الأمر كالتالي ”شعرت أرواحهما الفقيرة بالنسيم حتى رقابهم فحسب“. كما خسر ثلاثون ألفًا على الأقل رؤوسهم. وارتجفت البلدان المُحيطة من بحيرة الدماء المُراقاة في وسط أوروبا. ثم صعود مُخلوق مُرعب من أعماقها الحمراء: أي نابليون بونابرت المُغامر، الطامح في حكم الجميع.

أصر شقيق المقصول السادس عشر بعناد على تمسكه بأن الحق الشرعي لحكم فرنسا لا يزال ينتمي لآل بوربون. وبوفاة الابن البكر للويس السادس عشر، قام بإعلان نفسه لويس الثامن عشر ملك فرنسا. أملًا في إزاحة الغاصبين ”بعون الله ومعونة الأصدقاء المُخلصين“. حيث ضمت القائمة المتينة لحلفائه: بافل الأول إمبراطور روسيا السائر أثناء نومه.

وهكذا، بعد أن فر من فرنسا، قضى لويس الثامن عشر عامًا في قصر يلجأ، الذي أعاره له قيصر روسيا بداعي الشفقة. إن يلجأفا ليست

بالتأكيد هي فيرساي، لكن حتى مع اعتمادهم على إحسان الآخرين، بلغت حاشية لويس الثامن عشر نحو 250 شخصًا. من الوزراء، والحُجَّاب، والسكرتارية، ومسؤولي الإسطبلات، والدُّوقات، والفيكونتات، والماركيزات، والكُونتات. كتبت ألبرتتين: "لم أر قط شيئاً كهذا في يلجافا. اكتظت الشوارع بهم يُحيي أحدهم الآخر قائلاً "بونچور، كُونت!" "bonjour, counte" "بونچور، كونتيسة!" "bonjour, countess!" وفي محلات الحلويات، تتوادع النساء على أمل الالتقاء بقصر التويليري أو فارنيزي".

نعم، لم يزل الوقت يمر. وقد بلغت فايتروت الأربعين من عمرها. امرأةٌ خاملة في منتصف العمر، ذابلة، فقدت بريقها. لا ترغب فايتروت بوصف نفسها بمثل تلك الأوصاف. فهي ليست راضية عن الحياة التي عاشتها حتى اللحظة. ولا تزال في انتظار شيء ما. حياتها مزيج من السخط المتّقد والأمل. وربما يكون هذا السبب في بريق عينيها المُستمر، ورشاقة وخفة حركاتها، وفطنتها الحادة.

وبالرغم من التحيّزات ضد الموضة الوافدة حديثاً من باريس، فقد انجذبت لها فايتروت، وإلى الحرية التي يتمتع بها جسدها دون المشدات، بإطلاق العنان لمنحنياتها اللينة، المكشوفة بشكل لا يُمكن إنكاره. لكن، من الأكيد أنها لا تنوي طلب فستان شبيه بقميص النوم كالذي ترتديه مدام ريكاميهيه. وقد سمعت مؤخراً أن الفرنسيات يسرن شبه عرايا، حتى إن بعض السيدات المُتأنّقات أصبن بنزلات برد، وحتى الالتهاب الرئوي ومُتن في سبيل الموضة. ليحفظها الرب من أمثلة تلك الحماقة!

وبمجرد أن وصلت، أخبرتها ألبرتتين بأن زفافاً ملكياً سوف يُقام في يلجافا، وأن ماكسيمليان قد دبر لفائتروت تذكرة برفقتهم.

”غير معقول! ماذا تقولين! لم أجهز فستاناً لهكذا مناسبة!“.

”لا تقلقي، لدينا أسبوع للحصول على واحد.“.

”أليس لويس الثامن عشر مُتزوجاً بالفعل؟“.

”بلى. لكنه بلا أبناء. وحتى يستعيد العرش الفرنسي لآل بوربون، فإنه قد تملق تصريحاً من البابا لتزويج ابنة أخيه لويس السادس عشر ماري تريز، لابن أخيه الآخر لويس أنطوان بوربون.“.

”حسناً، شكراً لك عزيزتي! كم سيكون ذلك رائعاً! لا أظن بأنه يوجد وقت أنسب من ذلك في السنة لإقامة زفاف.“.

كانت الطيور تُغني، والشمس تدور تتنزه عبر الأرض؛ ذكرتها يلجافا ببوكيه الزفاف. وبالمصلى الكنسي الصغير الواقع بالطابق الأرضي للقصر، بروائح الورود والزنابق البيضاء. اكتظت الشوارع المُجاورة بالعربات المُزخرفة. بحشود من الناس، كما لو أنه معرض كبير. الناس بالملابس المخملية، والمُخرّمة، والمُطرّزة، والحريرية، ورياش النعام. وميداليات التشريف، والكتّافات. وقد دُعي الكثيرون من أرسنقراطية كورلاند، وأهم نُبلاء يلجافا إلى الزفاف. كما بعث بافل الأول كلاً من دريسدن وفيرسن نيابة عنه، لا ريب أنهم يحملون هدية من القيصر إلى العروس، عقداً ماسياً أو ما شابه. عثرت فائتروت على مقعد جيد بالمصلى، سيمكنها من مشاهدة كل شيء إن لم يدن ماكسيمليان حول

ألبرتين بباروكته المُبودرة العتيقة والمُثبتة بعشوائية فوق رأسه. ومن آن لآخر، ترى أناسًا يلبسون عُش طيور مثل هذا؛ إذ يُحاول أهل كورلاند إبراز روابطهم الراسخة مع النبالة الأوروبية العتيقة.

”ذلك الذي يرتدي الزي الأحمر هو الكاردينال مونتمورني، الأسقف الأعلى لفرنسا“. همست ألبرتين لفايتروت من وراء مروحتها. ”والأكثر إثارة من ذلك هو أنه أصمّ..“.

وقف حشد من رجال الدين أمام المذبح. أحدهم قس أرثوذكسي يرتدي اللون الذهبي، ويقف مثل أيقونة، بقلنسوة ذهبية فوق رأسه. بالإضافة إلى قس لوثري يبدو مثل ديك أسود وسط حشد من الطواويس.

وبنفسه قاد الملك العروس إلى المذبح، متبوعًا بمستشاريه ورجال حاشيته. لم يكن الملك جذابًا مُطلقًا، ويُمكن الاستطراد في ذلك، ووصولًا لأخيه لويس السادس عشر والذي كان -بحسب ما تروي القصص والرسومات- سمينًا بقدر طاهٍ ذي ردفين ثقيلين. أمّا هذا الرجل الذي أمامي فكان أقرب -يا إلهي!- إلى امرأة سمينة ممتلئة الجسم، لها وجه ثور. وقد ارتدى جلالته سروالًا طويلًا أسفل سُترة طويلة زرقاء بسيطة! من اختراع السان كيلوت! وربما أيضًا، كان يتسكع على ضفة نهر ليلوب مُرتديًا قبعة فريجية حمراء!

تدثرت العروس باللون الأبيض مثل زهرة أريثوسا. لا بدّ من أنها نسخة عن أمها تعيسة الحظ، الفاتنة ماري أنطوانيت. أمّا العريس فلم يكن لافتًا للنظر على أي حال، إلا المنقار البوربوني بالطبع؛ وفي ما عداه، فقد بدا رجلًا كما ينبغي للرجل أن يكون. تساءلت فايتروت هل شعره الأحمر مُلولو بطبيعته أم صُفف ليصبح هكذا. فقد اخترعوا مؤخرًا بكرات تسخين خصيصًا لهذا الغرض، لكن لسوء الحظ، فإنها لم

تصل بعد إلى يلجافا.

تَحَبَّط الكاردينال مونتمورني ببطء عبر مراسم الزفاف. ولحسن الحظ أنه لم يُلِقْ عِظَةً. وإنما خطا رجل دين طويل إلى المقدمة، يبدو مثل راهب في ثوبه البسيط، بصليب مُتدلٍّ من حزامه الملفوف حول وسطه. وساد شد أرجاء المُصلَّى المُكْتَظ بمُجرد أن نطق أولى كلماته، ثم انتظروا في السكون الطويل ما سوف يقوله بعد، كما لو كانوا ينتظرون قصف الرعد الهادر عقب كل ومضة من البرق.

”الأب إيجمونت دي فيرمونت“ همست ألبرتتين.

عَقَدَتْ كلمات الأب لسانها. وكما لو أن الشر ليس وحده من له رموزه. تبيّن أن هنالك رموزًا للثقة والأخلاق كذلك. فلم يتخلَّ الأب دي فيرمونت عن عاهله، حتى والأخير على منصة الإعدام، ففي اللحظات الأخيرة قبل أن تمس المقصلة عنق لويس السادس عشر، صرخ فيرمونت بالكلمات التي طافت حول العالم ”لتصعد إلى الجنة يا ابن سان لويس“.

أخرجت فايترت قارورة النشادر من صدر فستانها، واستنشقت منها بكلا فتحتي أنفها حتى لا تُصاب بدُوار العواطف. كذلك، تركت كلمات الأب أثرها على العروس الجميلة، ماري تيريز، ابنة الشهيدين، ودوقة أنغوليم. فانتحبت أكثر من اللازم، وكان ذلك مبالغاً بعض الشيء، فليس على المرء مُعاملة الزفاف باعتباره عزاءً. صحيح أن الذكرى لم تظل قريبة، وأن الأب هو شاهد حي على فظاعة الحدث. ومع ذلك، لا يبدو أن المقصلة ستُرافق العروسين إلى غرفة نومهما.

عقب المراسم. دُعي الحضور إلى قاعة الاحتفالات بالجناح الجنوبي للقصر. منذ أول زيارة لأقاربها في كورلاند، رفقة والدها، ثم بصفتها

ليدي شابة، وامرأة متزوجة لاحقاً، ظل قصر يلجأفا بالنسبة لقايتروت
كياًناً غامضاً. يُثير فضولها ويفزعها على حد السواء. مثل الوديان
والغابات الممتدة على طريق تلال الكانغاري، أو الغابة السوداء بين
ريجا وأولين. لا يزال هذا المبنى يتمدد باستمرار، لكنه ينحلّ باستمرار
كذلك. ومثل ثعبان يبتلع ذيله، كرمز للخلود، يلتف القصر حول ساحة
الميدان حيث يبدو أنه ينمو ويبتلع نفسه على حد السواء. لقد طُلي
عدة مرات، لكن لم يتم الانتهاء منه بعد. فالكثير من نوافذه بلا ألواح
زجاجية، والكثير من شرفاته بلا أسوار.

لقد تصادف أن هذا المكان يُذكر قايتروت بحياتها هي. فقد حظي
بانطلاقة طيبة، قبل أن يحترق، ويخرب، ويُعاد ترميمه. حتى إن درجات
سلالمه مؤقتة لا أكثر.

ورغم ذلك، لم يكن لديها شيء يُورقها في هذه الساعة. فقد انحازت
المحكمة لصفها في دعوى وراثة الأرض الخاصة بثون بريغن، وبإمكان
علاقتها بيوهان أماديوس أن تتحسن. إن خلفهما ميتافيزيقي، يصعب
اختصاره في كلمات. إن ثون بريغن الشاب شديد الاختلاف عنها، وكأنه
تذكير حاضر على الدوام بأكثر لحظاتها ضعفاً. هي لا تراه إلا نادراً،
ولم يعثرا على مُبرر ما كي يعيشا سوياً. عسى أن يُنعم الرب على كل
شخص بحكمة أبوية مُنقهمة مثلما أنعم على يوهان أماديوس بالعم
أوريليوس. إنها تتساءل عن حال العجوز المُعتر بنفسه. فقد بدا مريضاً
بعض الشيء عندما التقيا آخر مرة. إنه رجل مُعمر، مثل متوشالخ

إلا أن فايترت لم تكن مُرتاحة البال تمامًا، إذ إنها حظيت بمُعجبين. لكن بشكل مختلف هذه المرة. فقد طلب البارون كلابماير يدها مرتين، وهي لا تعرف بعد بماذا ترد. فهل يُوجد داع لتجربة جديدة بعد كل هذا الوقت؟ ومحاولة التآلف في منتصف العمر مع شخص غريب مُحاط بقشرة متينة من عاداته الخاصة. في سن أصغر، يُمكن لغربيين أن يجتمعا جنبًا إلى جنب، مثل شتلتني بستان صغيرتين، فإن حدث وارتبطت جذورهما برابطة الحب لفترة، ينموان سويًا. لكن، لا يُمكنك جمع شجرتين ناضجتين بالفعل.

ومع ذلك، فإن كان من أملٍ باقٍ بالزواج، فإن كلابماير يُعد مُرشحًا مقبولًا. إذ إنه، أولاً: ليس طاعناً في السن ولا يربطه شيء بحياة الجُنديّة. وثانيًا: لأن كلاً من آل بريغن وكلاتماير مُتقاربان للغاية، ومن السهل أن يتصاهرا. وثالثًا: لأن كلابماير أرمِل لم ينجب أطفالًا؛ ولا أقارب مُقربين له يُمكن أن يتطفلوا عليهما أو يُسببوا المشاكل. إن المرأة بحاجة لرجل، وأي حجة لدحض ذلك مُجرد رياء وثرثرة.

تفكرت فايترت بالبساتين ثانية، فبينما تنمو الزهور الجديدة وتبرعم أوراقها، فإنها لا تحتاج إلى ركيزة تحفظ توازنها. لكن عندما تنمو زهرة الهدرَاج أو الوردة على سبيل المثال بشكل كامل، وتتمايل عناقيدها المتفتحة بفعل الرياح، فإن ركيزة ثابتة تدعمها لن تضرها في شيء، بل ستتيح لها فرصة أن تصير نفسها. نعم، لتصير نفسها. فماذا تنتظر؟ رجلاً، إن كلابماير في أوج حياته.

28. متوشاخ الصالح، إحدى شخصيات سفر التكوين بالعهد القديم، توفي عن عمر يناهز الـ 969.

في الطابق الثاني، بدأ على الفور موكب وصول إلى غرفة العرش التي سمعنا الكثير عنها. زار ماكسيمليان المكان قبل وبعد الحريق، وهو يعرف الكثير من الأشياء. لكن لسوء الحظ، فإن طريقته السطحية في التفكير وطيشه أحبطا أي متعة في الاستماع إليه.

وهكذا، مررنا بالغرف ذات الجدران الهولندية القرميدية، حتى وصلنا أخيراً إلى قاعة الاحتفال. حيث استقبلنا خدم في أثواب برتقالية على كلا جانبي الأبواب المزدوجة، بجانب مزهريات طويلة بها زنابق بيضاء. كرمز للنقاء أو بصفته الشعار الخاص بآل بوربون. ربما لكونها تفوح برائحة مُرتبطة بهم، حيث يُسبب كلاهما البهجة والصداع.

لمعت جدران القاعة الذهبية، وعكست الأرضية الخشبية ضوء النافذة الكبيرة بوضوح باهر حتى إن أقدامهم سكنت بذاتها عن الحركة.

شدت الجداريات المرسومة انتباه فايتروت. ففي السقف، يجلس زيوس على عرش سُحبه الأصفر الزهري، دون أن تبدو عليه الصرامة، أو السطوة. أليست التجعيدة الداكنة بين حاجبيه علامة على الإرهاق والملل؟ بينما يجلس مارس مفتول العضلات على نحو متكاسل بجانب الفاتنة فينوس. فلا يبدو عليه استعداد لقيادة الجيوش في المستقبل القريب، فحاله جليّة بما يكفي. تماماً كحال المارشال قائد حرس الشرف الخاص بلويس الثامن عشر، والذي قبّل يد فايتروت، والذي لديه -إن كان ماكسيمليان على حق- جيش من خمسين رجلاً. فهل كانت جدارية نبتون جالساً على عربته الصّدفية، مُنتمية لعالم أقل واقعية من هذا العالم، مُكون من أولئك الماركيزات والدوقات والكُونتات الشبيهين بالدُمى؟ في ما مضى، كانت تظن أن الجداريات المرسومة

على السقوف هي مُجرد زينة فحسب. لكن لا! بل هي تذكير هام بأن أي رؤية للعالم هي رؤية استعارية، مبنية على افتراضات. فقبل أن يُثبت جاليليو دوران الأرض حول محورها، افترض الجميع بأنها لا تدور من الأساس. وكانوا سعداء بذلك. وكان العالم البطلمي مُسطحًا مثل فطيرة. فهل عني ذلك أن الشمس توقفت عن الإشراق، أو أن القمر توقف عن التقارب والابتعاد؟

تأملت فايتروت ما حولها. فأين هو الحد الفاصل بين فانتازيا الحوريات اللاتي يُحلقن فوقها والملك الواقف هناك أمامها، والذي تُوجد مملكته في خياله فحسب؟ تعجز فايتروت عن وصف هذا الشعور الغريب. والذي سيدهمها مرة أخرى عقب سنوات قليلة، في لندن؛ بمتحف مدام توسو، والذي لم يكن قد وُجد بعد. لكنها في هذه اللحظة، كانت تختبر المستقبل الذي لم يحن أوانه بعد، وكل ما تعرفه شعورها بأنها غريبة.

ورغم ذلك، فهي تسمع اسم مدام توساد هنا والآن في قصر يلجافا. تخلى الحفل ببطء عن صرامته الطقوسية، والطيغ الغائم للذكرى. لتغمره الأجواء المرححة المعروفة عن الفرنسيين، وعن الكورلانديين كما يظهر أيضًا. وغرقت القاعة في الرقص، أمواج مُتلاطمة من الحرير والدانتيل والحركات المنحنية للسادة المحترمين. بينما كانت رُدهة الضيافة المُجاورة للقاعة أشبه بخليج آمن، ميناء هادئ حيث بإمكان الراقصين المُتحمسين التوقف لالتقاط الأنفاس، وكي يلوذ بها المُحتفلين

الأكثر هدوءًا للاسترخاء وتأمل الحفل.

جلست فايتروت بجانب أحد معاوني الملك من الجيل السابع. كان الماركيز كوفير دي مونبنسير رجلًا في أواسط العمر، وجهه مُزين بتلك الطبقة الثقيلة من البودرة التي تُذكرها بالجص. وحتى باروكته المُبودرة ذكرتها بالمنحوتات الشمعية. وقد طرفت عينيه، وزال عنهما المرح والابتهاج، عندما أخبرها بتلقيه أسوأ هدية في عيد ميلاده السابق، وهي خبر وفاة زوجته الذي جاءه من باريس، لقد تشاركت زنانة مع جوزفين أرملة الجنرال بوارنيه، والتي أصبحت زوجة نابليون. وقد احتفظت جوزفين برأسها لإعجاب الحرس بها، لكن الماركيزة لم تكن محظوظة، وماتت بعد شهر واحد بجوار من كان مصيرهم ملاقة المقصلة.

”انتظر، هل تعني بأن رأسها لم يُقَصَل؟“. سأل ماكسيميليان على الطاولة. بفرنسية متوعكة، ولم يكن قد فهم مُعظم ما قيل.

”لا، يا عزيزي mon cher. لم يحتمل قلبها مُجارة الموت.“

”هذا فظيح“ سرت قشعريرة بفايتروت، كما لو أن تيارًا من الهواء البارد قد سرى عبر الغرفة الخائقة.

وأرادت ألبرتين معرفة: هل حقًا رفع مُعِدِم ماري أنطوانيت الرأس المقصول من الشعر، وصفعه على الملاء، حتى تورّد خد الموت الشاحب باللون القرمزي؟

فتنبّه الجميع لسؤالها، وطغى السكون على الطاولة، بينما استمرت

الموسيقى المُبتَهجة في العزف بالخلفية. وجلس الماركيز بعينين متسعيتين، وتجمّد وجهه المُبودر، وبدت ملامحه الجامدة أشبه بجثة.

خطرت لقايتروت فكرة، ربما أن رأسه هو مُجرد رأس آخر مقطوع، رُفِع من وسط عُبار منصة الإعدام وألقي بإهمال فوق الوشاح المُخرم لياقته المرفوعة. فهل دُفنت ماري أنطوانيت دون رأسها؟ لا بدّ أنهم وضعوه برفقتها في التابوت..

من غير الممكن ألا يكون الماركيز قد سمع سؤال ألبرتتين.. التي تملكت في كرسيها بعصبية. وأخيراً، فتح الماركيز عينيه، فكانتا أشبه بعيني طفل عقب استيقاظه من النوم؛ مُنشرحة وحذرة.

لا تصدقي كل ما يُقال. فلم يكن مُمكنًا إمساك رأسها من الشعر، لأن رؤوس السيدات كانت تُحلّق قبل صعودهن على المنصة. والدليل على ذلك هو قناع الموت الذي صنّعه مدام توساد من رأسها المقطوع. لقد حزت شرف معرفة مدام توساد. فقد كانت مُعلمة الرسم والنحت الخاصة بإليزابيث أخت لويس السادس عشر، لمدة تسع سنوات بفيرساي.

تحدث مُتصيد الأخطاء ماكسيمليان بغيرسة، مُحاولًا الإيقاع بالماركيز:

”أنا مهتم بمعرفة، كيف، تمكن سُموكم من رؤية القناع؟ طالما أن القناع في باريس، وأنت، إذا صح كلامي، لم تزرها منذ وفاة ماري أنطوانيت“.

لم يبد على الماركيز أنه لاحظ نبرة التشكيك التي بالسؤال. فاستدعى خادمًا بإشارة نبيلة بيده؛ كي يعيد ملء الكؤوس. وعقب نقاش طويل عن النبيذ عمومًا، وعن نبيذ أمونتيلا دو وبون دو شاتو اللذين أرسلهما بافل

الأول من أقبيته إلى الزفاف. انحرف الحديث عمداً إلى ماري أنطوانيت. تعلمت مدام توساد كيف تصنع أقنعة موت على يد الفنان فيليب كورتيس، والذي اهتم بنحت مواضيع تشريحية باستخدام الشمع. وأنداك، كان لها زميل من روسيا، لديه نفس الشغف. وعندما مات كورتيس في 1794، فإن الروسي (أو أيًا كانت جنسيته لأنه لا يبدو روسياً) ترك فرنسا عقب ذلك بوقت قصير، حاملاً معه نسخة من قناع ماري أنطوانيت الميتة. فخطرت لملكنا فكرة أن يكون القناع بذرة لعمل فني. كُثر هم من يعرفون منحوتة الفنان الإسباني ألونسو كانو البرونزية: رأس يوحنا المعمدان على صحن. وكان حاكمنا يرغب في تطبيق الفكرة بُمجرد العودة إلى باريس، فينحت رأس ماري أنطوانيت فوق قاعدة رخامية بكاتدرائية نوتردام، تخليداً لذكرى الملكة الشهيدة، وعمى العقول المهووسة. وقد أصرَّ الملك على ضرورة أن يبدو الرأس حقيقياً“.

”حقاً؟“ نطقت ألبرتين بنبرة مُندهشة. فهي مثل طفلة صغيرة ترغب في حكاية عن الأشباح، فقط، حتى ترتجف من الرعب.

”ليس تمامًا، فنحن نتحدث هنا عن مُقاربة جديدة. لكن، نعم، أصرَّ الملك على أن يبدو رأس ماري أنطوانيت حقيقياً!“.

”ومصنوع من ماذا؟“ سأل ماكسيمليان مُتحدياً.

”هذا سر. فلم ينتهِ العمل بعد. لكن من المنتظر أن تكون النتيجة شيئاً غير عادي. كما هو النحات نفسه. فهو أيضاً طبيب وعالم أخرويات“.

”عالم أخرويات؟“ لم تسمع ألبرتين بهذه الكلمة من قبل.

”حسنًا، أُخرويَات، والتي ليس عليها شرحها للجميع هنا، هي الدراسة العلمية للحياة والموت، خلود الروح، وقيامَة الجسد، وهلم جراً“.

كان الاهتمام بحديث رجل البلاط أشبه بالرياح الهابّة على طاحونة الهواء. ” كان هنالك أمل بوضع الرأس على المذبح خلال حفل الزفاف، حيث كان سيستقر لحين عودة الحكم الشرعي لفرنسا. وبالأمس فقط، انكشفت بعض العوائق التي تحول دون ذلك، وكان لي شرف الاستماع إلى حديث الملك مع النحات“.

”إذًا، فإنّ الرأس يُنحت هنا بيلجافا؟“ قفز هذا السؤال من فم البارونة ثون بريغن. فتيقّنت من أنّ الماركيز، حتى وهو ملتفت إلى ألبرتين، لم يكن يُخاطب أحدًا سواها [أي فايتروت]. فكان ما نطق به أقرب لسر. لكنه على صلة بها بالغة الأهمية، بماضيها ومستقبلها.

”ليس هنا فقط في يلجافا، بل في هذا القصر“.

”وما اسم هذا النحات؟“.

”أشك بأن اسمه سيعني لك أي شيء. لأن مسيو جبران غير مشهور داخل الدوائر الاجتماعية الأوسع“.

هل سمعتُ ذلك حقًا؟ فالأصوات تخرج من فم هذا الفرنسي وهي تصر وتمخض كعجلات غير مُشحمة لعربة. مسيو جبران... مسيو جبران، رددت فايتروت في نفسها، وشعرت بجسدها يتصلب، كما لو أنها تحوّلت إلى جليد.

(23)

من الصعب ترتيب الأحداث حسب أهميتها. وذلك لأن تقدير الأهمية يخضع لوجهة نظر المرء، وكيف أثرت عليه تلك الأحداث. في أكتوبر 1944، شهدت ريجا تبدُّل الأسياد مُجددًا.

أقام الألمان مستودعًا للمتفجرات عند أطراف المطار، في غابات البلوط الواقعة بين القصر والسكة الحديد. لقد بدا أنهم تمكنوا من حمل بعض الأشياء معهم، ونسف الباقي. وقد عشنا أسبوعًا أشبه بالسكن عند سفح بركان فيزوف. كانت الانفجارات تزيد حدة خلال الليل. فيرعد الهواء، وتهتز الأرض، وتُنير السماء لوقت قصير. وقد تهشمت ثلث النوافذ الزُّجاجية بالقصر، لكن ظل الطقس دافئًا، إذ احتفظنا بألواح الشتاء المُزدوجة مُخزنة بالعلية منذ الربيع.

كانت النوافذ أول المتأثرين بانتقال السلطة، أمَّا أول قرارات الحُكام الجدد التي مسّت حياتنا، كان اعتقال البارونة مُجددًا. ولم يبدُ الأمر شخصيًا هذه المرة بقدر ما كان هؤلاء يتعقبون ويُبعدون كل من ربطتهم وثائقهم بألمانيا بشكل أو بآخر. وقد تصادف أن يوهانا -التي بلغت آنذاك الخامسة والستين من العمر- كانت مُقيدة بسجل بالمجمع الألماني لكنيسة مارتن. وبخلاف بيروقراطي هتلر، لم يكن بيروقراطيو ستالين مُهتمين بالانتماء العرقي، بل كان القيد الكنسي كافيًا بالنسبة لهم.

في مُذكراتي الشخصية، لا يُوجد تسجيل لحادث اعتقال يوهانا. لأنني كنت آنذاك حبيس المستشفى لإصابتي بالتيفود، وشبه فاقد للوعي تحت تأثير البنج. وعندما عدت إلى المنزل بدا اعتقال يوهانا مثل جرح مفتوح مُتقرح. فلم نرها ثانية، و فقط بعد سنين طويلة، انكشف بعض مصيرها بواسطة الشاعر هارولد هنري الذي أُبعد بصحبة عائلته لسبب مُشابه (بناء على قيدٍ بسجل الكنيسة) بُمجرد أن وصل الروس مُباشرة. ففي السنة الثالثة أو الرابعة بعد ترحيله، كان هارولد في سوق إحدى البلدات الشيوعية عندما قابل امرأة مبتورة اليدين. حيث كان فقدان الأطراف من أثر الصقيع شائعًا بالشمال. وكانت تُحاول بيع صورة فوتوغرافية لصبية صغيرة على الشاطئ القريب لريجا. بينما حدّق عمال المناجم الثمالي في الصورة في دهشة: "انظر لتلك العصفورة العارية الأمورة!" أخبرت المرأة الشاعر بأنها كانت تعيش بريجا، بالقرب من المطار، لكنه لم يتمكن من تذكّر لقبها، وكان يظن بأنه ربما يكون هوليندر.

عانت تجارة جدي من نكبة هائلة. فالخيل المُتبقية تم تأميمها، بجديّة هذه المرة. وأخذت الأفراس الشابة إلى مضمار السباق. لم يحكم المنطق قرارات النظام السوفيتي، فما سمحوا به اليوم، كانوا يحظرونه في الغد. وهكذا، حُظرت سباقات الخيول في وقت لاحق، بعد أن عملت في السابق جانيةً الكثير من أموال الرهان.

بخسارته البارونة، صار جدي مثل لاعب جمباز يقف أمام عارضة مكسورة، عاجزًا عن استجماع شتات نفسه. فلم يعد ذلك الرجل القدير الواثق من نفسه كما في الماضي. بل صار مُشوشًا ومُضطربًا عند اتخاذ أي قرار. "لا مشكلة في العربية إذا كانت بثلاث عجلات. وقد تصلح كحظور إذا كانت بعجلتين. أما إذا تبقت عجلة واحدة، فهي ليست أكثر من عربية يد". قال جدي.

بالطبع، لم يكن يقصد العربات. لأنه دون موظفين، ودون أحصنة، ودون إمكانية للعمل بالطريقة المألوفة لديه. كان جدي يمضي وقته وحيداً داخل سقيفة العربات. وعندما ذهب إلى إسطبلات المضمار لرؤية أفراسه، عيّن نفسه حارساً ليلياً فجأة دون مقدمات. فكان أمر الإسطبل وهو مُقدم مُتقاعد من فيلق الدبابات مشدوهاً لرؤية الحارس الليلي في ملابس فارس سباق ومرتدياً قبعة رمادية طويلة، وهكذا، مُتذكراً على ما يبدو الإنجليز الذاهبين للديربي في قبعاتهم الرمادية الطويلة، كان المُقدم يهز كتفيه ويقول: ”ريجا...الشیطان وحده يعلم، كم هو غريب أمر أولئك الغربيين!“.

واظبنا على الدراسة. بينما خسرت مدرستنا مكانتها النخبوية، ولم تعد أكثر من ثانوية عادية أخرى. وكان الطريق منها وإليها مُغامرة. فلم يستطع الجسر الخشبي فوق نهر دوجافا والمبني على عجالة استيعاب مسار الترام. واضطررنا لقطع المسافة بين الضفتين على الأقدام.

فرغت المدينة من سكانها المحليين، لكنها اكتظت بالوافدين الجُدد. الذين ظهروا فجأة في القصر حاملين أوامر ”التسكين“. وفي البداية، شغلوا جناحاً واحداً من المنزل، حيث عاش الطيار من قبل. ولاحقاً، ظهرت أوامر بشغل المكتب والمخزن أيضاً. وتُركت أنا وجدي ويانيس مع غرفتين. أمّا العمة ألما التي لم تكن تطيق البارونة، فقد أعلنت في لفظة غير متوقعة، أنها لن تسمح أبداً لأولئك الروس الأفظاظ بشغل غرفة

يوهانا، وأصدرت أمرها الخاص بأن تأخذ هي الغرفة.

في الصباح، كانت تقف بوليننا المَزَاجِيَّة في المطبخ لابسة قميص نومها فحسب. بينما تتنأب وتنفس شعرها المنكوش بكلتا يديها. وأحيانًا، كان لعبها الورق مع المُقدم روميانسيفس ينتهي بشجار، أو مرآة مكسورة، وهي نفس المرآة التي وقفت أمامها ذات يوم، مُتخيلًا نفسي نيلسون، أو جاليفر، أو ريشيليو.

ضجّت الغرفة الأخيرة على اليسار بزئير الأسود. حيث حصل الرائد جوجو ذو الشارب على فونوغراف من ألمانيا، ومعه أسطوانة واحدة مُسجل عليها أصوات حيوانات مختلفة، ولم ينتبه أحد لرغاء الجمال، أو شحيح الحمار الوحشي. أما زئير الأسود فكان يرج الطابق بأكمله. وقد حظي جوجو بحشود من أقربائه الزائرين، والذين جلبوا معهم لحم الضأن المدخن، والنبيد والفواكه الجنوبية. أمهات بالمعمودية، وزوجات إخوة، وبنات عم جلسن خلف باب الغرفة المُوارب، وهن يصلين بصوت مسموع، ويُناجين الرب بأن يحفظ قريبيهم في اختبارات التحليق التجريبية. فلم يَستمع لصلواتهم أحد، وذلك إذ عُثر على إحدى يدي جوجو على بعد كيلومتر واحد من موقع الطائرة المُحطمة.

طالما أنها في مزاج جيد، كانت بوليننا تُحضّر الفطائر للمقدم روميانسيفس، كما كانت تُقدم لنا فطائر البليّني الروسية مع الحليب الأمريكي المُكثّف. أمّا إذا كانت سيئة المزاج، كنت تجدها تصرخ فينا (داعية إيّانا بالفاشيين، ومهددة بالرحيل إلى سيبيريا)، بينما تصرخ في الروس بكلمات كزخية أو تترية غير مفهومة. والتي لم يستطع حتى جدي ترجمتها. وقد أَلمت بها تلك النوبات في أحيان كثيرة.

فهم يانيس اللغة الروسية بطريق التعوّد. كما انخرط بسهولة مع الآخرين، عابراً الحاجز الذي حال حتى تلك اللحظة بيننا وبين جيراننا، والذي صدمني دائماً. ولذا، كان يانيس أول المُطّلعين على معاناة بولينا. فقد تزوجت روميانيسيفس أثناء الحرب، والآن، كان المُقدم قد سُرح من الخدمة، وهو يستعد للعودة إلى زوجته الحقيقية، بينما كانت بولينا حاملاً منه.

”لقد أطلعتني على كل شيء“ تكلم يانيس بنبرة اندهاش. لقد كان في السابعة عشرة من عمره، لكن قامته نمت ببطء. بينما أخذ صوته في التغير، فكان ينشق، مُتردداً بشكل باعث على السخرية بين الفالسيتو والباس. كما نمت بعض الشعيرات على ذقنه المُستدير الناعم. ”نعم، فأنت تبدو أقرب إليهم“ بصقت الكلام بحماقة، مُتذكراً روسية يانيس، في حين انكمش هو.

”من المحتمل أن يكون جدي على حق في أن الروس وجميع من على شاكلتهم هم أسرى لعقدة المُهاجر. إنهم لا ينظرون إليّ بصفتي لاتفيّاً، وإنما كمُهاجر ند لهم“.

”لا تكن سخيّاً“ كبحت جماح فظاظتي، ورددت مُحرّجاً. ”حاول أن تُخبر روسياً بأن بوشكين كان مُهاجراً إلى روسيا“.

”لقد حاول جدي طمأنتي أيضاً بأن قال لي: كيف لا تكون لاتفيّاً، عندما تمتلك قلباً لاتفيّاً؟ لكن لا أحد يُبصر القلوب، بل الوجوه فقط“.

”ومن ثم؟“.

”ومن ثم يُحملك بك الجميع بأفواه مفتوحة كلما تحدثت باللاتفية، ليس في المدرسة أكثر من ذلك، لكن في المحلات، والترام، والشارع. هل تعرف ماذا قال لي المُعلم بالأمس؟ بأن فرصتي للالتحاق بالجامعة ضئيلة للغاية“.

”لماذا؟“.

”إن ”لماذا“ ليس سؤالاً مقبولاً في الاتحاد السوفيتي“.

كان ذلك الزمان غامضاً. حيث ألقينا بالحرب وراء ظهورنا دون النظر للوراء. ومع تقلبات السلطة، اضطربت تصوراتنا عن الخطأ، ومن كانوا مُخطئين، وعن الحقوق، وعن المسؤوليات والعدالة لدرجة أنها لم تعد تحمل أي معنى. فكان أبسط ما يمكن فعله الإجابة عن كل ما هو مُنفر وغامض بالمصطلح النبوي: الحرب. والذي يُرَجِّح، أنه قد نَبَشَ قبل ذلك الزمان ظلالاً للعقل مُحْتَجِبَةٌ لكنها مُعَدِيَةٌ. أما الآن، وطالما أن الحرب قد انتهت، فقد بدا الشفاء ممكناً. كانت أطياف ذكرياتنا تُكَلِّبُنَا، وتجربنا مثل أطراف ثياب ثقيلة؛ لكن وَجِبَ علينا تجاوزها، خاصة أن لاتفيا لم تكن وحدها من تستأنف حياة السُّلم، وإنما جزء كبير من العالم يصعب حصره.

ظل جدي يُردد دوماً:

”يا أولادي، ماذا أقول لكم يا ترى، إنه وقتكم، الذي لن تحظوا بغيره! فمن زاوية تاريخية كانت الثورة الفرنسية بؤساً مؤقتاً، لكن ملايين الفرنسيين قضوا أعمارهم كلها في تلك الفوضى المؤقتة التي استمرت لسبعين عاماً فحسب“.

كان الحديث عن الجامعة، في الواقع؛ حديثاً عن أحلام الماضي بعد الإفاقة منها. فقد أضى صندوق البتولا حيث احتفظنا بمدخراتنا فارغاً تقريباً. وكان راتب جدي يكفي بالكاد لشراء المؤن وهي: بضعة أرغفة من الخبز، والقليل من السكر وزيت الطهي. كما أتخمتنا العمه ألما بعصيدة اللفت الأصفر التي حالت دون التصاق معدتنا بأعدتنا الفقرية.

تحدثت عن المستقبل مع فلاديمير الذي لم يدر أحد من أين جاء، ولا من أي سماء هبط. فعندما ذهبت إلى صفي في ظل "الأوضاع الجديدة"، كان هنالك فحسب، مُرتدياً بذلة قديمة مُرَقَّعة، وحذاء طويل الرقبة. ولم يبد عليه في بعض الأحيان أنه في مثل سننا، بل إنه رجل ذو خبرة. وكنا نتحدث ذات مرة، فأخبرته بأنني سوف ألتحق بالجامعة مهما حدث، ليرد بابتسامة غريبة قائلاً: "أنت شجاع يا صديقي!" لكن هذه الجملة النابعة من صبي نصف لاتغالي مُغفل وساذج أصبحت في أولوية الطعام بالنسبة لي، حيث رغبت في سماع التأكيد الذي حملته مرةً تلو أخرى، لأنني لم أكن مقتنعاً بها في داخلي. ولذا، صار استدعاء الحديث عن الجامعة طقساً شبه يومي في أحاديثنا المشتركة، حيث كان فلاديمير يُردد على مسامعي كل يوم "أنت شجاع..". "أنت شجاع..". فكان ذلك أشبه بهضبة سكايستكالني تعكس صدى صيحاتي الباطنية.

فهل كنت مُنقاداً بدافع الشجاعة؟ أشك في ذلك. لقد كان دافعي هو العناد على الأرجح. العناد مُختلطاً بأسوأ رياضيات العالم أي: النفاؤل. فكان جدي ليصنفي أنا ويانيس بفرسان الليل، وقصده بذلك، حسب ما أعتقد، هو أننا كالفِرسان الذين يعدون بسرعة كبيرة لدرجة ألا يلمحوا

الطريق.

” ليس صحيحًا“ جادلت جدي، ”فهل كان الأمر أسهل على فيديناومز؟“⁽²⁹⁾.

”لن تمروا بما هو أسوأ من اللفت المطهي على البخار“.

التحقت بالجامعة في ذلك الخريف، بينما ترك يانيس المدرسة. ولم يرغب في السير على خطاي، لكن تطلع لإيجاد عمل والدراسة كطالب مُنتسب.

كان المصنع حيث حصل يانيس على وظيفة (دون اختيار كافٍ، لأنه لن يكون مُفلسًا للأبد) رائدًا في صناعة أشباه الموصلات. استجاب يانيس لبشارة القدر. وألقى بنفسه في غيابات الصمامات الثنائية، والثيرستورات والترانزستورات. مثل سلحفاة حديثة الولادة لم يسبق لها رؤية المياه، وتلقي بنفسها في مياه المحيط المائج. تنقص الصناعات الجديدة الجودة، وذلك حيث يبدأ الخبراء والمبتدئون على السواء من نفس المستوى ليكتشفوا سويًا ما كان خفيًا عنهم.

وفي وقت قصير، صنع يانيس لنفسه سمعة طيبة. فنادراً ما تحدث عنه الآخرون بصيغة ”إنه كذا“، بل ”إنه سيصير كذا“. وفي سن العشرين، وقع يانيس في الحب. حتى اليوم، لم يُعرف سوى القليل للغاية عن طبيعة الحب، مثلما عن طبيعة الكون، الذي سكنه الناس لنحو 270.000 سنة. تُفسر النظريات المُعاصرة الحب بطريقة مملّة: من خلال تأثيرات الدوبامين والنورادرينالين على الجهاز الحُوفيّ بالمخ. ومع ذلك، لم تُقدم الكيمياء الإجابات مُطلقًا. والمفتاح الذي يُحفّز

29- شاعر لاتفي.

تلك الكيمياء بداخلنا عند رؤيتنا شخصًا بعينه دون الآخرين؛ لم يزل في غيابات المجهول.

لم أدر أين قابل يانيس جونا، لكن ذلك غير مهم. فقد تغير تمامًا وارتسم على ملامحه نشاط الجهاز الحوفي؛ حيث تسيطر اللوعة على المرء، ويقل انتباهه للعالم الخارجي، ويصبح مُتأثرًا بشكل استثنائي.

لم تكن جونا ذات جمال خارق. وكانت أطول من يانيس، ولها نمش وشفاه رفيعة منحتها مظهر العزيمة، كما أنها لم تستعمل لا المكياج ولا البودرة (آنذاك، نادرًا ما فعلت النساء ذلك على أي حال). وقد تَبَّت شعرها اللامع في موجة مائلة أعلى جبهتها. وفي الطقس البارد كانت تلف وشاحًا من الصوف حول رأسها، مثلما فعلت الكثير من النساء في حقبة ما بعد الحرب.

أظن بأن يانيس بدأ علاقاته مع الفتيات في وقت مبكر عني. وقد لاءم ذلك شخصيته الطموحة، والمباشرة، والعلموية إلى حد ما. مع ذلك الإصرار الحاسم الذي يدفع الباحثين إلى غابات الأمازون والصحاري الإفريقية.

منذ التقيت به وحتى اليوم، لم يُول يانيس اهتمامًا كبيرًا بالملابس. وذات ليلة، سحب قميصًا من حقيبته وأراني إياه وكأنه مخلوق سحري. ”انظر إنه قميصي القديم. لكن انظر كيف صار لونه الآن! وكيف صارت ياقته!“.

مرّر يانيس أصابعه بعناية فوق الدرز مُتقنة التطريز. كما لو كان يرتدي تاجًا آرتكيًا.

وعلى أي حال، ربما لم تكن تلك العُرز الدقيقة، والمُطرزة ببراعة (التي كشفت عن رقّة أنثوية غير مُعتادة في حياتنا اليومية كعائلة) هي التي جذبت يانيس إلى جونا. فقد كان الوهج السحري لحبهما مُتقدًا بالفعل. فبالنسبة ليانيس، نجل لاعب السيرك وممثل أُسرتنا التي يُهمين عليها الذكور، جسدت جونا عالمًا مُثيرًا للدهشة والإغراء. كما تبين في الزلّات التي كان يتفوه بها في بعض الأحيان: "تستهلك جونا نصف الصيف لزيارة أقاربها بفيدزيم"، "تُفضّل جونا الزهور المزروعة بالبيت"، "فقط لو تذوقت الفطائر التي تصنعها جونا بالبيت!"، "تقول جونا بأن ملاءات السرير المغسولة للتو لها رائحة الرياح".

إن فكرتي عن شكل العلاقات في هذه الأيام مشوشة. وهي مبنية على السينما والأدب، حيث اختزلت العلاقات، وصارت مُتاجرة مُثيرة للشفقة. لكن، في أيام بلوغنا، أحب الناس حرفيًا التنزه عبر الشرارات الأولى للعاطفة، فكانوا يجوبون الشوارع، مُفتشين عن زوايا هادئة ورومانسية. ويترددون على السينمات. ربما، لذلك السبب، التقيت مصادفة بيانيس وجونا لدى زيارتي أحد أضرحة المقبرة.

"لم أكن أعلم أنكم تعرفون أكيرز أيضًا!" قلت في اندهاش.

"أكيرز؟ لا. لقد جاءت جونا للعناية بقبر عرابتها، ومن ثم.... هنا في المقبرة؛ يُمكنك ملاقة ربيع ريجا في أجمل حُلله. أحيانًا يُمكنك سماع العنديل في حديقة أركاديا، أما الوقواق فلا يُمكن سماعه سوى هنا فحسب".

نظرت جونا بعيون مُدققة وحذرة؛ وتكلمت بلهجة ريفية خفيفة. ولسبب ما، فقد ذكرتني بفتاة صغيرة أمسك بها أحدهم وهي تُسيء التصرف.

لاحقاً، أخبرني يانيس بالمزيد عنها. انتمت جونا لأسرة لا تزال تعيش حياة ريفية. على مدار سنوات، أدار والدها خزان مياه حي تشيكوركالنز حيث عاشوا. وحيث كانت أمها ترعى البقرة بجانب الأسرة، وتقضي الصيف في حصاد الحقول المُجاورة لخطوط السكة الحديد. وفي حين تَلقى أبناء مُوظفي المُدن تعليمهم الثانوي في المدارس المجانية، التحقت جونا بواحدة من أرقى مدارس المدينة، بصحبة أبناء مُلاك المصانع، والسيارفة، والمسؤولين رفيعي المستوى. وبطبيعة الحال، اعتمدت آمال الوالدين المُستقبلية على الأفاق المتاحة لابنتهم الوحيدة، ولم تُغيّر الحرب أو التوترات السياسية شيئاً من ذلك. وبينما انقلب كل شيء وتبدّل، لم تنحرف آمالهما عن مسار بعينه مُخطط بدقة.

”هل عشت بلاتفيا لمدة طويلة؟“.

”عشر سنوات تقريباً“.

”وأين وُلدت؟“.

”من الصعب القول أين بالضبط. لكن في عربة سيرك“.

”وماذا يعمل والدك؟“.

”إنني أعيش مع جدي“.

”وماذا يعمل جدك؟“.

”في سباقات الخيل، فهو يعتني بالأحصنة“.

”حسنًا، حسنًا... نعم... وأنت ماذا تعمل؟“.

”أعمل في مصنع..“.

توقف ارتباك الوالدين عند هز كتفيهما. أغلب الظن، أن حضور الضيف الغريب لمنزلهم لم يدل على أكثر من ابنتهم كانت تتسلى لبعض الوقت برفقته. لكن، عندما ظهر جلياً أن علاقتهما كانت تتوطد أكثر، أصاب الوالدين الفزع.

استمرت علاقة جونا ويانيس سنتين. حيث انطلقت اللعبة بطريقة هزلية، ومن تلقاء نفسها، فقد غدت بمرور الوقت محنة صعبة على جميع لاعبيها. الذين خيروا بين الاستسلام للقدر أو مقاومته.

إن فتى أحلام شابة في العشرين أو الحادية والعشرين من عمرها، ليس أكثر من مجرد حلم. مُتخيل في جانب منه، وواقعي في الآخر. وربما أنه قد تراءى لجونا، مُجيزاً لها الشعور بأولى رغبات وآمال الحياة.

في رأيي، كان يانيس بعيداً كل البعد عن فتى الأحلام ذاك. لكنه في المقابل، كان شخصاً من دم ولحم، يُمكنها قضاء الوقت معه، والاهتمام

به، وإشباع رغبتها. فلم يكن الفتیان الصغار وحدهم المُنقادین بلوعة
تفريغ هرموناتهم، بل الفتيات أيضاً، وبنفس القوة.

يبدو أن يانيس لم يُلاحظ الفتور في نظرة والدي جونا إليه. عميانياً
بغشاوة الحب. كان جوعه لجونا لا يشبع؛ ما كان يُميزه عن أي جوع
آخر عرفه في السابق. وكما قال مفستوفيليس ”الدم من طبيعة هي أندر
ما يكون“. ويحوّل الحب رحيق الحياة الحمراء ذلك إلى أقوى رابط قد
يجعل الاثنين واحداً. بحيث يتحوّل الشخص الغريب كلياً عن المرء إلى
جزء منه، مُتِيحاً له تجربة ذلك الإحساس الجديد بالاتحاد.

وكلما تعرفا بعضهما على بعض أكثر، انكشفت شخصية يانيس أمام
جونا (أو هكذا قد يعتقد أحدهم) بحيوية لا تقل عن مظهره. كم أن
الحب مخادع، مثل المياه الجوفية، فهي لا تجري على السطح، وإنما
عبر طبقات أعمق من الأرض، تُشكلها منحدرات وعوائق متباينة.

لم تستطع جونا تجاهل الحقيقة الصارخة؛ والمُتمثلة في معارضة
والديها الشديدة والراسخة، سواء في ما يتعلق بالمستقبل المُبهم
ليانيس، وإمكانية أن تُنجب أطفالاً صُفراً بالنسبة لهما، خَلَقَ الله الأعراق
وَعَيَّنَهَا كلاً على حدة لحكمة مقصودة منه.

وبمرور الوقت، تتجذر تلك المخاوف داخلك، فتبدأ قراراتك بالتحوّل
حتى وإن لم تتبدل استنتاجاتك.

وذات ليلة، مررت بيانيس وهو واقف أمام المرأة والمشط في يده.

”تفكر بتسريحة شعر جديدة؟“.

كان سؤالاً عابراً. توقعت أن يرد عليه بتلوحة من يديه؛ في إشارة إلى أنه ليس عليّ الثثرة حول كل شيء تافه. لكنه أجاب بسؤال جاد نوعاً ما:

”هل يبدو شعري كأسلاك التليفون المورنشة / اللامعة؟“.

كان ذلك على الأغلب شيئاً قالته جونا مازحةً أثناء إحدى وداعاتهم المَطوّلة عند البوابة الأمامية. لكن، عادة ما تفضح النكات المكبوتة داخلنا؛ كاشفة ما نُضمّره ومنتنع عن قوله. وطالما أن الموضوع الخاص بشعر يانيس قد طُرِح، فمعنى ذلك أنه قد تم التفكير فيه، وأن له بالفعل ثقلاً ما على ميزان العلاقة.

قبل وقت قصير من عطلة منتصف الصيف، أعلن يانيس عن أنه سوف يقضي العطلة على شاطئ ريومبيليو، حيث استأجرت جونا وإحدى صديقاتها كابينة على البحر.

”وكيف سيقيم ثلاثتكم هنالك؟“ كنت مُتحيّراً.

”فقط لطمأنة والدتها“.

عاد يانيس إلى المنزل عشية العيد. فجلس على الطاولة، واضعاً صورة جونا أمامه، ودافناً رأسه بين الكتب ودفاتر الملاحظات. وعندما عدت للمنزل بعد ساعات، كانت الدفاتر والكتب في نفس المكان، بينما جلس يانيس في جمود، لا يزال يتأمل صورة جونا.

”لماذا لم تذهب إلى بيليو؟“.

صمت.

”ماذا؟“.

”لماذا لم تذهب إلى ريومبيليو؟“.

”اضطرت جونا للعودة إلى الريف، هكذا تقضي عائلتها عطلة منتصف الصيف. وسوف تعود قريباً“.

كان يانيس يتصرف بغرابة. كالذي يصرعه الجنون تحت سناً البدر المكتمل، فيتسلق النوافذ نحو الأسطح، أو هكذا تخيلت. وصلت الانفعالات الخوفية⁽³⁰⁾ ذروتها عندما أحضر ساعي البريد خطاباً مُثيراً للفضول. ولاحقاً، استقرت الورقة البيضاء بجانب صورة جونا، وقد تأملته عدة مرات، حيث كُتبت عبارة يتيمة في منتصف الورقة: أحبك. بلا عنوان، أو تحية، أو توقيع. هذا النوع من الخطابات التي تُكتب في حالة عصبية معينة؛ قبل الانتحار أو أثناء غرق السفينة.

لم أتابع الهزات المتعاقبة التي ضربت علاقتهما طيلة شهور بعدها، إذ كنت مُنشغلاً بشؤوني الخاصة. وعموماً، واظب يانيس وجونا على اللقاء، وقد نظرت إليهما دوماً كشبهي زوجين. إلى أن حلّ ذلك اليوم الخريفي، الرمادي والممطر، حيث غرقت الشوارع، وداست الأقدام في الوحل. حين التقيتهم مُصادفة عند صف الأعمدة بوسط المدينة، واستغربت من أنهم كانوا واقفين هنالك في طقس كهذا. يُحاصرهما جو من الكآبة والقسوة، ومن القصور الذاتي للبندول، أو الزوارق المكسورة التي تتأرجح في مكانها على طول المرسى.

30. أي الصادرة عن الفص الخوفي بالمخ، وهو مسؤول عن جانب كبير من الوظائف الانفعالية والعاطفية في جسم الإنسان.

”هل تُقبلك فتاتك وعيناها مقفولة؟“.

”هل تُجري إحصاء؟“.

”تُغلق جونا عينيها على الدوام“.

”وهل يُزعجك ذلك؟“.

”لا... لكن..“.

”ماذا تعني ب ”لكن“؟“.

”أرغب في معرفة لم تفعل ذلك“.

”يعيش كل منا حياة واقعية، وأخرى مُتخيَّلة. والأخيرة أكثر راحة على الأرجح“.

”هذا كل ما في الأمر... كل ما في الأمر“).

”تحياتي أيتها العصفير الصغيرة العاشقة! تفيض النوافذ بالدمع، ويموج الضباب حولنا. يالها من أجواء مثالية لأليكساندرس شاكس⁽³¹⁾“.

وكما لو أن كلماتي قد مسّته، خلع يانيس نظاراته، ومسحها بعناية باستعمال منديل. فكان وجهه ذو التقاسيم البارزة والضيقة، والعينان الضيقتين، حاسراً في حرج كما لو كان عارياً.

”هذا مناسب له“. قالت جونا. ”يبقى هو في ريجا. بينما أذهب لزرع

البطاطس“.

31- شاعر وكاتب لاتفي.

”لا تقلق يا يانيس، سوف ينتهي الأطفال من البذر بحلول الكريسماس“. اختبأ يانيس ثانية خلف نظاراته. التي صغرت إطاراتها عليه منذ زمن، فقد كانت نفسها النظارات التي ارتداها عند وصوله على متن السفينة.

”نقل والد جونا إلى المستشفى ليلة أمس“.

”أوه، لا تسترسل في ذلك مُجددًا. فقد تحسنت حالته بالفعل هذا الصباح“. بناء على نبرتها، صَعِبَ تحديد ما إذا كان ذلك تطمينًا أو عتابًا.

رحلت جونا لثلاثة أسابيع. أخبرني يانيس بعدها أنها أُصِيبَتْ بزكام. لكنه لن يذهب لزيارتها، لأنها لا ترغب في ذلك بحجة أن الوقت ليس مُناسبًا.

ومع ذلك، فقد ذهب عقب أسبوع. وبخلاف المُتَوَقَّع، فقد تلقى ترحيبًا حارًا هذه المرة. وَعَبِقَتِ الغرفة برائحة الفطائر الهلالية، بينما جلس والدها على الطاولة برفقة رجل آخر. وهو فتى من عمر يانيس، أو أكبر قليلاً، ذو رقعة بالغة ولامعة أسفل الشعر الخفيف الذي يُغْطِي رَأْسَهُ. ثم خرجت جونا من المطبخ مُرتدية أجمل فستان لديها، ليقدمها والدها للضيف ويستطرد:

”فقط لو حظيت بالفرصة لدراسة الطب..“.

ومدركًا أن حضوره سوف يفسد الأجواء الاحتفالية، لم يجلس يانيس على الطاولة، وإنما طلب من جونا الحديث على انفراد بالخارج. ومن ثم رمقت جونا والديها، اللذين حثَّاهما قائلين:

”اذهبي، اذهبي يا عزيزتي! فعليك أن تكوني مُهذبة مع الضيوف.
فقط ضعي شيئاً حول كتفيك ولا تغيبني طويلاً“.

لا يتذكر يانيس هل كانت تُمطر أم لا. لكن الطقس كان بارداً. في
حين وقفت جونا عاقدةً ذراعيها، وعابثةً بأطراف السترة التي ارتدتها،
وهي ترتجف ثم تخبره بأن الأمور حُسمت، وأن زفافها سوف يُعقد
الشهر القادم.

حاولت الاستفسار منه عن العريس، وعن سبب الداعي للعجلة، لكنه
أطبق يديه، حتى ابيضّت مفاصلها:

”لا يهم. الآن يُمكنها تقبيل أحدهم دون غلق عينيها“.

ابتسم يانيس بصفاء. لقد علمه السيد كونيشيكي أن يتحدث بمرح
عن الأشياء المُحزنة، حتى لا يُعكر مزاج الآخرين.

مَنْ جبران ذاك؟ هل هو سفير النحس الصوفي، أم عميل أرسله
الشیطان لخلط الأوراق؟

لا يهم! فبغض النظر عن أنه قلبَ حياتها رأسًا على عقب، فإنها ترغب
في رؤيته ولو لمرة واحدة! حتى ولو بغرض التأكد من أنه ليس شبحًا
سيختفي بمجرد أن يُضاء النور. هي ترغب في التحدث معه فحسب. ولا
يهم أي شيء آخر، طالما أنها لا تعلم ماذا تريد بالضبط.

”يا ماركيزي! بما أن مسيو جبران يعمل لصالح جلالة الملك، فهل
حضر حفل اليوم؟“ تفرّست البارونة بتوتر في وجوه الحُضور.

لكن، لم يبد أن الماركيز قد انزعج من توتر فايتروت، ولا من فضولها.
إذ لم تعد أهواء السيدات تُثير دهشته. ”بالطبع، كان ليسرنا حضوره،
لكنني لم أحظ ببهجة رؤيته اليوم. فكما أخبرتك، كان جلالة الملك
مُحبطًا من عدم جاهزية الرأس في الوقت المُحدد“.

”من فضلك، خذني إلى مسيو جبران“.

دلّت الالتماعَة الخبيثة في أطراف عينيه على أن الماركيز قد أساء
فهم طلب البارونة. ولا بدّ أن ذلك كان سر حماسه لمساعدتها. لا بدّ
أنه قد تذكر فيرساي الجميلة. آه من فيرساي التي لا تُنسى، ومن قصر
بيتي تريانون، وآه من قصر باليه رويال بسلالمة السرية، وغرف نومه

المنطوية، وستائرهُ المُزدوجة المُزدانة. وآه من حياة البلاط بمكائدها
المُثيرة، وألعابها الراقية، وأسرارها وشغبها. إن قلب رجل البلاط لا
يُمكن أن يتجاهل تلك اللذات!

لم تكن فايتروت على يقين من الوجهة التي قُيدت إليها. فقد بدأ
الرواق يفقد فخامته. وبدلاً من أبواب البلوط المُزدوجة، ظهرت صفوف
من الأبواب البسيطة التي تفضي إلى غرف أشبه بغرف الثكنات. وقد
لُطخت الجدران بالأبيض في بعض المواضع وبالأخضر أو بالوسخ
في مواضع أخرى، في حين استُبدلت الأرضية الخشبية ببلاط حجري،
والذي بدت ضربات كعبها عليه كانعكاس لنبضات قلبها.

”الباب التالي على اليسار“ تكلم الماركيز وهو يُلقي نظرة عابرة
بحذر. ”يجب أن أتركك هنا. ليُرافقك كيوبيد، لا تطرقي الباب الأول، بل
الثاني“.

مثل أوبرا هزلية! لم يبق سوى مُواجهة علنية مع جبران! دخلت
فايتروت إلى رُدهة تبدو أقرب لكوخ. حيث اكتسى جدارها الخارجي
بخشب البتولا. وفي جانب منها كان صندوق يحتوي على أنية خزفية،
كما كُدت عدة أفصاص فارغة مقابل الحائط الأيسر.

كانت فايتروت تتفحص ما حولها عندما سمعت خبطةً عالية مفاجئة.
لكن، لحسن الحظ، أنها لم تكن غير مصيدة فئران أغلقت على طرف
ثوبها. وقد تبعثرت قطع الأثاث المكسورة في أرجاء الردهة: كراسي
هزاة بمقاعد مكسورة، وطاولات مسنودة بقوالب من الطوب، وأريكة
مُرتخية وممزقة. وعلى يسارها باب، يبدو أنه الباب المرغوب.

وبعد بُرْهة من التشويق قَصَدتها في غشية الإثارة، تحركت أُكْرَة الباب لأسفل لينفتح، ليظهر رجل في رداء نوم كتاني طويل، ويرتدي قَبْقَابًا خشبيًّا. كان عذب الوجه، تميل خصلات شعره اللامعة على جبهته وخديه.

“هلاً أعلمت مسيو جبران بوجودي من فضلك؟” سألته فايتروت بالألمانية، لأن من المحتمل أن الرجل الغريب لا يتحدث الفرنسية.
”ومن الذي أتشرف بتقديمه إليه؟“.

”البارونة فايتروت فون بريغن، أرملة الضابط المُعاون إبهارت فون بريغن“. سَلَكَ الرجل بطريقة مُهذبة -على نحو قد يكون مبالغاً فيه- فأحنى رأسه المحني بالفعل، وأشار بذراعه المُغطاة حتى المرفق نحو الأثاث المكسور.

”تفضلي بالجلوس“.

انتظرت فايتروت، وهي تغلي وتزبد من الإثارة. لم يكن عليها المجيء، لم يكن. فلماذا تُطارِد شيئاً مر عليه ما يزيد على نصف حياتها؟ لا داعي لأن تُثَقِّل نفسها بأشباح الماضي.

تحركت أُكْرَة الباب مُجدداً. فخرج منها سيد نبيل صدره منفوخ بكبرياء، ومرتدياً سروالاً مخمليًّا وجوارب بيضاء عتيقي الطراز. شعره مُسْرَح، ورائحته عطرة، مع وسام شرف على صدره. لكن شيئاً ما به جعلها تُفكر بأن تلك مواجهة أخرى مع أحد أشكال السحر. فهذا الرجل هو ذاته الذي وقف أمامهما، فقط قبل لحظات، كخادم مُتواضع يرتدي قميصاً كتانيًّا.

”تُشرفني مقابلتك. أنا المصطفى جبران. أعمل حالياً كخبّاز. رجاءً اعذريني لكوني لم أستطع استقبالك في رحابة وراحة أكبر. فأفران الخبز تحتل المسكن. كيف أساعدك؟“.

وقفت فايتروت، بينما أشار جبران لها بالجلوس، وبحث عن كرسي ليجلس هو أيضاً، فعثر على واحد، ثم فحصه ليجده مهترئاً بعض الشيء، لذا أزاحه جانباً. وعثر على آخر يؤدي الغرض.

أياً يكن ما سوف تقوله أو تسمعه الآن فهو شحيح المعنى. وذلك لأن المحادثة الحقيقية جرت بين عيونهما. فكانت تتفحصه، ويتفحصها. بينما تحاول العيون تقييم كل شيء في لحظات عابرة. مثل الشفاه خلال الثانية الأولى من تذوقها النبيذ. من الصعب القول كم تستمر تلك اللحظات. لكن شيئاً ما في ابتسامة جبران المتكلفة كان يطمئنّها. لولا فقط بعض الندوب الخفيفة بأعلى خديه الداكنين. تفحصت فايتروت الخبّاز البارع مرة أخرى، من رأسه إلى أخمص قدميه. ثم عادت عينيها إلى الندوب. إنها تشك في أن شيطاناً أو شبحاً قد يحمل مثل هذه الندوب. لكن خطاباً، أو سقاً، أو خبّازاً يرتدي ملابس أرستقراطية. يا إلهي! فهو لا يُشبهه حلاقاً حتى، فهؤلاء لديهم على الأقل بعض الذوق.

وأخيراً، لم يكن عليها التحدث عن نفسها، الشيء الذي لم تعد ترغب فيه أكثر من ذلك، وفي المقابل، ثرثرت فايتروت حول حفل الزفاف، وحول خطبة إيجمونت دي فيرمونت.

”وأنت، مسيو جبران، ألم تسمع كيف جسّد بكلماته تجربة مشابهة جداً للإلهام السماوي؟“.

”إنك مخطئة، مدام. فلدى البابا خطبة يتيمة. وهي بالتأكيد باهرة،

لكنها بليت من كثرة الاستعمال تمامًا مثل مُؤخرة الموظف“.

”لقد تحدث البابا في الأغلب عن الأم، عن ماري أنطوانيت“.

”آه، إذا فإنك هنا بخصوص ماري أنطوانيت! تلك مسألة مختلفة كلياً. فمن الذي أرسلك؟“.

الآن، تلاحظ فايترتو اهتمامًا خالصًا في نظرتة الحادة. فلم يسبق لأحد أن حدّق فيها هكذا غير الكونت كاليوسترو، والذي تشعر فايترتو نحوه بشيء من التبجيل -لروحه السلام!- لقد أمر البابا برميّه في السجن، حيث (أو هكذا تقول الإشاعات) لاقى نهاية غامضة قبل أربع سنوات.

”...لا، حقًا! هنالك شبه! اقتربي، اقتربي أكثر نحو الضوء! انظري لأعلى! والآن، انظري لأسفل!“.

جسّ الخبّاز (رفضت فايترتو دعوته جبران حتى في أفكارها) خديها بأنامله الرطبة والمجعدة، دون ذرة احترام أو خجل. ثم أمسك نقتها، مُقلّبًا وجهها جهة اليسار واليمين. ومن الجيد أنه لم يسحبها من شعرها ليسلخ فروة رأسها. بينما جلست هي في استسلام، كما لو كانت مُنومة.

”شبه ممن؟ ماذا تقصد؟“.

”وكأنك لا تعرفين، بما أنك قد أرسلت إلى هنا“.

أشرق الوحي أخيرًا على فايترتو فانفجرت ضاحكة.

”من ماري أنطوانيت؟ إنك مُجامل للغاية يا سيدي المُحترم. ألا ترى

كم عمري؟“.

”لم تكن ماري أنطوانيت شابة عندما فقدت رأسها. يميل الناس إلى تناسي ذلك، حتى في هذا اليوم، وهو يوم زفاف ابنتها“.

بدأت عينا الخبّاز كمهماز الفارس؛ فلم تكن حدثهما تجرحها، وإنما تصعقها. ومن ثم دهمتها الفكرة، هذا صحيح، فحتى ابني يوهان أماديوس قد بلغ سن الزواج بالفعل!

رافقها الخبّاز من نافذة إلى أخرى مُواصلًا حديثه: ”لقد فقدت ماري أنطوانيت رأسًا واحدًا، ورغم ذلك فقد كان لديها ثلاثة آخرين على الأقل. لم تتجاوز معرفة ماري في شؤون الحكم؛ معرفة تلك الفراشة الواقفة على الستارة. لكنها كامرأة، قد وهبت البصيرة والحكمة. لذا، يجب النظر للأحداث بوصفها حُمةً ومأساة على حد السواء. لا تحاولي إقناعي بأنها أحببت ذلك البوربوني الجبان، فهي لم تعرف الحب حتى قابلت المبعوث السويدي الكونت فيرسن. وقد حاول الكونت الشاب تهريبها للخارج، لكن ألقى القبض عليه. فاعتراها الخراب. لقد ماتت ماري أنطوانيت بسبب رجلين، بكراهيتها لأحدهما، وبحبها للآخر“.

وفجأة، بعد أن حظيت باستراحة قصيرة، اجتاحت أفكار فايتروت بفرع جديد. فماذا لو أن هذا... هذا... أيا ما كان هو... كان يخطط لوضع رأس حقيقي للغاية... رأسها هي!... فوق الصحن الفضي لماري أنطوانيت... يا إلهي! إنها تحت رحمة جراح مجنون بكل معنى الكلمة! ويمكنها أن تصرخ كيفما أرادت، ولن يسمعها أحد. لا بدّ أن تهرب...

”أها... ولكن ماذا تريد؟ ..“.

”أها... ولكن ماذا تريد؟ ..“.

في هلعها، بدأت فايتروت تتحدث بالفرنسية. ”لست ضليعة في الآليات

الثورية. تقول الصحف بأن المقصلة أُخترت ك... المقصلة اخترعت ك... حل بشري..“ لا يزال جبران قابضاً على مرفق فايتروت بيد، وعلى ذقنها بالأخرى. وتبدو نظرتة السوداء وكأنها تسلت خارجة من تحت صخرة، مثل أم أربعة وأربعين تزحف على رقبتها.

”دائمًا ما لازم تغيير الحكام تغيير الرؤوس / الرؤساء. لكن المثال الفرنسي، الذي تتحدثين عنه، سيدتي، هو مثال يُحتذى. فهذه المرة الأولى بالتاريخ التي يحدث فيها تغيير كهذا. فبينما كانت الدولة بلا قائد، جنى التاج الأرباح. حتى جلس فوق تل من الذهب. والآن، يُمكنك، بكل ارتياح، وبطريقته ذاته، إنفاق العملة كما شئت، فإنها ستظل عملتك.“

مُتظاهرة بالدهشة مما قاله للتو، أفلتت فايتروت من قبضته وتراجعت خطوة إلى الوراء. معنوه، معنوه كلياً، لا يشغله سوى القطع والتغيير.

اقترب جبران منها، مُتفرساً وجهها وهامساً ببعض الحسابات لنفسه.

”مسيو جبران! مسيو جبران!“

كانت صرختها عالية ويائسة. وكان جبران هو من تراجع هذه المرة. ”مسيو جبران! لا أحد أرسلني! كما أنني لا أشبه ماري أنطوانيت مُطلقاً!“

تراجع جبران خطوة أخرى.

”إنني هنا في مسألة شخصية. لقد خدمت بفوج الدوق الأكبر قسطنطين، أليس كذلك؟ ألا يُذكر اسم المعاون إبهارت فون بريغن

بحادثة مُعينة؟“.

”فون بريغن؟ حادثة بعينها؟ أبدًا“.

”إبهارت فون بريغن، طويل القامة إلى حد ما، مع ندبة مُزدوجة على خده“.

”آها، حسنًا، حسنًا! لقد هرب بصحبة زوجة النقيب أولست إلى أمريكا! أُصيب كل من بريغن وأولست بنفس التوقيت. نعم، لكن إصابة بريغن كانت أخف كثيرًا مقارنة بإصابة أولست الخطرة للغاية. لكنني تمكنت من علاجه، وبريغن بالطبع“.

حدّق الاثنان بعضهما ببعض، وكانت فايتروت مشدودة، مثل مبارز يحمل مسدسًا. أمّا جبران فكان زاهلاً، ومُنزعجًا قليلًا غالبًا بسبب حدة تلك الذكرى التافهة.

”هل خطر على بالك من قبل أن يصير شخصان شخصًا واحدًا؟“.

”نظريًا فحسب، فقط نظريًا يا سيدتي. حتى إنني أذكر كتابتي عن شيء من هذا القبيل في صحيفة ألمانية بسان بطرسبرج“.

”أنت مُخطئ مسيو جبران. فقد نجحت في ذلك بالفعل. قد..“.

شاح جبران بوجهه بعيدًا. ربما لسبب تافه: دبور مزعج مثلًا. لكن بدا أن تلك الإيماءة قد حررت فايتروت من مشاعر التسليم له. فالتفت مُغادرة. إنها ليست خائفة. فالثقل كان يتضاءل، وهناك فراغ، فراغ العالم الذي انهار فوقها. إنها معجزة أن يحتمل شخص واحد كل هذا الفراغ.

كان كوفير دي مونبسيير قد اختفى حينما انضمت فايتروت للحفل مُجددًا. وكان ماكسيمليان يُكرّس كل جهوده لزوجة المُحافظ. وكان ذلك سببًا كافيًا حتى يبدو النبيذ المُختار من قبو القيصِر مُر المذاق في فم ألبرتين؛ وكالمصلوبة طَعِمَتَه من إسفنجة مغروزة بطرف رمح. إن ماكسيمليان لم يُراقصها ولو لمرة واحدة، ولذا، رغبت في ترك الغرفة، لكن هل كان ماكسيمليان لينتبه إلى غيابها؟ على الأرجح أنه سينتبه، لكن بعد ساعة على رحيلها، عندما يضرب مُنظم الحفل بعكازه على الأرض مُعلنًا نهايته.

ومن ثم، لمحت ألبرتين فايتروت، وعرفت أن القدر كان حاضرًا لإنقاذ اليوم.

”أختي الجميلة، ما الذي جرى؟ إنك مريضة! يا ربنا القدير يسوع المسيح! ماكسيمليان، آسفة لمقاطعتك...“.

تبادل ماكسيمليان بضع عبارات أخرى مع السيدة الجميلة، وضربا كأسيهما، ثم قام ناحية ألبرتين.

”لديك دومًا أفكار مُذهلة يا عزيزتي“.

لكن مظهر فايتروت لم يكن يقبل الجدل، فاستسلم ماكسيمليان.

عانت فايتروت من الحمى، وقد أرسل ماكسيمليان لإحضار الثلج من القبو لتبريد جبينها. ثم مرّت ثلاثة أيام بلياليها بين الكوابيس والهلاوس. بعدها، استفاقت فايتروت تدريجيًا من فظائع وتهاويل المرض لتعود إلى حياتها اليومية المُعتادة.

”من ذلك الكابتن الذي ناديت عليه باستمرار؟ لم يسبق لكِ حتى أن

ركبت سفينة“.

”إنني لا أذكر شيئاً. حمداً لله أن كل هذا قد انتهى. فلا داعي إذاً لاستدعاء الأشباح“.

بعد أسبوعين عادت فايتروت إلى فيدزيم. أضحى السفر مُلائماً بشكل لا يُصدّق خلال السنوات الأخيرة. وقد نست تقريباً أيام التقلّب في المركبات الجماعية المُكتظة بالغرباء. إنها لتجربة جديدة كلياً أن تُسافر في عربتك الخاصة بصحبة حوزيك الخاص، حيث تتوقف عند مكاتب البريد لاستئجار الخيل فحسب، وحتى جابريلا الشابة لا تمت لبون سبريت بصلة. تدعوها فايتروت جبريلها الناري. إن هشاشتها الأنثوية مُجرد وهم، ففي وقت الحاجة، باستطاعة جابريلا أن تُحوّل السعفة إلى سيف، وهل هذه حقاً مفاجأة؟ فلا تخضع الملائكة للتصنيفات الجنسانية. وإنما تُعظّم فضائلها الخاصة.

وبإحجامها عن زيارة أقاربها الذين في فيدزيم، كانت فايتروت على يقين من أنها تريد بلوغ المنزل بأسرع ما يمكن. فهي تشعر بالإرهاق والضعف. والمنزل هو المكان حيث الراحة والسلام المستحيلين بأي مكان آخر، وهو يناديها. يجب عليها أن تستجمع حواسها، وترتاح، وتستخلص النتائج ببطء وهدوء. ومن ثم تُقرر إذا كانت ستقبل طلب كلابماير أم لا. إن البارون ينتظر. من السخيف حقاً أن يلعب رجل قارب الستين دور روميو.

وعندما لاحت ريجا أمامها وهي تعبر الجسر العائم فوق نهر دوجافا، شرّدت فايتروت، مُستعيدة إحدى رحلات عودتها من كورلاند في

الماضي يغمرها الشك، وتلوعها الحُرقة ذاتها. لقد حدث ذلك قبل سنوات بعيدة، عندما كانت تتقفى محمومة آثار إبهارت. وبسذاجة، صدّقت أن عليها استعادته إذا أرادت أن تُوَاصل حياتها بسعادة. فمن الذي خدعها بالمحصلة: إبهارت، أم كاليوسترو، أم الحُب؟ ربما كان ضعفها الأنثوي، عجزها عن الفصل بين الانتقام والحب؟ إن عُلبَة القَدْح تُوقد الشمعة على مدار عُمرٍ كامل. فهل تملك كل من الشمعة والقداحة نفس اللهب حتى؟

إنها تتعجب، كم كانت حياتها لتتقلب لو لم تدهمها الرغبة الجامحة آنذاك لزيارة بورتنيكي.

وباحثة عن إجابة، استدعى عقلها مشاهد الرحلة المحفورة في ذاكرتها. الدخول إلى الدار الساكنة، ومُقابلة الخادم المُسلح أولاً، ثم مُقابلته هو. نعم، لقد شعرت منذ البداية بشيء مصيري. ربما همس لها أسلافها؟ قبل تلك الليلة، كانت قد قابلت العديد من الرجال الذين أثاروا فزعها. لكنها في تلك المرة كانت فزعة من نفسها. كانت الغرفة الخافتة شديدة الحر، وكانت تتعرق، لكن لسبب ما، بدا أن السخونة لا تتبع من المنزل بل من أولست، والذي قضت كل ثانية في حضوره شاعرة بكونها امرأة، راغبة في أن تظل امرأة، ولا تُريد أن تصير شيئاً آخر غير امرأة.

طيلة حياتها، كانت تُصلّي وهي زاهبة للنوم: "ونجنا من الغواية". في ذلك الحين، هل حدث لها ما كانت تدعو الرب أن يُجنّبها إياه؟ لقد أُغويت.

فكيف للحظة ضعف قصيرة أن تصبح أكثر الأحداث سطوعاً ورسوخاً

في الذاكرة؟ إنها لا تُحب ابنها يوهان أماديوس، لا تُحبه، ولا يمكنها الهروب من ذلك. وفي المقابل، ليس لها أحد سواه. إن بريغن الشاب هو ابن أولست اللاتفي. إلهي، لِمَ نبذتني؟ لكن، إذ حدثت الأشياء كما خططت لها، فلمَ لمَ تختَر طريقاً أوضح ومباشراً أكثر؟

يضر بها هذا الطاعون من الأفكار. وهي تدور بها كما لو كانت مربوطة إلى عارضة. وبينما تدور يلتف الحبل حول العارضة ليصير أقصر فأقصر. ومرة أخرى، فإنها تصير نزوة لدى الرب، الغامض، الذي لا يُسبر غوره. وحيثما ارتحلت ومهما حاولت يسد الماضي طريقها. ولن تستطيع مُطلقاً تجاوزه. فهل يُفضّل أن تُصالحه، وأن تحتل عبئها بصفته قدرًا؟

لا شيء أمامها سوى الاعتراف بأنها تقف الآن مُجددًا، وجهًا لوجه مع الغواية: غواية الذهاب إلى بورتنيكي، لماذا؟ هي لا تعلم. هي لا تتسلى بآمال القبض على الماضي وشده إلى الحاضر. لا شك في ذلك. لكن، الأمر ببساطة، هو خوض رحلة على هدى الماضي، والطواف مرة أخرى؛ شاءت ذلك أم أبت. مُحاولة العثور على مكان الغريب، "أولستز". تُرى كيف يبدو الآن؟ آنذاك، كانت قد وصلت في جوف الليل، وفي الصباح كانت مُضطربة للغاية على أن تنتبه لما حولها.

لقد قطعت أميالاً طويلة في البحث عن إبهارت. والآن، تُريد الالتفاف صوب المكان الذي لن يُذكر مُطلقاً في تاريخ آل بريغن، لكنه سينتقل في دماء الأجيال القادمة. لماذا تُعاند نفسها؟

"جابريللا، مُريهمُ بإيقاف العربة. حدث تغيير في الخطط. سوف

نذهب إلى بورتنيكي!“.

قضيا الليلة في قصر ستريبيل لدى أقارب فايتروت الدانين لرحمها لكن فاتري المشاعر. ثم انطلقا في الصباح، وعند الظهر، لما برج الكنيسة من الحقبة الليقونية السويدية على مرمى البصر.

لم تته فايتروت هذه المرة، فقد استفسرت جابريلا عن الطريق في بيت الأبرشية، ومن ثم قفزت إلى جانب الحودي، وأرشدته إلى وجهته.

إنه يوم ضبابي غائم، لا يمت للصيف بصلة. ضغطت فايتروت وجهها بطفولية على النافذة وحدقت في الخارج. فكانت هنالك السطوح الكبيرة التي ذكّرتها بالوحوش الناعسة في الفناء. ثم طلع الصباح في قسوة؛ وقد نمت الطحالب الخضراء في بُقع مُختلفة من القش. وأحدثت بُقع أخرى ثقباً رثّة، حيث كانت الطحالب تبتلع المباني، وينمو نبات القراص في الأفنية.

أرادت فايتروت مغادرة العربة. وساعدها الخادم في النزول عبر درجاتها، وانتظر بالقرب منها تحسباً لأي شيء. لم تسمع فايتروت خوار الماشية، أو نباح الكلاب. وبدا كما لو كان المكان مهجوراً، لكن رجلاً عجوزاً ذا لحية طويلة بيضاء وشعر طويل أبيض خرج من المنزل، مُرتدياً لباساً عسكرياً غامضاً.

تعرفت فايتروت عليه على الفور، لا من مظهره، ولكن من حركاته المُتكلفة، التي كانت على الأرجح نتيجة لإصابة ما.

”آ-آ-آه، ها أنتِ سيدتي، قد عُدتِ أخيراً“ قال العجوز. ”كان سيدي يُردد دوماً أنكِ سوف تعودين. لقد نسيتِ مشطك في المرة الماضية. انتظري هنا، سأحضره لكِ، لكنني لم أعد سريعاً كما كنت في الماضي“.

وعندما عاد ورأت فايتروت المشط (وجدته بالفعل مشطها! يا إلهي!)
لم تستطع أن تحبس دموعها.

”لا أحد غيري هنا“ شهق الرجل بالبكاء أيضاً. ”خَلَفَ السيد بين والده في الجيش. وقد توفي جميع الأقارب، وتلاشت الحوزة تماماً. لم يسمح لوينوولد لنا باستخدام مزارعين من الأقان. وعندما أنهكت أنا، خسر السيد أولست الابن الأرض. على الأرجح أننا كنا شوكة في ظهر لوينوولد“.

”وأي النقيب؟“ كانت فايتروت مدهوشة من سؤالها نفسه.

أشار العجوز باتجاه البحيرة.

”بالمقبرة. منذ عدة سنوات بالفعل. إنها باتجاه اليمين من البوابة الرئيسية مباشرة“.

ثم أضاف بعد لحظات قليلة.

”عقب حملته الأخيرة في تركيا، نجح النقيب في العودة لرؤية حفيده. فبدا في حالة جيدة؛ لكن القس الذي كان يؤدي له طقس التناول، قال بأنه على أعتاب الموت بالفعل. لك أن تتخيلي ذلك، لقد نطق العجوز كلماته الأخيرة باللاتفية“.

(25)

بدأ أن يانيس كان يحرص بعزم ما فيه ألا يحظى بدقيقة من وقت الفراغ. لقد اقتلع من حياته أي شيء قد يُذكره بجونا. وقد حدث ذات مرة، أن اجترته بشيء من العنف إلى السينما لمشاهدة فيلم مارلينه ديتريش وأميل جانينجز الأسطوريين. وهو أحد "أفلام الغنيمة"⁽³²⁾ تلك التي أنعشت الإنتاجات الأيديولوجية السوفيتية بعض الشيء. لكن عند مرحلة معينة، لمحت يانيس جالساً بعينين مُغلقتين في الظلام، غير مُنتبه حتى إلى الشاشة. قبل أن ينهض ويغادر عند منتصف العرض.

كانت خسارته عميقة، ومع ذلك، مرّت الساعات والأيام بين العمل والمذاكرة والنوم. وفي المصنع، انتقل يانيس من قسم الرسم إلى التخطيط. ففي مجال التكنولوجيا تحديداً، كانت الحرب الباردة قد أعلنت عن نفسها كسباق نحو الاكتشافات الجديدة.

استمرت الحياة بالقصر دون تغييرات ملحوظة. وبالطبع، كان الضباط قادرين على مد أسلاك الكهرباء بالمنزل. بعدها، عملت نصف سرّية من الجنود بالمعاول لحفر خندق طويل، خاص بأنايب المرافق، والتي لم تُركب مُطلقاً رغم ذلك. وقد أهمل الخندق إلى أن رُدم مُجدداً

32- هي الأفلام الهوليوودية والنازية التي أعيدت معالجتها وفقاً لتوجهات الرقابة السوفيتية وطُرحت في دور السينما في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي من أوائل عام 1947 وحتى عام 1956.

بمرور الوقت. كانت البضائع مُتوفرة بالمحلات، إذا تحصّلت على المال بالطبع. لكن محافظنا كانت فارغة بالفعل، فقد ذهب دخلي على المنحة الدراسية. وكان يانيس هو صاحب الدخل الحقيقي الوحيد بيننا. في حين أمّدنا بستان العمة ألما بجميع ما احتجناه من البطاطس، واللفت الأصفر، والجزر، والكرنب.

ثم بدأت أزمة الملابس. واظب جدي بفخر على ارتداء معطفه وروبه. واستعارت العمة ألما بعض الأشياء من دولاب البارونة كما حوّلت إحدى البطانيات إلى معطف. وفي سوق زفيرجزدو للسلع المستعملة، باعني رائد متقاعد وسكّير معطفاً ثقيلاً خاصاً بالجيش الأمريكي، وباراشوتاً من الحرير الطبيعي الملائم للقمصان. أمّا يانيس فقد واجه أصعب أوقاته. لقد كبر الفتى الصغير وأصبح بالغاً قصيراً. ولذا، صار بحاجة لشراء أشياء جديدة. لكنه أسعف نفسه بالفكرة الاقتصادية المتمثلة في استغلال أقمشة العباءات البالييرينية السوداء. ولحسن حظه، أن الخياط (الذي قدّم خدماته لجدي في الماضي، وكان يدّعي أنه خاط بدلات الجنرال بالوديس الرسمية، وأنه عمِل لدى كل من مغني الأوبرا شاليابين وملك ألبانيا أحمد زوغو) كان مُغرماً باللفت الأصفر.

بدا يانيس كقسٍ مُتكلّف في بدلته ومعطفه الأسودين. كما أن كل من شعره الأسود اللامع، وحاجبيه الأسودين، ورموشه وإطار نظاراته السُود، جميعها صنعت انسجماً؛ لم ينتقص منه حذاؤه البنيّ ذو النعلين المطاطين المصنوعين من عجلات سيارة.

حظيت رفقة يانيس بغرفتنا الخاصة، لكن لسبب ما، كنا نقصد مكتب جدي بهدف المُذاكرة. حتى وإن لم يكن يعمل، بل يرقد على الأريكة

الجلدية ذات الصرير مدممًا ومغممًا، بينما يقرأ صحيفة قديمة على ضوء لمبة الجاز المُعدلة حتى تعمل بالكهرباء، والتي ما زالت تُوزع دوائر الضوء خاصتها علينا كما لو كنا نعيش في ثلاثة عوالم مُختلفة.

تحدث يانيس مع جدي في معظم الأحيان. لكن وفق قواعد جديدة، حيث صار جدي مَنْ يطرح الأسئلة، ويانيس من يُجيب. على سبيل المثال، فقد صُدم جدي من تصريح يانيس عن أن الآلات الحاسبة الإلكترونية ساعدت أمريكا في كسب الحرب.

”هل يعني ذلك أن باحثي أشباه المُوصلات، سيحتلون نفس مكانة الفيزيائيين الذين قدموا الذرة للعالم؟“.

”لا!“ رد يانيس بسرعة مثل سمكة تقفز خارج الماء. ”إن صناعتنا تخطو باتجاه الذكاء الاصطناعي. والسؤال الأهم هو: ما نوعية الأشخاص الأخطر من غيرها؛ هل صاحب الذكاء المحدود أم الضعيف؟“.

”إن شخصًا بلا ضمير هو الخطير حقًا“.

”حسنًا، إذًا. سوف يُوضع نظام. حيث ستتحكم بالذكاء الاصطناعي رقاقت ضميرية“.

”وسوف ينزعون الرقاقت، أو ربما لن يزرعوها مُطلقًا!“ تكلم جدي في ثقة وغب، دافعًا نفسه لوضعية الجلوس، كعلامة أكيدة على أن الحديث لم يكن ليفرغ مُبكرًا.

”لا يهم“ رد يانيس بلهجة قاطعة. جاعلاً رأسه بين يديه مثل الكرة بيد لاعب السلة. ”إن تاريخ البشرية عبارة عن استسلام كبير للتقدم. يعتمد تطور الجنس البشري على قدرته في التأقلم مع مُخترعاته“.

”آها! أحسنت القول!“.

”سوف تتيح أشباه الموصلات إنتاج الأطراف الصناعية. في الماضي؛ قدّم محرك الاحتراق الداخلي للبشرية للسيارات والطائرات. والآن سوف يُطوّر الإنسان نفسه، بادئاً برأسه“.

”وكيف تسنى لك معرفة ذلك؟“.

”يحتوي مخ الإنسان على عدد هائل من الخلايا العصبية، لكنه لم يزل محدوداً. وسيكون بمقدورنا مضاعفة قدرة المخ الاصطناعي كيفما نشاء. ومقارنة بعقل مُطوّر اصطناعياً، سوف يبدو عقل الهوموسبيان المُعاصر كعقل ذبابة بالنسبة لعقل عبقرى“.

”رائع، رائع، لكن هل خلق الله الإنسان (الذي خلقه على صورته وشبهه) على الأرض برأس مؤقت؟ دعه يُنهي عمله الخاص به! فلا شأن لك بذلك!“.

تزداد مثل هذه المناقشات حدة في بعض الأحيان، ورغم ذلك، تستقر في موضع ما من التجاعيد والتغضنات المخطوطة على جبين جدي ابتساماً ماكرة، كما أن يانيس يستهل حتى أكثر آرائه حدة بالقول ”جدي العزيز“.

وكل يوم أحد، كنا نذهب (أنا أسبوع ويانيس أسبوع) إلى سوق السلع المستعملة لنبيع شيئاً ما: الشمعدانات، وقبعات حاملي النعوش، ومُعدات الإسطبل.

كان السوق قد نزح من حي سبويري إلى جزيرة زفيرجزدو، والتي ارتبطت بالمدينة بواسطة جسر خشبي ضيق يتيم. وعلى مدى سنين،

ظلت جزيرة زفيرجزدو أكثر مكان مُثير للفضول بريجا. حيث اختلط الفقر بسحر الأشياء، والعملِي بالمتكَلِّف، والرغبة بالغريزة. ترسبت الأشياء المعروضة هنا من انحسار فيضان التغيير السياسي؛ أشياء سقطت بالصدفة في أيادي الغير. أو (على النقيض من ذلك) فقد باع كثير من الناس آثار عائلاتهم، وحُليهم التي صارت مُجرد خردة. كما احتوت أكوام القمامة على ما يُشبه العطايا الإلهية بالنسبة لبعض الزبَّالين المحظوظين. وسواء أمطرت أم لا، وسواء ضربتها برودة الرياح أو قيظ الشمس. كانت جزيرة زفيرجزدو تَهدر صاحبة. وذلك حيث يُغني المتسولون، ويلعب المحتالون الورق، وتضرب النساء العجريات الودع، ويُنظف النشالون الجيوب. أيضًا كانت الفونوغرافات ترتج بموسيقى الشلاغر، كما تعزف البيانولا، وتُغرد عصافير الأقفاص، وتنبح الكلاب، وينقنق الدجاج في السلال. مُطوّقين بروائح النفتالين، والبونشيكي المقلي، الفودكا، والكولونيا الرخيصة، بالإضافة للبول والعرق.

ذات مساء، حكى لي يانيس عن فتاة بجزيرة زفيرجزدو كانت تباع سَمًّا لقتل الصراصير. لقد خسرت أسرتها بالكامل في الحرب؛ وقد نجت لأنه حين سقطت القنبلة على المنزل، كانت هي تستحم، فقضت أيامًا تحت الأنقاض. وبعد ولادتها الجديدة أصبحت ترى العالم بالأبيض والأسود أحيانًا، ومُلونًا بالكامل في أحيان أخرى.

”اليوم كُنْتُ بلون زجاجة شامبانيا. والمرة التي قبلها، كُنْتُ بالأبيض والأسود، تقول لين بأنني كنت أسود مع ظلال بيضاء“.

لا يتحدث الناجون من الغرق عن مشهد الغروب عند البحر. وبالمثل، كان يانيس يعيش كما لو أنه حَذَف النساء من نظرتة للعالم، أمَّا الآن، فقد خطف عينيه طرف تنورة.

ولمّا حان دور زهابي للسوق، طرحت بضاعتي على الأرض وشرعت في البحث عن قاتلة الصراصير.

”بروكسيلين سام“ مرّت بجانبني ثم عرضت عليّ قائلة ”فقط ارسم خطأً منه على الأرض حيث تُوجد الصراصير، وهي هالكة لا محالة“.

”هل يعمل ذلك حقاً؟“.

”جربه بنفسك“.

أحاطتها هالة من الشّعث والإهمال، والتي منحت وجهها وجسدها مظهرًا ما تراه من خلال عدسات قذرة. بمعطفها الأزرق الرمادي المُبطّن، وسروالها القطني المُقلم، وشعرها القصير كصبي. كما جعلتها قبعة الفارس أشبه بِفطر مثني. لاحقًا، علمت أن القبعة كانت بمثابة محفظة، حيث خِيط بها جيب لحفظ النقود.

فهمت الفتاة أنني لم أكن أنوي الشراء فابتعدت. لكنها عادت بعد وهلة.

”هل أنت أخو يانيس؟“.

”هل تعتقدين ذلك؟“.

”حاول يانيس بيع ذلك الشمعدان الأحد الماضي“.

بدت عيناها غير عادية. واسعة ولامعة للغاية. كما لو يكون لها بؤبؤان.

”دعنا نتشمس قليلًا! فالجميع اليوم شحيحون، ومُتأفّفون، لا يرغبون في شراء شيء. وعمومًا، لقد كذبت عليك بشأن البروكسيلين، إنه مُجرد كبريت عادي!“.

”معقول، تخدعين الناس؟“.

”إنني أبيع الاعتقاد بأن الصراصير يُمكن أن تُباد. ومن ثم، تنمو لدى الناس الرغبة في فعل ذلك“.

”هل تظنين ذلك؟“.

”بل أعرفه. فالرغبة هي ما يهم. ومن ثم يصير كل شيء حقيقة“.

”حسنًا، دعينا نرغب سويًا. اسطعي، يا شمس..“.

انتظرت ابتسامتها، لكنها لم تفعل.

”أداؤك سيئ“ قالت.

في ليالي الأحد، كنت أتساءل أين وصلت لين وفي أي طور هي: الملون أم الأبيض والأسود. وبمجرد أن تطأ قدمي أرض الجزيرة، كنت أحاول العثور على قاتلة الصراصير والدردشة معها. فصارت تلك لعبة صغيرة، ضمنت يانيس إليها. لكنها ابتلعتني وحملتني بعيدًا مثل دوامة. فقد كنا نتبادل المعلومات التي عرفناها عن لين، دون أن نصل مطلقًا إلى إجابة حاسمة. بل كان يمد أهدنا الآخر بالأسئلة التي أثارت فضولنا متوسلين الإجابة. يُمكنك حتى القول بأن لين لم تُشبه في شيء برنامجًا تليفزيونيًا مُعاصرًا.

لقد عرفت بعض الخدع. فكانت تسير صوب أحدهم، وتجعل الكوبيكات⁽³³⁾ تتساقط من أنفه، فكانت العُمَلات تجلجل على الأرض كما لو سقطت داخل إناء زجاجي. كما كان بمقدورها إيجاد الآيس كريم

33. فنة نقدية روسية، تقابل القرش المصري، أو السننت الأمريكي.

من العدم من جيب الشخص الذي تمر به، وحينما سُئلت أين تعلمت ذلك
ابتسمت وأجابت:

”من النشّالين“.

”النشّالين؟“.

”هنالك فارق ضئيل بين النشّال والساحر. أمّا إذا كنت تُجيد عزف
البيانو كذلك..“.

كانت تلك مفاجأة جديدة. فقد ذكر يانيس كم أن لين صدمته بجهلها
الموسيقي الرهيب. لكنه غيّر رأيه بعد أسبوع.

”اتضح بأنها تعرف العزف على البيانو! خمن كيف؟ لقد علمها
والدها! كان يعمل بالكونسرفتوار“.

من خلال ما حكته لنا، لم نستطع معرفة كيف انتهى الأمر بلين وحيدة
في العالم. لقد سمعنا بعرابتها هورتنزييا، وقريبها الذي عاش بحي
ميتا باركس بـ ”فيلا أفريكان“ حيث تسللت الطيور والحيوانات الهاربة
في بعض الأحيان إلى المنزل. لكن كان بادياً أن لين تعيش حياة التشرّد.
لكن حتى هذه الفرضية انقلبت رأساً على عقب، حينما عرفنا بأن لين
كانت تعمل كعاملة تدفئة في أحد المباني الكبيرة. فخلال السنوات التي
أعقبت الحرب، اهتم سُكان المباني الفخمة بأنظمة التدفئة، فكان عمال
التدفئة مهمين للغاية. وقد تولّت لين أمر كروميش؛ وهو شاعر وعازف
جيتار وكاتب أغانٍ؛ واجه متاعب مع الحكومة، وكان قد اضطر قبل ذلك
للدخول إلى مستشفى الأمراض النفسية.

”أي مهنة تلك تصلح لفتاة؟“ لم يكن السؤال سؤالاً بالضبط، ففي

ذهني، كان عمال التدفئة في مصاف الحدادين وسناني السكاكين.

”لكن لين بخير. حيث يُمكنها جرف الفحم وقتما تشاء. صحيح، أن الأجر ليس الأفضل، لكن إجازتها الصيفية أطول من التي يحصل عليها المعلمون، كما أنها تحظى بشقة للموظفين في الطابق الأرضي. حتى إن الشاعر قد ركّب لها دُشًّا“.

شرح يانيس ذلك بالتفصيل الممل. وكان من غير الممكن رسم مثل تلك الصورة الحيّة اعتماداً على الحكايات المسموعة فحسب. لا ريب بأنه زار المكان ورأى كل شيء بعينه.

لم يزر يانيس السوق لفترة بعد ذلك. وكنت مُندهشاً من أنه لم يسأل عن لين مُطلقاً. وفي المقابل، كان ذلك مفهوماً باعتباره فضولاً مؤقتاً محتوم الزوال، كأن يجد المرء بيضة طائر في الغابة أو صدفة مميزة على شاطئ البحر. وقد شعرت بمسؤولية بعض الشيء عما حدث. فتلك اللعبة لم تكن لتبدأ دون تدخل: لعبة الباحث مع فتاة ترى العالم من خلال انعكاسات باطنية للعاطفة، لكن الحياة تمضي عكس ما هو متوقع.

تعمل الأسواق كمغانط جاذبة للمنحطّين والمُختلين. وقد ضُربت لاتفيا بتسونامي من المهاجرين، والذي جلب معه أرواحاً ضائعة ولصوصاً من جميع الأنحاء. تماماً مثلما ابتليت هاواي بالزُهري، والذي لم يكن السكان المحليون مُستعدين له جسدياً ونفسياً على حد سواء. لقد اجتاحت ريجا ثقافة الجريمة غير المعهودة، والتي عززتها ظروف الحرب ببذور جديدة من فرق الموت، المُدثرين ببخار الفودكا، وبالميداليات والتكريمات فوق قمصانهم المُقَمّلة. والمُصابون يطبعون على الطين بعكاكيزهم.

جسدت زفيرجزدو استعراضًا للبداءة، فكانت تنتهي المحادثات العارضة عادة بسكين في المعدة. وقد تُغامر امرأة جميلة ترتدي أقرطاً بخسارة حُلِّيها، إن لم يكن أذنيها.

بحلول المساء، كانت الحشود تنحسر، بينما يُسخن الكحول الأجواء لدرجة الاشتعال. وعندما اقتربت امرأة مُحترمة المظهر من يانيس راغبة في شراء مَعرفة الحساء الفضية الخاصة بالعمة ألما منه. تجمع حشد من المتطفلين حولها، وقبض رجل على خصر السيدة من الخلف ثم رفعها مازحًا، بينما نزع رجلٌ حذاءها وهرب به مبتعدًا.

إنها مُجرد حادثة مُعتادة بجزيرة زفيرجزدو، بلبلة قصيرة، وسبب كي يتنهد المرء في ارتياح لأنه لم يكن الضحية بفضل الرب. وعرض يدغدغ مشاعره (لم يُوجد تليفزيون في تلك الأيام) بتصفيرة من مُتفرج، أو صراخ أحد الجيران. لقد كان التدخل أو الانخراط في ذلك أمرًا بائسًا وخطرًا. وخطورته في أقل تقدير تُشبه محاولة الهروب من زمرة من الكلاب الجامحة ويبدك ربطة سجع.

لكن يانيس كان من طينة مُغايرة. وقد وصف ما حدث كالتالي:

”لم أكن أدرك أن الغضب قد ينفجر قبل أن يتسنى لعقلك الوقت للتصرف بشكل صحيح. ركضت خلف اللص صارخًا فيه: ”ألقه على الأرض وإلا أطلقت عليك النار!“.

ركض الحرامي، مُتجنبًا حشد المارة الخائف، كما لو كان يتجنب أشجارًا. وبينما ركضت خلفه، شعرت بهذه الوحدة الفظيعة. أدرك أنني كنت وحيدًا تمامًا وكليًا طيلة الوقت، لكن لم يسبق لي الشعور بمثل هذه الوحدة التي انتابتني آنذاك. بعدها لهث الحرامي عند وصوله الجسر

ثم توقف. وعندما رأني لا أحمل مسدسًا، كان مُندهشًا وغازبًا بشكل لا يُصدق. وصرخ بي “ماذا تُريد؟” وهو يرتجف من الغضب.

”ألقه! ألقه هنالك!“.

”أيها الوغد الياباني الملعون! لقد أمطرتُ أمثالك برشاشي الآلي في الكوريل! هل ترى هذه الميدالية؟ لقد سفكتُ دماءهم! وغدا! إن فاعل الخير بحاجة لعقاة! هل تظن بأننا لن نفعلها؟“.

كانت مجموعة من رفاقه قد لحقت بنا، بينما سدت مجموعة أخرى الطريق. وكنت وحيدًا، حتى عندما رموني من على السكة وسقطت بمياه الدوجافا. لقد عاركت تيار المياه البنية المصفرة وكتل الجليد التي كانت سوداء أكثر منها بيضاء إذ غطتها القذارات الطافية على مدار الشتاء.

”واكتشفت أخيرًا عندما اخترقت السطح، أنني لم أعد وحيدًا أكثر منذ ذلك. فمن قبل، كانت لين قد ركضت على الجسر، متسلقة بالفعل السكة وقافزة على إثري في الماء.“.

كانت تلك حكاية يانيس.

قضت لين شهرًا بالمستشفى، حيث بقي يانيس لفترة أطول قليلًا. ثم تزوجا بعد ذلك بوقت قصير.

(26)

مثل طائرة، يُحلق الزمن فوق رؤوسنا من مسافة مجهولة، عابراً إيانا قبل أن يختفي ثانية عبر الأفق. عندما تجلس لتناول الإفطار، يبدو المساء على بعد مُحيطات ومُحيطات منك، على الجانب الآخر من العالم. أمّا السنوات التي عشتها بالفعل، فإنها تُسوَّى بالأرض، وتُتَبَّت مفرودة على الحائط مثل لوحات التصاميم.

باستطاعتي اليوم استدعاء كل مشهد من حياة يانيس ولين. فبعد أن ختموا جوازات سفرهم من مكتب السجل المدني، عقد جدي قرانهم بالقصر. وفعلاً، مثلما أكّد هو نفسه، كان جدي قد حصل على رخصة الملاحة الساحلية الصادرة في عام 1919 عن حكومة لاتفيا المؤقتة، للسفر عبر خليج آيناغي. وحسب الأعراف، فقد حوّل الرِّبَّان حق عقد الزيجات، والذي كن له جدي تقديراً بالغاً.

كنا في انتظار طفلنا الأول، والذي تُوفي بعد وقت قصير من ولادته.⁽³⁴⁾

قبل الحرب، كنا قد خزّنا دفاتر مكتبية بغرض تسجيل الحسابات، وكان لهذه الدفاتر أغلفة سوداء مُجلّدة وأوراق جيدة. وفي ما بعد،

34- الفقرات المكتوبة بخط مائل هي من مذكرات لين وعلى لسانها . المترجم

استخدمت لين إحداهما في كتابة رسائل من دون عنوان. وقد أحضرتها إليّ ذات مرة لوضع علامات الترقيم بأماكنها الصحيحة. فلم أزل مُحْتَفِظًا بالدفتـر السميك ذاك، حيث لم يزل الماضي يتنفس في كتاباتها.

– لماذا خُلِقَ العالم بالألوان، إذا كانت غالبية كائناته الحية لا ترى الألوان؟ فقد تبيّن أن النحل، والخنافس وغيرهم من الحشرات الطائرة لا يُمكنها سوى تحسس المعلومات المُتضمنة بالألوان. من الواضح أن ذهني المُشوَّش قد ورث شيئاً عن النحل أو الخنافس. لقد فهمت يانيس منذ لقائنا الأول، ودون حاجة لتبادل كلمة واحدة معه. كما كان ليحدث في الظلام التام، حيث تشتغل الحواس بمعزل عن مفاهيم الحب والكراهية، الذكاء والغباء، الجمال والقبح. يظن الناس أنهم يصنعون قراراتهم بغتة، بحرية، لكن واقع الأمر يُشبه الدخول إلى متجر مع قائمة مُشترىات حاضرة بالفعل داخل الذهن. وبالتالي، تنحصر المسألة في ما إذا وجدت ما تريده أم لا؟ لقد ضمت قائمتي يانيس، وها أنا قد وجدته.

– كانت جدتي غريبة الأطوار. فكانت عيناها الداكنتان ترميان بشرر. كما كانت تُكلمُ الزهور، والدجاج، والطيور، وكانوا يفهمونها. وفي أحد الأعوام، حضرت جدّتي إلى حفل ميلادي بيدين خاويتين. فتحسّرت لذلك، لأنّه قد حضر كثير من الضيوف، وجلب كل واحد منهم هدية. وسألتها: ”جدّتي، لماذا لم تُحضري لي هدية؟“. فنظرت إليّ بهاتين العينين اللامعتين وقالت: ”هديتكِ هي وجهي“. فظننت بأنها تمزح بأول ما خطر على بالها لكيلا تعترف بأنها نسيت الهدية.

– لكن، كلما نظرت في المرآة بمرور السنوات، زادت قناعتي بأن الجدّة كانت على حق. لأن لديّ وجهها بالفعل، وربما سأكتسب تجاعيدها في المستقبل. حتى إنني سعيدة حالياً بالتحدث إلى الزهور، والدجاج، والطيور.

ظلّ ميلاد طفلتها الأولى إيريته ووفاتها عقب ذلك بشهور، حدثاً لم تُسجِّله لين بالدفتري إلا بعد تجاوزه بسنوات. إلى أن أنجبت من يانيس ولدًا اسمه ناميس وبنّتاً اسمها زيله، عندما استجمعت أخيراً شجاعته لمواصلة الكتابة من حيث توقفت.

- ظلّ الهواء الذي يملأ فقاعات الصابون هنا لملايين السنين وسوف يظل للأبد هنا، حتى بعد أن تنفجر الفقاعيع. يعني الميلاد اكتساب جوهر جديد. يعني الميلاد السقوط في بحيرة مثل قطرة مطر والتحوّل إلى رقرقة نامية على سطح المياه؛ والذي يُشبه العالم المليء بالرققات الكبيرة والصغيرة. وسرعان ما تتلاشى رقرقة ما، وتتبعها أخرى. بينما يُواصل المطر التساقط، كي تحلّ رقرقات جديدة محل التي زالت، فتتمو، وتمس، وتتدفق.

- تكلم الطبيب حاملاً إيريته؛ التي لم تزل ملساء، ومُتوردة، وتغطيها الدماء: ”يا لها من سيدة صغيرة جميلة“. لقد رأيت وجهها المستدير، وهي تصرخ باكية، فخطر لي أن هذا وجه القمر. انبلجت إيريته من جيشان خصري كقمر دام ينبلج وسط السحاب في ليلة عاصفة. فكنت كسحابة شقّها القمر. حيث ارتجت الجدران البيضاء المُتوهجة وماجت، مثلما تراقصت الأنوار المُتدلية فوقني بضغط وضّاء ومزقني الألم. وحالما شعرت بخور قوتي ورغبتي في الموت، انزلقت هي في هدوء، وسلاسة، ودون توقف. فعلقت صرختي في حلقي، كما لو أنني أختنق. ولست أذكر ما حصل لاحقاً، بل الانزلاق فحسب. وكم هو مدهش، لأنه بالنظر للوقت الذي استغرقه، فقد بدا وكأنه استمر للأبد.

- في المدفن، انزلت إيريته مرة أخرى. لكن في الاتجاه المعاكس. لقد فكّ جدي ويانيس ببطء المناشف المُبطّنة للتابوت. وكان القبر أشبه بالبطن الواسع المفتوح للموت، والذي يسترد ما حضر للعالم بواسطتي ذات ليلة قبل شهرين.

- هل الموت سهل أم صعب؟ فإذا كان الموت صعبًا، لماذا لا تمنع صعوبته حدوثه. وفي المقابل، لا ينبغي للموت أن يكون أسهل من الولادة، لأنه لماذا تكون مُغادرة البوابة أسهل من الولوج إليها؟ يُخلق المرء للحياة، لكن مع معرفة أن الموت محتوم لا محالة. للطائرة مثلًا أجنحة، كما أن لها عجلات. وبالمثل، لا يُخلق المرء دون ملاءمة المهام المنوطة به. والموت من مهامنا، مثلما هي الحياة بالضبط.

- يانيس خارج المنزل الليلية، وأعجز عن النوم. بينما ينسلّ شعاع القمر إلى زاوية الغرفة مثل فأر فضي متوهج. وتقف إيريته ملاصقة لإطار الباب وناظرة إليّ، كما لو كانت في انتظار أن أرسم فوقها خطأ يوضح كم بلغ طولها. أعرف أنها أحلام يقظة لا أكثر. لكن هل يُغيّر ذلك شيئًا؟ من المُفترض أن يُنقش على شاهد قبر شكسبير: «مثل الأحلام خُلِقنا».

رَبّت لين أبناءهم بطريقتها هي. كانوا جميعًا يتكومون في السيارة ليذهبوا إلى بيبالجا أو فالميرا. فكانوا يمرون بمطعم في طريقهم، ثم يبردون موتور السيارة بالماء في محطة الوقود. ففي ذلك الحين، كان بمقدورهم تأمين الرفاهيات. حيث شارك يانيس في اختراع كان يعني في ذهن لين شيئًا واحدًا وهو زيادة في الأجر.

- ركنّا السيارة على حافة الغابة وقطعنا مسافة على أرجلنا. ثم عثرنا على قارب عند البحيرة، حُبّئت مجاديفه بين الأشجار. كانت رائحة الماء

أشبهه بالخريف. إن البحيرة مثل الحديقة، لها أوقات ذبولها، وازدهارها، وإيناعها. وكم يبدو سخيلاً أن تُشبه رائحة بحيرة في الخريف رائحتها في الربيع، لكن حاسة الشم لديّ قد تبلدت واعتادت على رائحة واحدة هي رائحة العوادم؛ المتماثلة في مارس ومايو كما في أغسطس. وبمقدور أنفك الاستمتاع بنفسها حقاً في الربيف.

من الصعب الجزم بأن لين لم تزل ترى الألوان بطريقة مُغيرة لنا. لكن إحدى مذكراتها قد تطرّقت إلى الأمر:

- الخريف فاتح. أمّا ظلُّ الأوراق التي كانت سوداء ذات مرة، صارت الآن مُتوهجة برقّة مثل أباجورة. كانت حافة الغابة هي الأكثر بريقاً، تُزينها أشجار البتولا والقيقب والزيزفون مثل حُلّي ذهبية. تجرف الرياح الأوراق في أكتوبر فتكسو بها الطرق مثل طوابع بريدية خريفية. وعندما عُدنا في المساء، كان البدر المكتمل يلمع في زهو.

”هل يرحل القمر عندما لا نراه؟“ سأل ناميس.

”لا، ولم قد يفعل ذلك؟ إنه هنالك.“

يا له من سؤال طفولي، ويا لها من إجابة طفولية! فماذا تعني ”هنالك“، وماذا تعني ”يرحل“؟ ...

لم يكن مُقدراً أن تتقدم مسيرة يانيس المهنية تدريجياً. فحتى ينال حق العمل بوحدة الأبحاث التي تُختم تصاميمها بعبارة ”سريّ للغاية“ باللغة الروسية. كان على المرء بلوغ أقصى درجات الشفافية وملء استمارة مُكونة من مئة سؤال تقريباً. مع العلم بأن الاستمارة لم تسمح باستخدام الاختصارات أو الرموز، وإنما اشترطت كتابة كل شيء بالتفصيل الممل. وعندما وصل يانيس إلى الجزء الخاص بـ”الأب،

الجد، والجد الأكبر، وبقية الأقارب من ناحية الأب“. كتب بأن والده مات خارج البلاد، لكنه لم يعرف من جده لأبيه، وبالتأكيد لم يملك أدنى فكرة عن جده الأكبر. وكان ذلك سبباً كافياً حتى يصبح نجم الصناعة الصاعد والمفعم بالحماسة مثل الخاتم في إصبعهم. لقد استدعي يانيس إلى مكتب مدير المصنع، حيث قابل مسؤولاً ينتمي لمؤسسة رفيعة المستوى، والذي قطع المسافة من موسكو بغرض مقابلته على وجه التحديد.

”حسناً، دعنا نوافق على أن جدك تولى رعايتك منذ عمر الثانية عشرة فصاعداً. فما زال ذلك لا يعني شيئاً“. قال المسؤول: ”كل إنسان مُكوّن من جزأين: أمه وأبيه. كلاهما موجود على نحو واقعي، سواء كنا نعرف ذلك أم لا، وسواء أردنا الاعتراف بذلك أم لا. ولأنهم موجودون، فإن علينا أخذهم بالاعتبار. حسناً، إن والدك ميت، لكن قد يكون له إخوة أو أخوات في مكان ما من كيوشو أو كاواساكي. هم أقرباؤك بالدم. وليس لدينا الحق في التصديق على شخص لا يعلم شيئاً البتة عن شقِّ بأكمله من عائلته. دعني أكون صريحاً؛ إنها جهالة خطيرة! وكانت ستصبح موضع مسائلة لو كانت متعلقة بأرباع أو أثمان النسب، فما بالك بالنصف! إن المرء مُركب من ثنائيات. فلديه عينان، ويدان، وقدمان، ورتتان، وكليتان، وفصّان للمخ... فهل تحسب أن هذا برمته عبث؟“.

طالت المُحادثة. وفي النهاية، نطق المسؤول من المؤسسة رفيعة المستوى بالتالي:

”ليس لديك؛ هنا في ريجا، أي أملٍ في الحفاظ على الموقع الذي تشغله حالياً. لأن العديد من المُلابسات تحول دون ذلك. ورغم هذا، فإن استغلال تلك الظروف بطريقة مُغايرة قد يؤدي إلى نهاية تصب في

صالحك“.

”ماذا تعني؟“.

”ألم تنتظر للمرأة من قبل؟ باستطاعتك امتلاك عمك الخاص بطوكيو، أو يوكوهاما، أو كيوتو. على الأرجح أنت تعرف أنه حتى عام 1854 كان الأجانب المُتسكعون باليابان يُرسلون إلى الإعدام“.

ردّ يانيس أنه برغم كون أحد نصفه يابانيًا، فإن النصف الآخر هو لاتفيّ. ربما تمثّلت المشكلة في أن نصفه اللاتفي كان بالأسفل، ولذا، ربما يهتدي عقله للسفر إلى اليابان، لكن قدميه لن تُطاوعه.

لم ينته المطاف بيانيس عاطلاً. حيث عرضت عليه الجامعة وظيفة مُحاضرٍ.

... كل أحدٍ بعد أن تُنظف العمة ألما ولين طاولة العشاء، كان الصغار يركضون للتمتع بالفراغ الذي يفتقدونه أثناء إقامتهم في المدينة؛ في حين يتمدد جدي على الأريكة الجلدية ذات الصرير، ويحتل يانيس مكانه المعتاد فوق الدرجة الأولى لسُلم المكتبة. وكنت أنا أيضًا أتخذ جلستي المعتادة على الكرسي الذي أسميناه ”كرسي أولست“. والذي مثل قطعة الأثاث الوحيدة التي حملها جدي معه عند عودته لريجا.

”أعتقد بأن هنالك خطأ بالكتاب المقدس“ قال جدي. ”لا ريب أن حكمة الرب تتجلى في معجزة الخلق. وبخلقه الإنسان، والخيال، والكلاب، والقطط، وهلم جرا. قد أبان الرب عن قدرة إبداعية وإلهام فني عظيمين. لكن تتضح تفاهة ذلك مقارنة بقدرته على الزج بمخلوقاته تلك في علاقات بعينها؛ بحيث يخدمون غايات بعضهم البعض وحتى ينفع أحدهم الآخر“.

”لماذا عدَدَت الحيوانات فقط؟“ كان يانيس غير راضٍ. وقد نزع نظاراته وغطى عينيه بيده.

”في سلسلة الترابط، يتسع المجال لكلٍّ من الفطر النفاث في الغابة والنجمة في السماء.

فحتى النجوم لها أعمار، وملامح للشبوب، والشيوخوخة. إن الحي يخرج من الميت، كما أن الميت يخرج من الحي“.

”لم أتأمل منذ فترة طويلة السماء بمنظاري“ ضحك جدي. ”هناك تلك الثقوب السوداء التي تبتلع كل شيء، حتى مظهرها الخاص“.

”نحن نُميز ما هو حي مما هو دون ذلك مثل الريفيين الأفظاظ“. تحدث يانيس، دون توقف ”الكزها بعصاك، فإذا ركضت، فإنها حيّة! وإن لم تركض، فهي ميتة! لا يهتم الواقعيون والإحيائيون بالاستفادة من التعاليم القديمة، ففي أي موضع تصف هذه التعاليم الحياة بأنها القدرة على الأكل والإفراز؟ إنما الحياة ممكنة حتى على شاشة الكمبيوتر. ومن المحتمل حقًا أن تكون الذرات أجسامًا كونية داخل نظام ذي أبعاد مُغايرة تمامًا“.

من يدري إن كان يانيس ينتظر إجابة عن أسئلته أم لا، لكنه توقف لوهلة، والتي كانت كافية حتى أعطيه إشارة.

”بِس-س-س!“.

فتح يانيس عينيه، ووضع نظاراته، ثم نظر إليّ. ”بِس-س-س!“ لَوَّحت إليه. مُتحدثًا بصوت خافت: جَدُّنا نائم“.

هكذا أتذكر جدي، نائمًا على الأريكة، بملامح هادئة، ويدها معقودة

على صدره. بينما واصلنا أنا ويانيس الكلام. وعينا ي مُصوبة على جدي، أرغب في رمي شيء على الأرض أو تحريك كرسيّ لإيقاظه. للتأكد من أنه نائم فحسب.

”هل هذا كل شيء؟“ اعتدل جدي فجأة.

الآن أنا أتنفس.

”لم تكن تستمع حتى“ قال يانيس.

”ولم تظن ذلك؟“.

”كنت تُشخر“.

”غير صحيح. لأنني أنام هادئاً مثل سمكة في الماء. وقد سمعت كل شيء. لكنني كلما فكرت بأن الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله، انتابني شعور بأنني قريبه. ثم تأتي أنت لتبلغني بأنني لا أختلف عن بقعة الغبار تلك الراقدة بركن من أركان مجرة بعيدة“.

داخل الدوائر الأكاديمية، يُلقب يانيس بـ”البروفيسور الطليعي“.

تنقلّ حيثما شئت، من المستحيل الوصول لأي مكان دون الاصطدام به. يعتقد البعض بأنه ينتمي إلى طليعي الواقع الافتراضي. بينما لا يزال آخرون على قناعة بأنه مُنخرطٌ في التخطيط السريّ لثورة على فلسفة كانط. وبشكل أدق، على أطروحة كانط التي تفصل بين العالمين المادي والميتافيزيقي. لقد استمعت إلى عدد من محاضرات يانيس عن طبقات الواقع: الطبقة السابعة هي فراغ مُطلق لا يحتوي شيئاً لكنه يخلق كل شيء. كما انقلب العالم رأساً على عقب في أكثر من مناسبة، فما الذي يحول دون حدوث ذلك مُجدداً والعالم على أعتاب الألفية الثالثة؟ لقد

مرت مئة عام على أينشتين، ولا بدّ لشيء جديد أن يحدث.

مات جدي قبيل عيد ميلاده الثامن والسبعين. دون أن يشكو مُطلقاً من اعتلال صحته، وفي أسوأ الأحوال، كان يشكو من أن قلبه ”ينبض متثاقلاً“. لذا، احتفظ بقطّارة ”زيلينين“ برف داخل المطبخ. وقد ارتبطت رائحتها بالأوقات حين لم يشعر جدي بخير. لكن، نادراً ما حدث ذلك، وكان لدى جدي عذر فوري: ”تستحق الحياة أن تُعاش إن كنت ترغب في تذوق طعمها، لا لأنك خائف من الموت“.

في ليلته الأخيرة، كان يقرأ المجلات من فترة ما قبل الحرب. وفي الصباح التالي وجدناه ونظاراته لم تزل على أنفه. وذراعه مُلقاة على طرف الأريكة، لكن مع شعور بالراحة يعلو وجهه. أمّا النعش، الذي حمل في ما مضى ثلاثة شعراء مشهورين على الأقل، ومُطراناً، ومليونيراً، ومطربَي أوبرا، وأربعة وزراء. فقد ظلّ في سقيفة العربات يُغطيه الغبار، كما لو كان في الانتظار. وقد تمكّننا من استعارة الجياد من الكولخوز⁽³⁵⁾ الواقع في ضواحي البلدة. غسلت لين ورتّقت رداء الحداد الأسود. وأراد عدد من طلاب يانيس حمل النعش، لكن العباءات الباليرينية كانت قد استهلكت ولم نعثر سوى على قبعتين هلايتي الشكل.

لم تكن مراسم الجنازة غريبة كلياً عن الجمهور الواسع، فخلع أهل ريجا القدامى قبعاتهم تكريماً للمتوفى. كما سارت جماعة من المشيعين وراء جثمان يوكابس أولست، في حين جلست رفقة يانيس على مقعد العربة. مُرتدين معاطف الفراك والقبعات الطويلة فوق رؤوسنا. ولم

35- هو أحد أشكال المزارع الجماعية في الاتحاد السوفيتي السابق. وُجدت جنباً إلى جنب مع مزارع الدولة أو سوفخوز. وهما النموذجان الرئيسيان في نظام الزراعة السوفيتي بعد ثورة أكتوبر عام 1917، كنفيز للهيكل الإقطاعي لما قبل الثورة، والذي تكون من الأقتان الفقراء وأصحاب الأراضي الأرستقراطيين والزراعة الفردية أو الأسرية.

أستطع التخلص من الشعور بأن الجَد كان يُراقبنا كي يتأكد من أننا نقوم بكل شيء كما يجب. وصرت أستشعر وجوده في جميع الأحيان، تماماً كما أستشعره أثناء كتابتي هذه الكلمات. كنت أرى بعينه، ونقيض كلماته داخلي، وتوازني أفكاره...

توفيت لين قبل خمس سنوات. كان جدي في عالم الأرواح. وكلما قضى المرء وقتاً أطول على الأرض، صار أقرب لمجموعة من الأصدقاء الذين لا يُمكنه الآن لقاءهم سوى في ذكرياته. يعيش الأطفال بين الأحياء، أما الشباب فبين الأحياء والأموات.

مؤخراً سمعت أحد المعمرين يقول: ”كل يوم الآن أشبه بمهرجان غنائي؛ حيث أجلس لساعات بينما يعبر الموكب ... موكب من الظلال“.

في غضون شهور قليلة، سوف يُستهل القرن الحادي والعشرين. وقد استعادت لاتفيا استقلالها، لكننا لا نزال نمر بفترة عصبية من محاولة التأقلم على الوضع الجديد. فقد نخرت روح الإذعان عظامنا وقلوبنا إذ قضينا ردحاً من الزمن في التآرجح يميناً ويساراً؛ حتى صار وقوفنا بمفردنا والمطالبة بحقوقنا أشبه بالخطيئة. حتى صار ميلنا للخدمة طبيعتنا الثانية. إننا نمثل أحد أعرق ثقافات القارة كما أننا سُكانها الأصليون. ومع ذلك، فالحقيقة الصادمة هي أن دول البلطيق لم تنزل آخر مُستعمرة بأوروبا، ذلك في حين يُخفف الأوروبيون مشاعر ذنبهم إذ يصفوننا بالبرابرة الناقمين. فما زلنا ببادق يسهل دفعها من رقعة لأخرى في ميدان السياسة.

قد يبدو منطقياً أن تدفع الخبرة الجنس البشري، في اتجاه العقل، لكن روح الغموض التي بشر بها إدغار آلان بو لم تَفُ بعد. أما قوى التطور التي ضربت شاطئ الحضارة؛ فقد تراجعت رويداً رويداً بعد

حين. فبدت مياهها سريعة الانحسار تمامًا مثلما كانت عتية الإعصار. وتحول الانحطاط طالما أنه مدفوع الأجر؛ من شرّ كرية إلى مصدر للدخل. السدوميون والنيكروفيليون الذين يبحثون بأعلام الحرية في أياديهم عن روما نيرون. والشيوخ السابقون الذين يشيطون غضبًا ضد أي محاولة لتحجيم جشع رأس المال. والقضاة المينوتور⁽³⁶⁾، بوجه قضاة وبطون مجرمين. أنصاف نساء، أنصاف نمور بمخالب قاطعة في كلا الطرفين.

تفتقر الأمة إلى جسد علوي متزن. تُختبر العديد من البلدان بالعديد من الطرق، بعضها بالزلازل، والبعض الآخر بالأعاصير والفيضانات. في حين يُختبر اللاتفيون بشارة الحرية المعقودة بنهاية خيط، والتي يجب علينا التقاطها مرة تلو أخرى، كما يجب علينا أيضًا أن نتعلم كيف نُثبتها بالطريقة الصحيحة.

36- في الميثولوجيا الإغريقية، المينوتور هو مخلوق نصفه رجل ونصفه الآخر ثور.

(27)

داخل فيلا مهجورة بضواحي مونتفيدو، عُثر على جثة رجل داخل صندوق سيارة. وتشرح الملاحظة المعلقة بسترته باللغة الإنجليزية أن القتل هو مُجرم حرب من لاتفيا، كان مسؤولاً عن موت ثلاثين ألفاً من اليهود. وهي مُوقعة من قبل "أولئك الذين لم ينسوا".

تناقلت وسائل الإعلام العالمية الخبر على نطاق واسع، حتى إن البرلمان الألماني قد قرر مدّ فترة الملاحقة القضائية لمجرمي الحرب النازيين إلى خمس سنوات. وقد طُرحت العديد من الافتراضات بشأن الحادثة، لكن لم تصل التحقيقات إلى نتيجة.

وبعد فترة من الزمن، نشر أحد مُنفذي الاغتيال كتاباً تحت اسم مُستعار هو أنطون كونزل، يُقدم فيه سرداً تفصيلياً للأحداث المنسية: "كان عليّ التقرب من الشيطان"، كتب المُنتقم "وأن أخدع عدوّاً ذكياً وماكرًا ومحمياً".

وصف الرجل الشيطان بأنه مُسلح جيّدًا، ومنزله في ساو باولو مُحاط بحراسة مُشددة، حيث تحوم كلاب الحراسة بالفناء. وأنه كان يعمل بتأجير الزوارق على البحيرة الخلّابة، كما كان يطير بالسياح في جولات بطائرته المائية.

وذات يوم، ظهر رجل أعمال حسن المظهر عند البحيرة. بشارب كَث،

ونظارات قديمة الطراز، وساعة جيب ذات سلسلة تتدلى حول بطنه، وقد دهن شعره وسرّح فوق البقعة الصلعاء من رأسه كغطاء العلبة.

قدّم الزائر نفسه بصفته رجل أعمال نمساويًا يرغب في استثمار بعض الأموال في مجال السياحة اللاتينية.

وكان يظهر في الأماكن العامة، ويدردش مع الآخرين، مُوزعًا بطاقات عمله، داعيًا إياهم لشرب المزيد من البيرة على حسابه، وكتائبًا شيكات مقابل الدفعوعات الأكبر، فبدأ رجلًا مُحترمًا يملك حسابًا مصرفيًا.

وذات يوم، قصد مرسى تأجير الزوارق وأخذ في الكلام مع مُوظفة السجل. وهي زوجة ابن الطيّار وألمانية من دريسدن، كانت تجد حذر حماها أمرًا سخيًّا. لكن، من الجيد الالتقاء بشخص من بلديّات المرء، والدردشة معه باللغة الأم.

”سيّدي“ استقبلته المرأة بسرور، ”في ما يتعلق باستثمار الأموال، فإن عليك التحدث إلى السيد المحترم الذي هنالك“.

”وبالفعل، استطعت رؤية جزّار ريجا من على مسافة“ كتب المُنتقم، لم يكن ودودًا بخاصة. وقد طلبت منه الطيران فوق المدينة فصار ألطف. لقد كان طيَّارًا مُذهلاً، وعندما انتهت الرحلة نقلت الحديث إلى السياحة والاستثمارات. وعلى حين غفلة، دعاني إلى شراب على قاربه. حيث تطرّق حديثنا إلى الحرب، وقد سألتني إذا كنت قد خضت الحرب. فأجبت ”نعم، على الجبهة الروسية“ ثم طويت طرف قميصي لأريه الندبة العميقة التي خلّفتها عملية جراحية خضعتُ لها بمستشفى بيلينسون. فاقتنع بأنّي كنت جُنديًّا ألمانيًّا، ومن ثم دعاني لزيارته

بالمنزل. وعندئذ، تأكدت من أنه ابتلع الطعم“.

لم يكن منزل الطيَّار بحديقته غير المرتبة مُبهراً بأي شكل. باستثناء مجموعة صاحبه الفريدة من الأسلحة وميداليات وشارات الشرف التي حصدها أثناء عبوره القارات والمُحيطات والصحاري، كشاهد على إنجازاته في مجال الطيران لمسافات طويلة. لكن حركة الطيَّار التالية، كانت مفاجأة، إذ دعا رجل الأعمال إلى مزرعة الموز التي يمتلكها بالغابة. وقد رحب المنتقم بالدعوة حتى لا يرتاب الطيَّار في وجود فخ ما. وفي حين عبّر عن سعادته بالدعوة، ادّعى بأن عليه أولاً مُراجعة جدول أعماله. وفي الواقع، لم يكن المنتقم قلقاً حقاً بشأن الموعد، بل كان يتساءل ماذا سيفعل في حال قضى الرجلان وقتاً أطول سوياً، فلا بدّ أن يلحظ الطيَّار أن الجندي الألماني كان مُختئاً.

انتهى المطاف بهم إلى قضاء بضع لحظات مُتوترة في البريّة، حيث جلسوا قرابة النهر الذي طفت التماسيح فوق سطحه كألواح خشبية لعوامة مُحطمة.

سحب الطيَّار مسدسه بغتة. ”حسنًا! لقد انتهى ذلك!“ فانحلت أعصاب المُنتقم، وصار مشلول الفكر والحركة من الخوف. وقد أنقذ نفسه بعدم عمل شيء قد يؤدي بحياته. ومن ثم، اتضح أن الطيَّار كان يرغب في إطلاق النار على التماسيح، حتى يتأكد من براعته في التصويب. فضرب بضع طلقات، ثم ناول المسدس للمنتقم.

ربما هذا هو الوقت المُناسب لإتمام الأمر؟ ”رصاصة في الرأس وأخرى بالقلب، ثم العودة إلى أوروبا حتى قبل أن يجدوا الجثة. كذلك، أتاحت لي الفرصة لقتل الشيطان بالمزرعة، حيث قضينا اليوم بطوله سوياً مثلما أمضينا الليلة في كوخ. لكن، كان من المهم الحفاظ على

الخطة، التي تضمنت محاكمة حقيقية، وإصداراً للحكم، ثم تنفيذه“.

كانت الرحلة إلى الأدغال بمثابة الانعطاف التي بدلت موقف الطيار من رجل الأعمال. فصارا يلتقيان بالمطاعم، ويقودان الجوار، باحثين عن مركزٍ سياحي. وقد اتفقا على الاستثمار في الأوروجواي بدلاً من البرازيل؛ حيث تبدو الأجواء أكثر انتعاشاً.

وصل رجل الأعمال إلى مونتفيديو، ولحق به الطيار. إنها المرة الأولى التي يُغادر فيها البرازيل، البلد الذي وعدته حكومته بالحماية. وكان واثقاً من أنه يُعرض نفسه للخطر، لكنه اقتيد بروح المغامرة. فكانت تلك الانعطاف المثيرة للأحداث كنسمة الهواء التي أنعشت حياته المضجرة، إذ جعلته يشعر بشبابه مُجدداً. وبالطبع، لم ينس مسدسه. فكان ضغط قراب المسدس على أضلعه أثناء الرحلة أشبه بحزام الأمان، ومهدداً لأعصابه، التي تُرهقه رغم كل شيء، ورغم كونه المُغامر صاحب الخبرة.

بحث الطيار والمنتقم عن مكان لبدء العمل، فجمعوا المعلومات، وقابلوا الوسطاء. وبعد أيام قليلة، غادر كلاهما إلى وجهته الخاصة، على وعدٍ باللقاء مُجدداً بعد شهرٍ واحد. فذهب رجل الأعمال إلى باريس، حيث طوّرت خطة أبعد. ثم عاد بعد شهر إلى مونتفيديو حسب الموعد، بصحبة أربعة رجال آخرين.

وعندما وصل الطيار لافتتاح الشركة، قابله المنتقم بمطار مونتفيديو. حيث وَمَضَ الهواء حول طائرة البوينج. وكان الطيار مُرتدياً معطفه رغم العرق. والقرباب ناتئ عند إبطه.

”مرحباً بعودتك! يسعدني أن أراك مُجدداً!“.

وجدت فيلا ملائمة لتكون مكتبًا، بالقرب من مركز المدينة. ”ليس
المبنى أفضل شيء ممكن، لكننا سننتقل بمجرد أن نجد واحدًا أفضل.“
قال المنتقم ذلك في طريقهم إلى هناك.

صعدوا إلى الباب عبر الممر المغطى بالحصى. وأدار المنتقم المفاتيح
ودخل أولاً، ثم تبعه الطيار الذي توقف لوهلة مُكَيِّفًا عينيه مع الإضاءة
نصف المُعتمة. دفع المنتقم الباب بقدمه، ثم برز الرجال الأربعة من
مَخَابِئهم وانقضوا على الطيار. بملابسهم الداخلية فحسب، في حين
كانت ملابسهم مطوية ومرصوفة فوق الطاولة.

وعلى الرغم من تفوقهم العددي، فقد نجح الطيار في الإفلات منهم
والوصول لأُكْرَة الباب، لكنهم أبقوا الباب مُغْلَقًا بثقل أجسادهم، حتى
انخلعت الأُكْرَة في يد الطيار.

”لم يكن من السهل إخضاعه. فقد نطحنا مثل حيوان جريح، مُحَاوِلًا
سحب مسدسه. ثم صرخ ”دعوني أتكلم! دعوني أتكلم!“.

ضربه أحد الرجال بشاكوش على رأسه، فسالت دماؤه. بينما داس
أحدهم على نظاراته التي كانت ساقطة على الأرض. ثم نجح الطيار في
إمساك مسدسه، فلم ينتظر الرجل الواقف بجوار البرميل أكثر من ذلك،
وسحب مسدسه مُطلقًا النار على رأس الطيار.

كانت الغرفة مُكتظة بلهات خمسة رجال، كما لو أنهم قد خرجوا من
ماراثون جنوني، كما كان أصغرهم يرتعش بشدة وتصطك أسنانه.

وبعد أن وضعوا جسد الطيار بصندوق السيارة، نظف خمستهم

الغرفة من آثار البصمات، ثم ارتدوا بدلاتهم وغادروا الفيلا. وفي غضون ساعات، كانوا على متن طائرة عائدة إلى أوروبا. فلم تكن ثمة محاكمة، ولا حُكم قضائي. لقد قُتل الرجل، وأُشيع الثأر.

في مذكراته، كتب المُنتقم أن مشهد الإعدام قد طارده ردحًا من الزمن بعد ذلك. ما خفت بمرور الوقت، لكنه ما زال مقتنعًا بأنه لم يكن الشخص المناسب للمهمة. ”لقد تعلّمت أن شخصيتك تتغير لدى تقمصك هوية جديدة. لقد صرت شخصًا مُختلفًا تمامًا تحت الضغط، وقد نسيت مخاوفي والمخاطر. ولسنوات عديدة بعدها، ظلت تلك الفكرة تقلقني، لدرجة أنني التحقت بالجامعة لدراسة علم النفس بهدف فهم؛ ولو شيء قليل للغاية عما يحدث داخل روحي، ولم أتمكن من ذلك“.

... ذات صباح، بينما كنت أصطحب توم إلى المدرسة. مرّ بنا رجل وهو يدمدم؛ ربما نحونا، أو ربما بينه وبين نفسه: ”أول أمس، قتلوا سبعة حيث أسكن، وبالأمس قتلوا أحد عشر“.

”لا بدّ أن الرجل المسكين مُضطرب قليلًا“ حاولت شرح الأمر للصبيّ.
”لماذا مضطرب؟ لقد كان يُشاهد التلفاز“.

في وقت لاحق، سألتني الصبيّ:

”كم عدد ضحايا الفاشيين بمعسكرات الاعتقال؟“.

”من يدري؟ ربما ستة أو سبعة ملايين“.

”وكم عدد ضحايا الشيوعيين؟“.

”نحو عشرين مليونًا حسبما يُشاع. فلماذا تريد معرفة ذلك؟“.

”لأن فاليرا ومكسيم يدعوننا بالفاشيين. هم يرغبون في أن يصيروا شيوعيين؛ لأن الشيوعيين هم الأبطال بالأفلام“.

ومنذ غدا واضحا أن محاكمات نورنبرج لم تُخلص العالم من العنف بشكل كامل. صرت أكثر انشغالا بماهية التغيير الحاصل في الوعي، والذي قد يُحوّل الهوموسايبان إلى مستذئب.

أثناء الثورة الفرنسية، ألم يكن أولئك الذين قضوا على الأرستقراطية كطبقة (مُغرقيين أفرادها، قاطعين رؤوسهم، ومُعدميهم دون مُحكمة) يجلسون جنباً إلى جنب ضحاياهم بالكنيسة؛ مُرددين ”لا تقتل“؟ وفي عام 1917 في روسيا، ألم يكن الجنود الذين دقوا كتّافات ضباطهم بالمسامير؛ بجانبهم في نفس الخنادق، يتقاسمون الملفوف والقمل؟ والذين أطلقوا الغازات السامة في معسكرات الاعتقال، الذين أثاروا المحارق، ألم يذهبوا لنفس المدارس، ويجلسوا جنباً إلى جنب في المسارح مُتفرجين على مسرحيات شيلر، ومُغنين ”قصيدة فرح“ بيتهوفن؟

وصف المُنتقم الطيّر كآلاتي: ”شخص ذكي ومُتعلم عاش في سلام وانسجام مع جيرانه اليهود، وفجأة، تحوّل إلى أسوأ أنواع الوحوش، إلى قاتل جماعي“.

لم يُقربنا وصف الشيطان خطوة نحو الحقيقة. كأسطورة، يرمز الشيطان إلى دافع الشر. بينما كان الطيّر إنساناً ذا سيرة وشخصية، فأى شيء حوّله إلى شيطان؟ وأي نوع من الشياطين كان: هل بعل زبوب، أم بليعال، أم لوسيفر أم ديابلوس؟ وعند أي نقطة يصير المرء

مسؤولاً عن ارتكاب جريمة، والتي؛ بطريقة أو بأخرى، يتحمل المجتمع ككل مسؤوليتها؟ فهل يُعد شخص واحد، كما في حالة الطيار، مسؤولاً عن مقتل ثلاثين ألف إنسان؟ وماذا تعني عبارة ”عن وعي“؟ هل أنه أعطى الأوامر بقتل هؤلاء الناس؟ أو أنه قد قتلهم بيديه؟

لقد علمنا من المقالات المنشورة عدم وجود وثائق تُدين الطيار. إذ شهد زعيم الجلادين أراجس في نورنبرج على أنه قد عمل في المقام الأول بقطاع النقل الخاص بالجيتو. في المقام الأول، أي ليس حصراً. فماذا عمل بالإضافة إلى ذلك؟

ترصد الوثائق التالي: في عام 1960؛ وافق الطيار على مقابلة المُدعين وجهاً لوجه على شاشة التلفزيون البرازيلي؛ لكنهم لم يحضروا، لذا، ظهر الطيار بمفرده.

لقد كان طياراً بارعاً، صحفياً، صانع طائرات موهوباً، ضابطاً بالقوات الجوية، ومُغامراً. فكان من الصعب مواءمة مساره ذاك مع المسار اللولبي المُعوج الذي يُميز القتلة المُحترفين.

إن المسارات لا تنحرف من تلقاء نفسها. فمن أين أتت تلك الدفعة التي حوّلت مساره؟ لقد خاطر الطيار بحياته لإنقاذ فتاة يهودية من الموت. علماً بأن قليلين للغاية من تجرؤوا على فعل ذلك وقتها. وقد أقامت الفتاة التي أنقذها مع عائلته حتى انتقلوا إلى البرازيل، حيث تزوجت في ما بعد شاباً يهودياً من أبناء البلد.

إن الانطباعات عن الماضي تتبدل بقدر ما تنحت الرياح الصحراء. فلا معالم ثابتة تُشير للحقيقة. وإنما قصص مُشكلة من معلومات مُجزأة صغيرة. فهل هي حقيقية؟ خيالية؟

... عند بداية الحرب العالمية الثانية، تكوّن سلاح الجو اللاتفي من طائرات غلوسترغلاديتور ثنائية السطح المُبتاعة من بريطانيا، وكان سيتم استبدالهم بمقاتلي الهوريكان والسبتيفاير الحديثتين، لكن البريطانيين لغوا الصفقة. وترك اللاتفيون ليفعلوا ما يفعلونه على نطاق ضيق: أن يبنوا الطائرات لأنفسهم، وبدعم من الدولة شرع الطيّار الخبير في بناء القاذفة الانقضاضية C-6bis. وأسدل الستار عن النموذج الأولي قرب نهاية 1939. ولا تزال الصورة موجودة؛ حيث تُظهر شبهًا كبيرًا بطائرة الشتوكا الألمانية.

كان ذلك مسارًا اعتياديًا. لكن ربما انهارت منظومته القيمة، ما إن احتل الروس لاتفيا. لقد أعجب المُفوضون القادمون من موسكو بالطائرة. وطلبوا من الطيّار استكمال العمل عليها لأجل الجيش السوفيتي. فكان لا بدّ من التكتّم على كل ما يتعلق بها. كما توجب تنسيق كل خطوة مع الوسطاء الذين سيحرصون على سرية التواصل بين المرئي وغير المرئي، بين الموجود وغير الموجود. وعقب الاجتياح الألماني، طفا الطيّار مثل الكركند في المياه المغلية. لقد عاش دون قلق، مُسلّمًا بإنجازاته وإخفاقاته. لأنهم قد أخبروه: "أنت مفصول، لقد كنت في صفهم!" وكان الطرف الذي حُسب عليه، دون أن يرغب حتى في ذلك، سببًا كافيًا لأن يُقتل شر قتلة. أمّا الآن وقد ظهر طرف آخر جديد؛ أجنبي تمامًا مثل الأول، ولمّا وعده ذلك الطرف بالأمان، لم يتسنّ له تمعن الأمر، لأن المياه كانت تغلي، وكادت تفور في أي لحظة.

لقد شعر المُغامر المُجازف أكثر من مرة بأنامل الموت تتراقص

بأعصابه، لكنه احتفظ برباطة جأشه، التي ظلّ فخورًا بها سرًّا. لكنه وُخِز هذه المرة بالاكْتِشاف غير التقليدي وغير السار؛ وهو أن الخوف كانت له اليد العُليا.

على ما يبدو، لقد مرَّ بانقسام الكل الواحد إلى نصفين. فكان كما لو أنه مُركب من شخصين، أو (بشكل أكثر تحديدًا) من جانبين أحدهما بريء والآخر مُتهم. وقد ذكّرهُ الجانب المُتهم كم أنه جبان، وحثّالة. أمّا البريء فجادله: إنه سداد الدين، العين بالعين، والسن بالسن.

تقدمت عربة التاريخ إلى الأمام عبر مسار مُضنّ، لكن مع المرور بنفس المشاهد دائمًا. حيث لينين أوليانوف، هتلر شكيلغروبر، ستالين دوغاشفيلي، تروتسكي برونشتاين أو روزنبرج سغرينزورس. جميعهم يحتلون نفس المقعد... لقد ربط كل منهم سلاحه بإحكام حول خصره حتى يحتفظ بوحدة نصفيه. لقد أراد جميعهم القصاص، كما الثأر. وجميعهم حاول إسكات صوت الجنس البشري.

لكن، ما هو الجنس البشري؟ إذ يضم الهوموسايبان القديس فرانسيس، وألبرت شفايتزر، والأم تيريزا، كما يضم أيضًا جنكيز خان، والماركيز دو ساد، وإلسي كوخ.

خلال القرن العشرين، عرفت الأرض الحضارة على نطاق عالمي. وللمرة الأولى، أذيعت الأعمال الوحشية للجنس البشري على امتداد العالم. وإذا استعرضنا كم حياةً انطفأت خلال ذلك القرن، لربما نُفاجأ بما يُشبه جبال الهيمالايا من الضحايا. وبمجرد أن تستوعب النسبة المئوية للقتلة بين البشر، سوف تقشعر من الفزع. لأنه وراء كل ضحية،

يُوجَد إنسان حوّل أخيه الإنسان إلى ضحية.

تعد الساعة داخل برج إيفل الساعات والدقائق والثواني المُتبقية على بدء الألفية الثالثة منذ يسوع المسيح، وبيلاطس البنطي، ويهوذا الإسخريوطي. وربما على أحدهم بناء ساعة تُظهر عدد ضحايا البشرية في كل ساعة ودقيقة وثانية في طريقها نحو المستقبل.

في حالة الطيّار، أُتيحت الفرصة للعقل حتى يُحاكم اللا عقل بإنصاف. لكن لم يحدث ذلك، فلم تُوجَد محكمة، ولا دليل أبعد من الشك المعقول. ما حدث هو إرواء ظمأ الثأر إلى الدماء. وجرم يُعاقب جرماً.

لا يزال الصراع بين الحقيقة العابرة والحقيقة الأبدية مستمراً. فليس بإمكان القوة تحويل الوهم إلى واقع، لأن الحقيقة والنصر ليسا الشيء نفسه.

(28)

كثيراً ما أعود إلى ذكرياتي بالقصر. عند المحطة الأخيرة، أقفز من الترام، وأسير بمحاذاة السور الطنّان لمصنع النسيج. لم يكن الشارع مرصوفاً. ومن حين لآخر، كانوا يجلبون حَبَث الأقران من المصنع لردم الحُفر. وفي الشتاء، كان الثلج يصر تحت الأقدام. كما امتد صف من أشجار الزيزفون قبل بوابة القصر بمسافة جيدة. ودُثرت جذوعها السميكة المُعمرة قرونًا بطبقة من اللحاء المُشقق والمحفور على شكل أخايد: المادة الخام المثالية لمراكب الصيد. ومن هنالك، لا يسعك استيعاب الفراغات الممتدة لمئات الكيلومترات برحابة البحر، لكن بمقدورك استشعارها في النسيم العليل.

كشف القصر تدريجيًا عن نفسه كواقع ملموس، له شخصيته وقصة حياته الخاصة به. فلردح من الزمن، كان هو المكان حيث قضيت أيامي، والمسرح الذي احتضن أولى تفاعلاتي مع الآخرين، ومع الأشياء والعواطف.

يلج كل واحد منا العالم كَمَا المُستيقظ خلال الظلام، وبمجرد أن نعثر على بصيص ضوء، فإننا نبصر الأشياء والوجوه المُحيطة بنا، وكلما زاد الضوء تتسع رؤيتنا لأشياء جديدة، نُراقبها دون أن نقدر بعدُ على ملامستها.

لم أستطع اكتشاف متى بُني القصر. لكن مباني القرن الثامن عشر

كانت؛ كما يظهر جلياً، امتداداً لتراث المباني التي أحرقتها حرب الشمال العظمى. وَحَمَّنت البارونة أن بداياته قد تعود إلى الزمن الذي حاربت فيه ريجا إلى جانب أخوية السيف، عندما احتل رئيس الأساقفة ستيفانز جروبيه حصن دوجافجريفاف، وشرع في تقسيم جديد لأراضي المدينة.

كانت القصور آنذاك (حيث استبدلت الحصون بالقصور) مشروعات اقتصادية. ويُمكن تفسير ذلك اللغز باستدعاء مقولة من الحوليات القديمة: ”إن نجاح سكان ريجا يُعزى فضله إلى الخيل“. كانت الحقول اللامتناهية المُحيطة بالقصر موضعاً مثاليّاً لتربية الخيول. وأظن بأن فكرة جدي تأسيس ”مشروع“ في هذا الموضع على وجه الخصوص، كانت بذرة نمت بمرور السنوات. وقد تعزز ذلك الميل بإسطبلات القصر؛ التي كانت كبيرة بشكل استثنائي، والتي استُعملت جزئياً لمبيت الخيل، في حين استغل جدي المساحة المُتبقيّة لبناء سقيفة عربات.

آه، لقد تبخّرت تلك المملكة الاستثنائية والشاسعة وصارت ماضياً! حيث ذرعت جُموع الخيل، والعربات، والحناطير الطُرقات بدلاً من السيارات؛ وحتى الترام كانت تجره الخيول! فمن المحراث إلى المدفع، ومن المرحاض الخارجي وصولاً لمضخات المياه الخاصة بالإطفاء، كانت هناك قوة دافعة وحيدة هي الخيل. لقد شُيّد العالم على ظهور الخيل، وحملت الخيل العالم.

هذا حقيقي، لقد أُلقيت التعاويذ السحرية أثناء طفولتي وشبابي فبدأ التغيير على الفور. لكنني أشك بأن أحداً قد استطاع أن يتخيل نهاية

التقسيم للأدوار بهذه السرعة وبشكل جذري. لأنه ليس ريجا فحسب، بل أوروبا وأمريكا أيضاً، كانت تعتمد جميعها على الخيل حتى بدايات القرن العشرين، ولا يحتاج المرء تأمل لوحات بيسارو ومونيه لمعرفة ذلك. بل كان يكفي التوقف عند أي من المباني الشاهقة في جادات باريس وروما، لندن أو فيينا، والتي لديها جميعاً بوابة خاصة للعربات، تقف كنصب تكريمي لحقبة الحصان.

عندما قصف الألمان كلاً من بولندا وفرنسا في بدايات الحرب العالمية الثانية، كتبت الصحف: "هذا ما بإمكان التكنولوجيا أن تفعله!" وفي الأيام الأولى من عام 1941، شاهدت رفقة يانيس انتشار القوات الألمانية بريجا، حيث كانت خيول الأردنين ذات الثنن والأعجاز العريضة، تجر العربات ذات الفرامل اليدوية المثبتة بجوار مقعد الحوذي. كما حُملت الأوركسترا على ظهر حصان، بينما جلس قارع الطبول على ظهر الحصان المكلل بالغار والطبول مُدلاة على جانبيه، بينما عزف الرجل رافعاً عصيه فوق رأسه.

قبل خمسة آلاف عام تقريباً، صنع البشر اكتشافاً مهماً هو العجلة. وعلى مدار السنين، تطوّرت تقنيات صانعيها ببراعة لافتة للنظر. كان لا بدّ أن يُمسك المحور بالركائز التي يستحيل أن تنكسر. كما توجب إتقان المُحيط الدائري للإطارات بشكل تام، ومن مقاومتها لكل من الصدمات والرطوبة. لا ينبغي للركائز أن تكون سميكة، ولا للإطار أن ينكسر. تُصنع الآلاف فوق الآلاف من العجلات كل عام. الكبير منها والصغير، الزهيد، والغالي، المزخرف ببراعة والبسيط للغاية. عجلات لعربات الكارو لنقل التبن، وعجلات لعربات الملوك.

والآن، تبخر جميع ذلك. لكنني ما زلت أشم الرائحة اللاذعة لخشب

الدردار المُعَرَّض للبخار، حين كانت الأخشاب تُنقَع في حمام خاص من البخار قبل أن تُشكَّل. مثلما أُنذِر كم تطايرت نشارة الخشب بحدة، بينما يدق مارتيش مغارز الركائز في الإطارات المجوفة، وكيف استطاع تمييز الأخشاب من رائحتها: البلوط عن الدردار، والتفاح عن الكمثرى، والزيفون عن الدبق.

داخل الغرفة المليئة بالبخار والروائح، وُجِدَت عجيبة أخرى اعتنى بها مارتيش، وهي عصارة ملابس. بالطبع يمكنك العثور على عصارات الملابس في كل مكان، لكن خاصتنا، كانت واحدة قديمة من ألمانيا، وقد بدت بالفعل غريبة، وعتيقة الطراز حتى في ذلك الحين. كانت الملاءات ومفارش المائدة والأقمشة الأخرى الكبيرة تُلف حول بكرات خشبية وتُدار زهابًا وإيابًا بواسطة ذراع يدوية أسفل صندوق مليء بالحجارة. وكان عليّ دفع البكرات وإدارة الذراع. فلا تزال رائحة الخشب المُبَخَّر تختلط في ذاكرتي برائحة الغسيل النظيف.

لن أنسى أبدًا اليوم الذي اصطحبني فيه جدي إلى عُليّة القصر لأول مرة. لقد ولجنا إلى ما يُشبه قاربًا كبيرًا مقلوبًا رأسًا على عقب، يخترقه طُوب مدخنة كبيرة على شكل جرس ودعامات خشبية مُعقدة التركيب. وتحت ضوء الغسق المكشوف، رأيت التصدعات والمسام في السقف المُغطى بالقرميد.

”إنه طراز الباروك“ قال جدي، ”ذروة فن النجارة، والصراع مع الثقل والخامة. هل تستوعب كم هي ثقيلة تلك السقوف القرميدية، وكم تحتاج من دقة في نشر ودق العوارض الخشبية التي تحمل السقف؟“

لم أفهم. لكنني أنصتُ لما قاله جدي عن سقوف فينيسيا الرصاصية، وأردواز اللوفر، والنحاس والقصدير بقصر يلجافا، والتي كانت تستبدل بالقش الذهبي في الأوقات العصيبة؛ لكنني لم أفهم لماذا وجب إزالة السقف واستبداله بالقصدير المُجلفن. فليس بمقدور أحد في الوقت الحاضر تحمل تكاليف ذلك، كما كان كل شيء لينتهي بانهييار الخشب المتعفن.

تحول تخمين جدي إلى حقيقة. لقد حدد السقف مصير القصر. كان ذلك زمانًا مختلفًا، حيث استلزم الأمر تراكيب مُعقدة كتلك لدعم سقف. وكُلما تَلَأَّت الليالي المُنيرة في الأعالي أتذكر ”القارب المقلوب رأسًا على عقب“ لسقف القصر، وتغمرني مشاعر التوقير للمهندس الأعظم ومهارته في خلق الكون. حيث أنا الوafd الجديد، أميل برأسي للخلف، مُحدقًا في الأفق، شاعرًا بأن مصير ذلك السقف هو أيضًا مصيري. سقف ينمو مُتسعًا بلا نهاية، كاشفًا عن نفسه لنا عبر أفلاك بطليموس الإلهية، ومدارات كوبرنيكوس الرياضية، وتفردية هوكينج (هذه الأخيرة أقرب للعالم المُعاصر) ولا يزال الغموض يكتنف الفرضيات إلى حين، غموض الكمبيوتر الكوني الخارق والمكتبة الكوزمية.

حلّ شهر أكتوبر 1999 عقب صيف غريب الأطوار لم يبخل على سكان الريف بصداع الرأس، فكان تذكيرًا للانقطاع الفوضوي المفاجئ على مسرح العالم على إثر حدث غير متوقع. حيث كانت الأمة الأمريكية التي عبت العروض التليفزيونية مُندهشة لرؤية رئيسها وهو يسلك مثل بطل خارق، لا في فيلم سينمائي، وإنما في العالم الحقيقي. لكن

الدراسات التي أجريت في الفضاء أثبتت أن تيار النينو⁽³⁷⁾ لا يزال ساريًا وأن كوارث طبيعية غير مألوفة لم يحن أوانها بعد. لقد خمنت من قبل الأزمة المالية العالمية، ولم يبد أي منهما ممكن الحدوث...

بين شهور السنة، كان أكتوبر أثقلها على نفسي، فلم تكن أمطاره لتنعش الأجواء، بينما تسقط على جثة الصيف الدافئة بعد. وفي نوفمبر وديسمبر، كانت الفروع العارية تتمايل مع الريح مثل الهياكل العظمية اللامعة التي لم تعد تخيف أحداً. أما في يناير وفبراير، فكانت الفروع تفيض مُجدداً بالنسغ، وارفة ببراعم وأوراق جديدة، كانت الحواس تستشعر كل تغير فيها.

تلقيت مكالمة هاتفية من رجل عرّف نفسه بأنه زائر من ألمانيا؛ لكنه كان يتحدث اللاتفية جيداً. لم أتمكن من التقاط لقبه، وقد ذكر أنه بروفيسور في التاريخ جاء يبحث عن جذوره الألمانية بلاتفيا. وبإلحاح مُهذب، طلب مقابلي، إن لم يكن لديّ مانع بالطبع.

لا أحب ذلك النوع من الأمور؛ فأنا معتاد على استغلال وقتي في التقدم للأمام، لكنني كنت على وشك التراجع عندما ذكر المُتحدث القصر. حسناً، فهو يعمل على كتالوج للعمارة الألمانية-البلطيقية. ولأنه لم يعد ممكناً بعد الآن تصوير القصر، فقد سألني "هل بإمكانني الحصول على صورة له؟".

غير تعليقه مسار المحادثة. فقد أثارت معرفته خلفيتي فضولي.

37- التردد الجنوبي -إل نينو el-nino هو ظاهرة مناخية عالمية، حيث يؤثر تغير الحرارة في أحد المحيطات على الطقس بمناطق أخرى بعيدة، انتشرت ظاهرة النينو حول الكرة الأرضية بين عامي 1997 و1998، مُتسببة في اضطرابات مناخية هائلة في المناطق الاستوائية وفي القارة الأمريكية الشمالية، كما استمرت الحرائق الهائلة في إندونيسيا والبرازيل لأشهر، مثلما حدثت فيضانات على شواطئ أمريكا اللاتينية وشرق القارة الإفريقية. (المترجم، المصدر: ويكيبيديا)

كان الفندق بوسط ريجا ذا طابع ألمانيّ، وكان يعج بالألمان في المقام الأول. كما فاح برائحة السيجار والقهوة. ومثل نُصب قبيح للعصور القديمة وسط ديكورات حديثة، دقّت ساعة بيدرمير في الردهة سبع مرات. لقد حضرت في الموعد، رغم ازدحام ساعة الذروة.

قصدت الاستقبال رافعاً يدي بالتحية، ولاهثاً من رحلتي القصيرة. استفسرت عن اسم صاحب الغرفة 315، فاستقبلني الموظف بابتسامة احترافية بليدة، لكن سرعان ما غيرت تعابيرها فجأة. لا بدّ أنه قد تعرّف عليّ، وذلك مفهوم، إذا كنت تطوف أرجاء المجتمع لسبعين عاماً متصلة.

لكنه حيّاني بالألمانية، خاتماً كلماته بنفس اللقب الذي قيل على الهاتف ولم يتسن لي سماعه، لكنني لم ألتقطه هذه المرة أيضاً، لسوء الحظ.

”مساء الخير يا سيد بررنين..“.

ومُلتفّاً برشاقة، التقط الرجل بطاقة من على اللوح وسلمني إياها. ”مساء الخير!“ أجبته، مُتكلفاً الابتسام بغاية ما أستطيع من اللطف، دون أن آخذ المفتاح.

رمقتني عينا الموظف مُجدداً.

”يُفترض أن أقابل سيد بررنين... أتمنى أن يصل عما قريب إن لم يكن هنا. ربما ترك لي رسالة؟“.

”أوه، معذرة“ كان الموظف مُندهشاً، أو بالأصح مُحرَجاً. ولم يُنح الوقت للشرح؛ لأن سيدياً مُحترماً قريباً لسني دخل عبر الباب الآلي. وعيناه تخفقان بين ساعة البيدرمير وساعة يده. ومثلي تماماً، كان

شعره مفروقًا فوق أذنه اليسرى، ويرتدي معطفًا أسود. كما بدت أنوفنا
مُتماثلة تقريبًا، إذ كانت بارزة، وحادة، ومُستقيمة مثل حجر شحذ.

”لا بد أنني تأخرت! اعذرنِي! كنت في بارداوجافا وعلقت في زحمة
الجسر“.

وبينما مد يده اليمنى لمصافحتي، قبض بيده اليسرى على مرفقي؛
ومال برأسه مُتفردًا وجهي، كالذي يتأمل لوحة، أو سلعة يرغبها داخل
متجر.

”تعرف، إنك تُشبه الصور تمامًا! غير معقول!“ بحث الموظف عن
المفتاح ثانية، وقدمه إلى السيد الآخر هذه المرة.

”لا، شكرًا لك! دعنا نذهب إلى المطعم أولاً. فأنا والكاتب سوف نبدأ
من الأسس“.

كان البار فُندي الطراز تمامًا: مُريحًا، وذا ألفة. وقد جلسنا في شُرقة
بها شجرة بلاستيكية وكراس ذات مساند بدت وكأنها مصنوعة خُصيصًا
لعازف الأرغن فريتز في قصة ماكس وموريتز المصوّرة.

أحضروا لنا القهوة. ولما لم يظهر جليًا ما يريد البروفيسور بالضبط،
فقد التزمتُ بمبدأ المحاربين القدامى: طالما لم أستغل كرم ضيافته،
فإنني لست ضيفًا، ولسنا مُلزَمين بشيء بعضنا تجاه بعض.

وضعت صورًا للقصر من ألبوم البارونة على الطاولة. فانقض
البروفيسور عليهم بحماس منفعِل، وقد عبّر رجل المجتمع ذاك، صاحب
اليد العليا، عن نفسه بأدب وبراءة طفولية مُخادعة ظهرت في نظرتِه
وصوته.

”من المُستغرب قول ذلك، لكن لاتفيا بلد رائع. إنني سعيد حقًا بجمال ريجا الذي ينمو كل عام!“.

”لماذا من المستغرب؟ فأنا أرى نفس الشيء“.

”لا“ نظر البروفيسور في عيني، وتدلت ذقنه أسفل خديه الرفيعتين في تأمل. ”لا يستويان. لأنه حين يصف ألماني لاتفيا كبلد جميل، فإن كلامه يحمل مضمونًا. لقد خلق التاريخ علاقة مُعقدة بين البلدين. شاهدت بالأمس مسرحية تُدعى: ريجا علاقة مُعقدة جدًّا“.

”العلاقات دائمةً مُعقدة. والمسرحية التي ذكرتها هي مُعالجة درامية لرواية كُتبت عقب ثورة 1905 على الفور، وللثورات خاصة مشتركة؛ هي النشوة حيث يتوقف العقل عن العمل“.

”استعارة جيدة“ وَمَضَّت عينا البروفيسور في بشاشة، ”ولسوء الحظ، فإن هذا صحيح جزئيًّا، لأن النشوة هي نزوع للتسامي، في حين أن الثورة هي نزوع للكبت“. ”أيًّا كان، ففي كلتا الحالتين يأتي العقل بعد الفعل. حسب ما فهمت، فقد تركت لاتفيا عقب اتفاق مولوتوف-ريبنتروب؟“.

”للأسف، هذا صحيح..“. قلب البروفيسور قهوته بالملعقة، كما لو أنه يحاول تحويل السائل الأسود إلى شراب، وهو ما لم يحدث. ثم أطرق السيد رأسه في حزن ”نعم، نعم، نعم، كان ذلك خطأ كبيرًا، لم يكن علينا ارتكابه“.

”هل تعتقد ذلك؟“.

”دون أدنى شك“.

”لكن في كل الأحوال فإنك (على الأرجح) لم تكن لتبقى هنا. إذ إن غالبية العظام المُكتشفة في سيبيريا كانت للألمان بجانب اللاتفيين“.

”كان هناك عدد لا يُحصى من الضحايا على أي حال. القصف. الجبهة. السجن. لكن عليك النظر إلى ما هو أبعد. لقد خسرت ألمانيا أكثر جالياتها قيمة في الخارج. مركز ثقل هام للأمم. لقد قرأت أن اللاتفانية Latvianness مُهددة داخل لاتفيا. دعنا نفترض بأن الشائعات مؤسسة على وقائع، لن أجادل في ذلك. لكن، يبدو بنفس القدر من الغرابة أن الألمانية Germanness مُهددة أيضاً، الألمانية كما كانت في البلطيق، ولاتفيا. لا يُمكنك العثور على ذلك في مكان آخر من العالم. في ألمانيا على الأغلب. نعم، نعم، نعم“.

بدت عينا البروفيسور حالمة ومُبهمة.

”لقد عشنا في حي آجنسكانس، وكثيراً ما عبرنا نهر الدوجافا على متن القارب. وفي عطلة منتصف الصيف، أو ليجو Līgo كما تدعونها هنا، كان العديد من الركاب يرتدون قبعات ورقية احتفالية. وكانت العمائم التركية مُنتشرة بشكل ملحوظ، مصنوعة من ورق أحمر مُقوى، ومزينة بعقد أنشوطية سوداء. لقد بدا كل ذلك مرحاً... تلك الروح الشرقية المُتصاعدة بالأرجاء... كثيراً ما أسترجع تلك الأيام في الوقت الحاضر، وأنا في ألمانيا. يا إلهي! ففي لاتفيا، في ريجا، حتى الشُّجار كان يُمثّل متعة خالصة..“.

”لكن، من الصعب مقارنة ألمانيا ولاتفيا“ قلت: ”فقد أصبحت ألمانيا الاتحادية من جديد أكبر قوى أوروبا نفوذاً“.

بالطبع، فذلك مُجرد استطراد، لكنني كنت أحاول قاصداً الدخول

لعقل ذلك الرجل.

”على حسب!“ مال البروفيسور على الطاولة: ”على حسب! فأحياناً
يمكن أن تذوب طبقة سميكة من الثلج أسرع من

”خيار كبير“. سمعت ذلك من الأطفال بشارع بالظو. إنهم يدعونني
غيركين⁽³⁸⁾، لا كراوت. لكن ذلك لا يزعجني“.

دخل البروفيسور في وضعية تفكّر. فأبدت تعابيره عادة الأساتذة.

”إن الخصائص الحقيقية للأمم تكمن في مُغتربيها. فحتى روسيا
المُعاصرة تحتفظ بالقليل جداً من روسيتها. وفي ريجا، وباريس،
ونيويورك، نعم بإمكانك العثور على بعض الجوهر الأصلي من مخلفات
ذاكرة نوستالجيّة منفصلة عن الواقع“.

”هل تقصد بأن إنجلترا لم تعد هي إنجلترا وأن فرنسا لم تعد هي
فرنسا؟“.

”إنجلترا الأبطأ في التحول. فما زالوا يقودون على يسار الطريق.
يبدو أن الفرنسيين لم ينتبهوا لذلك عندما وافقوا على بناء نفق المانش“.

”وأنا صغير عرفت نكتة تقول: آخر خمسة رجال على الأرض
سيلبسون تيجاناً فوق رؤوسهم هم ملوك: الكوبات، والديناري،
والبستوني، والسباتي⁽³⁹⁾، وملك إنجلترا“.

”عصر النكات، أيضاً، للأسف. كما تعلم. لم يعد هناك إنجليز في
إنجلترا. لا، لا. إن إنجلترا مسكونة ببريطانيي المملكة المتحدة“.

38- Gherkin: أي الخيارة المخللة.

39- فئات أوراق اللعب.

لم يحتمل الأستاذ كبت فضوله أكثر من ذلك. فاستأنف الحديث عن الصور، مُتفحصاً إياها وطارحاً الأسئلة. أستطيع التخمين بأنه يعرف شيئاً أو اثنين عن العمارة. وعلى حين غفلة، ضرب جبينه بيده في حركة مسرحية.

”ألا يُذكرك داخل حجرة الطعام بشيء ما؟“.

جاء تلميحه في وقته. فقد تطرقنا بالحديث لعدة موضوعات دون أن نحسم شيئاً.

كانت نوافذ المطعم تُطل على قلب المدينة، من حديقة باستيجكلنس وحتى الأوبرا. ولم يكن المكان مُزدحمًا بالضيوف. وإنما جلس زوج من السياح العجائز مع ترسانة من الكاميرات الفوتوغرافية وكاميرا فيديو بجانبهم على الكرسي. ومجموعة من خنازير العمل المخمورين. بالإضافة إلى عازف بيانو ملتح، يرتجل أحياناً شهيرة.

أخذ الأستاذ طلبات العشاء والشراب على محمل الجد. فطالت المناقشات حول أنواع النبيذ، والسجق، وأطباق الخضار الجانبية. بينما لمع قلب المدينة بأضواء سماوية ومُصفرة خلف النوافذ المرشوشة بالمطر. وسالت أضواء السيارات والباصات والترام كالحمم البركانية. كما ظهر صف الأشجار على ضفة القناة كصور لأشعة إكس تواجه الجادة المضاءة.

وفي الجوار، كان مبنى يحترق، بهدوء، يُصاحب عزف البيانو. فلو أن سلم الإطفاء قد استدار ناحية الفندق، لكان الرجال المريخيون على متنه يشربون معنا، لكنه كان مُوجهًا للعلية المحترقة، وحاول اللهب المُخمد بالماء الاختباء وسط الدخان المُتلاطم. ظلت عربات الإطفاء تأتي

وتذهب. وسد اختناق مروري الطريق بالأسفل. في حين توهجت سترات الشرطة اللامعة مثل سانتا كلوز صغير أُخرج للتو من علبته، حتى يُعلّق على شجرة الميلاد.

كنا نشرب النبيذ. واستمر الأستاذ في دراسة الصور. ”تعرف، قد يبدو ذلك سخيفاً، لكن“ (ضغط ظافره المُقلم على صورة لواجهة القصر) ”تربطني رابطة حميمية بالقصر. نعم، نعم، نعم. كُنَّا نأخذ الترام لآخر محطة كي نذهب للتزلج. كانت هناك تلال رائعة خفيفة الانحدارات. وكنا نمر على القصر في طريقنا. وكان أسهل الطرق إلى تلال أوزولكلنس يمر مباشرة عبر حديقة القصر مروراً بشجرة غريبة مشوهة ذات عبير قوي. وجميل على نحو استثنائي. وحتى سنوات قليلة مضت، كنت أستيقظ في بعض الليالي مُتصوراً أن الشجرة في مكان ما بالجوار، حتى إنني كنت أشم عبيرها الغريب..“

بدا الأستاذ مُحرّجاً، بل حتى شاعراً بالذنب. كما لو أنه غير واثق مما إذا كان كلامه يمت للحديث لصلة.

”والآن، هل اختفت الرائحة؟“

تمالك السيد أعصابه ثانية، فاردّاً الصور أمامه، لكنه حدّق بثبات في ما وراء النافذة.

”كل شيء قد تغيّر. المباني الشاهقة في كل مكان، والباصات في كل شارع..“

أليس ذلك غريباً، أن أعبّر حديقة القصر جيئةً وذهاباً لآلاف المرات،

وليست لدي أدنى ذكرى عن أريج تلك الشجرة. إنني لم أنس عقب ورشة مارتيش، ولا رائحة الثلج الذائب أسفل شجرات النغت السوداء في الربيع. وكيف كانت البرك الكبيرة تجذبني كالمغناطيس، حتى تُوجَلِ قدماي وينقع سروالي بالماء. وبيض الضفادع الشفاف يطفو كالبازلاء على سطح الخنادق الغارقة في الماء، مُتحوّلة لاحقاً إلى ضفادع صغيرة بذيول سوداء صغيرة... الفرنسيون على حق: إن شخصين ينامان بنفس السرير، لن يريا نفس الأحلام.

لقد عشنا أنا والطبيب جنباً إلى جنب في الذهاب والإياب. فهل جنبنا من نفس العالم؟ وهل بمقدورنا حتى أن نتحدث عما ندعوه "العالم"؟ الذي يعني لأحدنا شيئاً مختلفاً تماماً عما يعنيه للآخر. سواء بالنسبة للأستاذ، أو لي، أو للعازف الملتحي، أو لزوج السياح، أو لرجال الأعمال مُنحسري الشعر. بالنسبة لِمَن تحترق بنايتهم، ولمَن يجلسون على ضوء شمعة مُحترقة فوق الطاولة أمامهم. للذين كؤوسهم نصف فارغة، وللذين كؤوسهم نصف ممتلئة.

انطفأت النيران. ولفّ الرجال المريخيون خراطيمهم حول بكراتها ثانية. كما توقف البيانو وغادر العازف. ودخل ضيوف جُد إلى المطعم. شكرني الأستاذ على الصور، شارحاً كيف سيعيدهم إليّ بعد أن ينسخهم. ثم أعطاني بطاقة أعماله وفيها عنوانه بألمانيا، تقريباً كنوع من الضمانات.

"هل لي أن أساعدك يا سيد بررنين..".

ابتسمت. وضحك الأستاذ بصوت عالٍ وأخذ المفتاح. فتململ الموظف، وكان مُحرَجاً للغاية.

سلمنا على بعضنا. وصافحني الأستاذ بكلتا يديه، مُحدقًا فيّ، ومُتعبجًا من مرور الوقت بسرعة. ثم سألني إذا كان يُمكنه الاتصال عندما يأتي إلى ريجا مُجددًا، فوافقت، ولم لا، الشيء الذي أدهشني حيال نفسي.

”حسنًا إذًا، أراك لاحقًا“ قال ذلك مبتسمًا، فكانت إحدى أسنانه الأمامية مُعوجة قليلًا.

إنني أعرف هذه السِنَّة جيدًا. اختبرت شعور الوقوف أمام المرأة، حيث اعتاد يانيس القول بأن الرب لم يُركب سننك بشكل مستقيم.

وبمجرد أن خطونا خارج الفندق، فقد عزمت أخيرًا على النظر لمعرفة اسمه، هذا السيد المحترم الذي قضيت الليلة بصحبته، والذي يُشبهني كثيرًا. سحبت البطاقة من جيبِي فكان الاسم هو كيرتز بالدور فون بريغن... فون بريغن... كيرتز بالدور.

وفي الطريق إلى المنزل خطرت لي مُسودة حبكة؛ ولم يكن عليّ سوى أن أجلس لأدونها.

(29)

يميل الورق والغُبار إلى التكسب بعضهما فوق بعض. تقول زوجتي بأنها تستطيع تسمية ثلاثة اتحادات: الاتحاد السوفيتي، والاتحاد الأوروبي، واتحاد الورق-الغبار. سيكون من التجديف ذكر شقتنا في شارع سونو بسوء. بينما نستقبل عروضاً يومية بالبريد لبيعها، مقابل أشكال المبادلة الممكنة كافة، من شقة جديدة بالضواحي الهادئة، وحتى المساعدة في الانتقال. لكننا لا ندخل تلك النشرت إلى المنزل حتى، وإنما نُلقيها مباشرة في مَزَلَق القمامة الخاص بالبنية. لقد خُصِّصت جميع الشقق بنفس الطابق. دون بئر السلم، أو المزلق، أو السطح. بكلمات أخرى، تتزلج ملكيتنا الخاصة بحرية وسط فوضى الخصخصة. كما تمتلئ بانتظام بأكوام الورق، تاركة القليل فالأقل من المساحة للعيش.

صارت العائلة بأكملها مُولعة بحضور الورق في البيت.

”لقد عثرت على عقد ملكية ما تُدعى ”أولستز“ موقعة من قبل بارون بورتنيكي. هل تهتم بجمع ذلك النوع من الأشياء“.

”ليس لدي مساحة لدفاتر الأغاني الخاصة بالعمة ألما، سوف أحضرهم لك“.

”هل أنت مهتم بمواعظ للكنيسة المورافية مكتوبة بخط اليد؟“ لا يُمكنك ببساطة رمي الكنوز الثقافية في القمامة“.

أحضر ناميس أكوامًا من الرسائل، قصاصات الصحف، محاضر الاجتماعات، ومسودات المقالات. بعد أن جمعهم، ورتبهم، وحزمهم، ثم جاء بهم "إلى أن يتسع لها المكان" ودائمًا ما تتسع الأشياء لناميس، فهو يلج النساء مثلما يلج رئيسُ سيارته المرسيدس، مُتزوجًا، فأعزبَ، فمُرتبطًا، ثم أعزبَ ثانية. مستأنفًا بحثه عن ضمادة للعزوبية، كوخ حقير حيث يُمكنه بالكاد الالتفاف. ومن ثم، سرعان ما يجد نصفًا آخر أفضل مع الأمتعة والملابس.

وبالنظر في الأوراق التي أحضرها ناميس، وجدت بينها خطابًا جديدًا نوعًا ما.

‘عزيزي الطبيب، البروفيسور. دعني أستهل القول بأن تاريخ العالم كما دون حتى اليوم؛ بما يتضمنه من نزعات تقديسية وأسطورية، هو محض خيال وهم. فليس ثمة مؤلف واحد، قيّم الأحداث التاريخية؛ أخذًا في الاعتبار العجز الجنسي لدى الرجال. فوفقًا لآخر الأبحاث (وأنت أدري بذلك على الأرجح) تصيب هذه البليّة ربع تعداد الرجال حول العالم. كما أنها تتفاقم بسرعة. وواقعة أن المُحفّز الجنسي الجديد، أي الفياجرا يتربع على قمة العقارات المرغوب فيها، تدل على أننا إزاء ظاهرة لا يمكن الاستهانة بها، والتي تستوجب، استيعابًا جديدًا للتاريخ.’

‘تحكي النصوص البابلية القديمة أنه بواسطة الدهاء والجهد العظيم فحسب؛ استطاع جلامش الهروب من عشتار الغاضبة لعزوفه عن معاشرتها جنسيًا. لكن، ألا يبدو ذلك غريبًا، أي كيف نظر الرجال قبل أربعة آلاف عام إلى سلوك جلامش البائس كفعل بطولي؟ لكن لسبب ما، فإن تفسيرًا منطقيًا ووارد الحدوث تمامًا مثل العجز الجنسي قد تم تجاهله عن قصد أو بدونه.’

على نفس المنوال، تُثير القصة التوراتية عن زوجة بوتيفار ويوسف الكثير من علامات الاستفهام. دعنا نُعيد بناء الأحداث. ضوء شمعة خافت، وكلاهما فقط. داخل حصن مُوصدةً أبوابه. بينما زوجة بوتيفار ويوسف، كلاهما عاريين. فماذا حدث بعد ذلك؟ ينسحب يوسف على الفور من المُداعبات اللطيفة ليركض عاريًا خارج الغرفة. رجاءً، حاول إيجاد تفسير معقول! إنه العجز، عجز تام وبسيط.

أمّا القصة عن علاقة يوحنا المعمدان بسالومي، فإنها تُجانب الصواب بصورة أكبر حتى. فوفقًا للرواية الرسمية، ليست ابنة الملك هيروودس المتعطشة للدماء هي الأقلّ اتساقًا. بل إن كل الاتساق سيتداعى في حال سُردت القصة بطريقة واقعية. فحين سمعت سالومي بُخطب يوحنا البطولية، تخيلته رجلًا كامل القوة وجُنّت بغرامه. لكنها انخدعت، فأى شيء يُرجى من واهن الجسم ذاك، والذي نجا في الصحراء بأن أكلَ الجراد؟ والذي استطاع أن يُدخل الروح القدس في كثير من الناس، لكنه لم يستطع أن يدخل سالومي كرجل. وعلى إثر هذا الإحباط، أصبح ظمأ سالومي للدماء غير معقول. إذ إن امرأة مُثارة جنسيًا وعجزًا جنسيًا لا يجتمعان أبدًا. في الطبيعة، تكون القدرة الجنسية لبعض أنواع العنكبوت مؤقتةً، وكيف ينتهي بهم ذلك؟ تأكلهم الإناث.

‘إنني أتحدث عن مرض عضال. لقد قضيت عشر سنوات في حياة زوجية سعيدة، حيث أنجبنا ولدًا وبناتًا. وذات يوم، ذهبت في رحلة عمل. حين قررنا أنا وزميل لي قضاء وقت الفراغ المتاح خلال المؤتمر في زيارة لمتحف فني مشيد بقلعة من العصور الوسطى. فكنا الوحيدين هنالك. وبعد مرورنا بالأجنحة البابلية والمصرية، وصلنا إلى جناح اليونان القديمة، حيث المنحوتات الكلاسيكية. وبعد أن ألقيت نظرة

على حشد العُراة البرّاق، وأنا في طريقي للباب المقابل حيث الجناح الروماني، ملأت ضحكة القاعة. ”ما المضحك؟“ ”لا شيء“ تجاهل الزميل سؤالي، لكنه كان قد انفلت بالفعل ولم يستطع إمساك نفسه عن الضحك حتى بصوت أعلى. لك أن تتخيل ما يجري هنا! تقف أفروديت عارية في مواجهة كل من أبولو، وبوسيدون، وهرمس، والبقية، لكنهم لا يُعيرونها أي انتباه! جميعهم مُرتخون مثل البودنغ!.

‘ثم عدت إلى المنزل. إلى لحظة أفسدتها الذاكرة والتفكير، لحظة تطلبت فعلاً مُؤكدًا على حبي لزوجتي؛ والتي لم أرها ولم أشعر بها منذ أسبوع مضى. لكن تلك التماثيل الرخوة طافت أمام عيني. وهُوب! ارتخى صولجان ذكورتني القاسي، وحجر الصوّان خاصتي، هاجعًا في سبات عميق، ومُتدليًا في ضعف مثل خفاش نائم.’

‘كنت عازمًا في الليلة التالية على محو الإخفاق من ذاكرة زوجتي. اللعنة، أنا رجل عادي، وليس مغني أوبرا خصيًّا. كان ذلك كما لو أنني أشاهد نفسي من مسافة، وفكرة واحدة تسيطر على عقلي: هل أشبه أبولو ذلك، أم لا؟ هل أنا مثل هرمس، أم لا؟ وقد قضت الإجابة على الرجل بداخلي: إنك مثلهم! مثلهم! مثلهم!’.

‘مرّ نصف عام منذ ذلك الحين. وقد دُمّر زواجي. وأتعزّي فقط بفكرة أن العجز الجنسي كان أسوأ طاعون عرفه البشر منذ بداية الزمان، وأن ملايين من الرجال حول العالم تُعاني من نفس المشكلة. ربما يردنا العلم إلى حياتنا، ويُحررنا من عقاب لا نستحقه. أتمنى لك التوفيق في عملك المقدس وفي الزيارات المنزلية المُتعلقة بالعقار الجديد...’.

تنتهي الرسالة هنا. أمّا اسم المُرسِل وعنوانه فقد مُزّقًا. وبالطبع، قلت
لنفسِي: ليس من شأني. لكن عبارة ”ربع الرجال حول العالم“ غرزت
في عقلي مثل شظية. فهل يتهدد البشر موجة عظيمة من الرُّعب؟ قبل
زمن بعيد، بعيد للغاية، وُصِفَت الكوارث الأبوكالبتية كالطوفان العظيم،
والخَسْف، والنار، وأمطار الكبريت. وبلا شك، فإن ترسانة العناية
الإلهية أكبر من ذلك بكثير. فهل يعرف أحد حقًا ما وراء مصطلح
ك”الطاعون“؟ الذي تفسّي مُدثرًا أوروبا بأكوام الجثث، في محصلة
مُقرزة وكريهة الرائحة، أمّا العجز الجنسي، فتلك مسألة أخرى! لأنه
عذاب فوق سرير بملاءات نظيفة.

عندما يُطالع المرء الجريدة، لا تجذب انتباهه كثير من العناوين
بالضرورة. وهي عناوين عن أشياء غريبة تحدث هنا وهناك؛ لرجال في
ريعان الشباب، لرجال طبيعيين، أو أعضاء بالمجتمع يحظون بكامل
الأهليّة والاحترام. والذين كما لو أنهم سُحِرُوا فجأة (لا بديل هنا عن
هذا الكليشيه)، فينسلخون من جلودهم ويصبحون أشخاصًا مختلفين
تمامًا: مصرفيون لا يعرفون جدول الضرب، ودبلوماسيون في السجون،
وقباطنة يصنعون السلال. وهلم جرا.

إليك مثلًا هذا الخبر:

”في ليلة الأحد، وصل عقيد شرطة جمهورية لاتفيا المستقلة ن.
ستانيسلاف إلى منزل الأكاديمي (س)، مُستعرضًا شارة عضويته
باللجنة الأمنية للاتحاد السوفيتي، ورغم اعتراضات (س)، فقد أصرَّ
ستانيسلاف على تفتيش الشقة، ليستولي أثناء ذلك على علبة فضية ذات
نقوش ذهبية. عقب الحادث، عُثِر على مجموعة قيّمة من علب السجائر

الفضية بمنزل العقيد ستانيسلاف، والتي كما كشفت التحقيقات، قد استولى عليها أثناء عدد من عمليات التفتيش بين عامي 1978 و1988. لم يستطع العقيد تفسير ما فعله بمنزل الأكاديمي. لكن الحادثة المؤسفة كانت قد وقعت بعد أن التقى العقيد بالسيدة الأصغر منه بكثير م. سولفيجا، فبيّثته بأنها كانت تُعطي ستانيسلاف الفياجرا سرّاً.

عمل ناميس بمهنة محمومة للغاية، دون ساعات عمل مُحددة. حيث مثل المستشفى أنسب مكان كي يفتش عنه. خلف تلك الأبواب من طراز الأرت نوفو، والتي زيّنها أحد المرضى السابقين، وهو فنان زجاج، عبارة فلسفية محفورة في الزجاج المُلون: ”الحفاظ على الحركة هو الحفاظ على الحياة“.

كان ناميس يشرح عقليات الفلاسفة القدامى من أمثال أبقراط وابن سينا وبراكلوسوس مُستعملاً مصطلحات معاصرة: يخضع الجنس البشري لمبدأ التدفق السينمائي.

البروفيسور في غرفة العمليات في الوقت الحالي. لذا، قادتني رئيسة الممرضات إلى مكتب ناميس. لكن كلمة ”مكتب“ هي تعبير مبالغ فيه بعض الشيء لوصف هذا المكان، فهو أقرب لعبة أحذية.

لم يتغير شيء منذ أن زرت المكان لأول مرة. مزيج مما هو جماليّ وعملي. شهادات مؤطرة مُعلقة على الجدران. وزهور في فازات على مدار السنة. درجات علمية، تكريمات، هدايا. أكوام من الورق، صور أشعة، وكتب طبية ذات أغلفة ملونة. أمّا الشيء الوحيد الذي كان يُخبر شيئاً حقيقياً عن ناميس، فكان تمثالاً صغيراً: برجاً برونزياً يُماثل برج كنيسة القديس بطرس بريجا، وبدلاً من الديك الشهير في أعلى قمته، هنالك حصوة كلوية مع ما يُشبه عُرف الديك. فبدأ أن التمثال قد وقع

في مرحلة ما، لأن نصف العُرف كان مفقودًا. لكن يظل التشابه بين الحصى الكلوية وديد الكنيصة محل شك. أمّا ناميس فلم يكن ليرى ذلك، لأن مخيلته لم تعرف حدودًا. لقد أحب في صغره التعلّق رأسًا على عقب بعارضة التمارين، والتأرجح جيئةً وذهابًا، حتى تبدو السماء والسحب والطيور تحته، بينما يبدو الرمل والعشب وقدما أخته فوقه.

دخل ناميس إلى المكتب. إنه النقيض التام لوالده، فكان حليق الرأس عريض الجسد. وقد جعله ثوب العمليات الأخضر، والبنطلون الكتاني، والصنادل في قدميه العاريتين أشبه بشخص خرج لتوه من الساونا، تاركًا جسده كي يبرد على مهل. حتى إن رائحته بدت كالصابون وليف الساونا المنقوع في الماء الساخن. وقد عزز هذا الانطباع باسترخائه على الكرسي؛ يده مدلاة من الجانبين وساقاه مفرودتان. لكن عينيه اخترقتني كأسنان منشار تخترق الخشب.

”... ذات مرة، قبل وقت طويل على قدوم والدك إلى لاتفيا، علمني جدنا دروسًا بواسطة بعض الألبان.“

إنني أتذكر أحد تلك الدروس بالحرف:

”إذًا، يأتي الأطفال من البذور؟“ – ”وماذا غير ذلك؟ بالطبع من البذور.“ – ”وأين تنبت البذور؟“ – ”في أخايد الحياة أيها الأبله..“.

أنا في السبعين من العمر، وما زلت لا أفهم ذلك بشكل لائق. فكّر في ما تتضمنه الكلمة الصغيرة: بذرة، إنها أجيال من أسلافنا، امتداد من الخصائص الروحية والجسمانية. تحوّر في الأشكال، وإعادة هيكلة بيولوجية.

هل حقًا باستطاعة غدتين بحجم الزيتون في جسد الذكر، أن تجمعا

وتُطوّرًا هذا الكم من المعلومات، ومثل تلك الاستراتيجيات المُفضّلة؟
فإن صحَّ ذلك، إذًا فلا بدَّ أن يُستهلَّ تطوّر البشرية بالتوصل لزراعة
الخصيتين. لكن ما هو غريب حقًّا، أن الفكرة لم تخطر على ذهن أحد.
أمّا إذا أردنا الحديث بجديّة، فكل ذلك هراء. لأنّ الإنسان أعقد من ذلك
بكثير. ألم يُثبِت تخصصك بأن مُعجزة الولادة ليست شيئًا ملموسًا في
حد ذاتها؟

أنصت ناميس، لاويًا فمه كعادته، كما لو كان يلقن ذقنه.

”تستحق فكرة الزراعة أن تُوضَع في الاعتبار. فكل ما نستطيع فعله
حتى الآن، هو إخراج هاتين البصلتين الصغيرتين، وتقشيرهما، ثم
إعادتهما إلى مكانهما مرة أخرى. أو إزالة واحدة والإبقاء على الأخرى.
ولا مشكلة في ذلك، فلا يزال بإمكانهم إنجاب الأطفال، ولا تزال لديهم
الرغبة. ربما يتحمس السياسيون لفكرة الزراعة، فإنهم دائمًا ما يرغبون
في ما يفوق قدرتهم على التحمل“.

”لا تتملص من السؤال! إنني أتساءل: أيّ عضو يصنع الإنسان. أو
كي أكون أكثر دقة، ما الذي يُحدد ماهية الشخص الذي سوف يُولد؟ أي
عضو الجسد الذي يحظى عمومًا بشرف صناعة الإنسان“.

”دعني أنا أسألك. أي عضو قد صنَع كُتبتك؟ لم يكتشف الإنسان
الأشياء لهذا الحد بعد. وحمدًا لله على ذلك. لأنّه بمجرد أن نفهم ظاهرة
ما، فإننا نميل على الأرجح إلى تفكيكها ثانية ثم إعادة تركيبها كما نراها
مناسبة. لذا فإنني على قناعة تامة بأن الإنسان ليس غير أحجية“.

ضحك ناميس، ثم ألقى الولاة التي كان يعبث بها على طاولة المكتب،

ثم أضاف:

”أحجية تدور بلا أي عائق“.

واصلنا الحديث بهذه الوتيرة. فبعد أحداث الأيام الأخيرة، كنت أختبر شكلاً لمحادثة بين طبيب وكاتب من أجل روايتي. وعندما اضطر ناميس للعودة إلى مسرح الجراحة، ودّعنا بعضنا. وصرت مقتنعة بأن ابن أخي سوف يختفي لفترة أطول من الزمن، مثل مُذنب هالي⁽⁴⁰⁾. وأنه سوف يظهر ثانية، على الأرجح عندما يُكدّس كومة أخرى من الورق لا يستطيع تصريفها بنفسه.

لكن الأمور سارت بخلاف ذلك، إذ التقينا مصادفة بحفل على شرف رواد الثقافة والعلوم. حيث استُهل توزيع الدرجات والجوائز بفتح الشامبانيا. لا تحتاج مثل هذه المناسبات إلى الكراسي؛ فإما تقف، أو تتمشى، أو تختلط بالآخرين، أو تتجول دون هدف.

كنت أشترك مع ناميس في النفور التام من البوفيهات المفتوحة، مهما كانت فاخرة. وقد تبادلنا بعض الكلمات بهذا الشأن. قبل أن يقترب رجل نحيل للغاية من ناميس، والذي لم يكن كبيراً في السن، ولا صغيراً أيضاً. لكنه تورد خجلاً لمجرد قوله مرحباً، وقد صار التورد خجلاً عملة نادرة في لاتفيا خلال الربع الأخير من القرن العشرين، خاصة بين الرجال. أمّا هو فكان واهناً بحق، أخذت تفاحة آدم البارزة في رقبته تهتز لأعلى وأسفل أثناء حديثه. وقد فطنت لكونه أحد مرضى يانيس، فترجلت بعيداً لوهلة.

وجّهت انتباهي لمكان آخر عدة دقائق، لكن بينما امتد نقاشهما، فقد

40- هو مُذنب يُرى من الأرض كل 75-76 عامًا. (المترجم)

أخذت في ملاحظتهما. كمن يُشاهد مسرحية عبر الشاشة الموجودة في ردهة المسرح، دون صوت. يا له من منظر! تنسلّ الكلمات من هنا وهناك كأوراق الخريف المحمولة على الرياح، مُحوّلة الحادثة المفقودة إلى لعبة كلمات متقاطعة مُسلّية بمربعات قليلة محلولة.

وعلى حين غفلة (أقول على حين غفلة لأنني لم أملك أدنى فكرة عما دار بينهما) أدركت بأنني أعرف القصة المُحزنة لذلك الرجل.

وعقب نهاية الحفل، سألت ناميس بنبرة عابرة ونحن على السلم:

”هذا الشخص هو صاحب الرسالة، أليس كذلك؟“.

”نعم... يبدو أن العضو الاحترافي في أفضل حالاته“.

”لا تقلق. فأنا لست مهتمًا بشخصه. بل يهمني ما حدث له. ألا يزال أبوللو يُطارده؟“.

”لا. لكنه يشعر في الوقت الحاضر بالتحوّل إلى نمر، أو أسد. أو بكونه عموماً حيواناً تحرر من قفصه وفي طريقه إلى ساحة المصارعة“.

”حسناً إذًا، هذا رائع“.

”نعم، لكن الطريق لا يؤدي إلى الساحة. لا بدّ أن تعرف خلفيته حتى تفهم ذلك. باختصار، فهو يشعر في الأوقات الحميمية أنه بصحبة زوجته الأولى لا الثانية“.

”ربما ذلك هو أثر الدواء، الذي يُعالج جانبًا من المشكلة، في حين أن جذرها مُتصل بجذور أخرى؟“.

”هل تقصد علم العقاقير، أم عن علاج المجتمع ككل؟“.

”لا أرى فرقاً كبيراً بينهما“.

”وما هي الإجابة في رأيك؟“.

”التقاط المشكلات من جذورها“.

”حسناً، بالتأكيد! فالمجتمع كان يشق المجاري، دون أن يُصلح
البالوعات“.

”ألم يغمرك من قبل هذا الشعور الغريب بالمجهول أثناء الجراحة؟
من قبيل: ما هي المادة؟ أو الواقع أو الفكرة؟ وإن كانت حقيقة، فمن
أين جاءت الأشياء عندما لم يكن هنالك أي شيء؟ وماذا لو كان ذلك
برمته استعراضاً لساحر بارع، وأن الحظ، والنحس، والصحة والمرض،
هي مجرد خدع؟

”إنني أعتقد بأنه يُمكن مُراقبة الحصوة الكلوية كظاهرة؛ لكن لا بدَّ
في النهاية من إزالتها! وفي الواقع، دون تفلسف“.

”يُمكن للحصوة أن تجذب انتباهك بصفتك جراحاً، لكن لا بدَّ أن
تجذبك المسؤولية عن المستقبل بصفتك إنساناً“.

”لا أحظى بكثير من وقت الفراغ. وفي حال فعلت، يكون للنوم“.

كنا جالسين بردهة الاستقبال. وقد غلب الصمت تدريجياً على المبنى
الشاهق، مثل جرس عقب دقته الأخيرة. في حين رمقنا العاملون مراراً
من مكتبهم. لأنه أرادوا الإغلاق على الأرجح.

قال يانيس بأنه سيوصلني للمنزل.

”شكراً لك! طالما أن سيارتك اللعبة لن تخسر نوابضها في منتصف

الطريق“.

”سوف تنجو“.

ركن ناميس سيارته في شارع بين الجامعة والجمعية اللاتفية. وكانت السيارة عبارة عن آلة جهنمية من طراز بونتياك عمرها خمسة عشر عامًا على الأقل، وهي إحدى تلك السيارات التي يدعونها جواد الطريق. وعلى كل حال، فقد كانت فريدة من نوعها، لأنها تزينت بذلك النوع من اللوحات باهظة الثمن، والتي يشتريها أصحاب الشركات الأثرياء لسياراتهم الفاخرة. تلك الألواح التي تحمل حروفًا بدل الأرقام. وقد حملت سيارة نايس حروف ”أنسيس“.

”إنك أخرق يا ناميس، أخرق!“ كنت أكرر ذلك في كل مرة، مُسترخيًا على كرسي البونتياك الجلدي.

”ليكن إذًا. لقد كان لدى شخص مميز في عائلتنا حسان مُفضل؛ كان يدعوه ‘أنسيس’“.

(30)

سوف يُقام استعراض للألعاب النارية على ضفة الدوجافا، بمناسبة يوم استقلال لاتفيا. إن يانيس مهوس بالألعاب النارية، تلك التي اضطرت بداخله منذ أيام طفولته بإسبانيا وإيطاليا، حيث اغتسل لأول مرة بأضواء السيرك. وكان الأخير يدمج النار في عروضه، حيث تقفز النمر داخل الأطواق المشتعلة، ويتلاعب المشعوذون بالمشاعل، ويتقاذز البهلوانات بها في الهواء. فكان وجه يانيس يُنير كالفانوس بمجرد أن يسمع كلمة من قبيل صواريخ، أو ألعاب نارية أو دوايب هوائية. ورغم أننا لم نُخطط لذلك، لكنني كنت على يقين من أن يانيس سوف يأتي إلى هنا في يوم الاستقلال. حيث تتوهج بانوراما مُبهرة على امتداد أفق البلدة القديمة بريجا وجسر فانزو، وذلك من سطح منزلنا ذي السبعة أدوار، والمُقام على أطراف المطار القديم.

رَنّ جرس الباب قبل عشر دقائق من بدء العرض. فكان يانيس مُجمداً، ورأسه مدفوناً داخل الياقة المقلوبة لسترتة. ورغم أنه لم يرتدِ قبعة في العادة، وإنما كان يلف نفسه بوشاح طويل للغاية. فقد كانت بحوزته واحدة هذه المرة؛ حيث حمل بإحدى يديه ما يُشبه سطلاً جلدياً له غطاء. وكنت أعرف هذا الوعاء جيداً، لأن الأصلي منه كان يحتوي قبعة جدي الطويلة المُفضلة. موديل توناك فالمين 1799. فكيف لم يخطر ذلك على بالي؟

”انتظر! إن قبعتي مُخزنة هنا في مكان ما“.

وسرعان ما أتيت بقبعتي الطويلة الاحتفالية، البورساليانو تينوتو، الرقيقة كورقة، لكن اخبطها بمرفقك عند الحاجة، وستنفتح بكامل حجمها.

ازدردنا الكونياك حتى ندفاً، ثم رجعنا بأكتافنا للوراء، واعتدلنا في وقتنا، لابسين قبعاتنا الطويلة وقاصدين السطح.

كانت السماء اللانهائية صافية على غير العادة، لكن خالية من النجوم. وقد اختفى الوهج الأحمر الذي اعتاد الطواف فوق المدينة. كان ذلك أشبه بالوقوف عند ظهر السفن، لكن دون همسات الموجات الداكنة في كل مكان حولك. نمت حديقة من الأنوار في العتمة المُشعبة أسفلنا: سلاسل طويلة من الأنوار، لوحات مُضاءة، وواجهات مبانٍ مُنارة في بهجة صافية، كوجوه الجوقة فوق منصة مهرجان غنائي. كان باستطاعتنا تقريباً ملامسة عناقيد الضوء الممتدة على أبراج كنائس البلدة القديمة: الشامخ لبطرس، والسميك لماري، والنحيف لجيكابس، والمرجان الأحمر للكنيسة الإنجيلية. أو التقاط برج قلعة ريجا مثل قطعة شطرنج وتحريكها إلى مربع آخر أبعد؛ على تلك الضفة من الدوجافا.

”هل رأيت أجمل من برج كنيسة القديس بطرس؟“ أشرت إلى البرج الفاصل بين الأضواء والظلمة.

”لا، لم يحدث“ أجاب يانيس، مُتعباً من التسلق، ويتكئ بيديه على درابزين السطح. كانت نظاراته مُضَيِّبة، ويتشوّق للألعاب النارية، التي ستبدأ في أي لحظة، بينما حاول يانيس بعصية تنظيف العدسات

بيديه العاريتين.

أمّا الجانب المقابل من الدوجافا، فكان مُضَاءً ببريق أبيض ضارب للزرقة؛ حيث انتُزِعَ الليل من جذوره، وألقي بعيداً على حين غفلة بواسطة بريق خاطف. متبوعاً بهدير الانفجارات. ومن ثم أرعدت كرة نارية من النجوم الصغيرة المُتبددة في الأفق مع ستار مُتهادٍ من الشرر الملون. التمعت مراوح الأضواء أمام أعيننا. وتمددت خيوطها. كما تألقت تشكيلاتها البرّاقة، مُفتتة، ثم متفتحة في طبقات بعضها فوق بعض. وتدفق الضوء في نوافير مُقنطرة، خلّفت دخاناً مختلفاً ألوانه. وتضاعف مهرجان باخوس ذاك في عدسات يانيس كحائط من شاشات التلفاز في أحد المتاجر. وعلّق على الفور:

”هل ترى، الأصفر هو أكسالات الصوديوم... والأخضر نترات الباريوم... أمّا البريق فبفعل أكسيد الزئبق، وكلوريد الأمونيوم... والشرر بفعل الحديد أو النحاس الأصفر، وربما حشوات النحاس والزنك. تُربط عدة أغلفة بعضها ببعض بفتيلة بيكفورد... وبخلط صمغ اللك مع اللاكتوز... والبارود، والإستيارين، ونشارة خشب..“.

تحركت الألعاب النارية في وثبات. وبتزايد في الحجم والتردد والصخب. فلم تترك فرصة للعتمة. فظل البريق متعدد الألوان يعدو، ويهدر، ويُصفر، ويرعد. والمزيد! المزيد!

ومن ثم، انتهى العرض. وتهادت السماء ببقايا الدخان التي سرعان ما تبددت كرجوات الزبد التي تلحق بسفينة مُسرعة. ووقفنا في عتمة سوداء، ومهجورة، ودامية.

”رائع ما يستطيع البشر فعله بالسماوات لبعض الوقت.“ تحدث

يانيس، لكن زوبعة من الرياح انتزعت قبعته، وطوّحتها بعيداً في الظلام.
”هل ترى“ قال يانيس: ”لقد اختارني جدي في هذا اليوم الهام. كيف
أمكنا نسيانه؟“.

”نسيانه؟ لا تكن سخيّاً، إنك لم تنسَه مُطلقاً“. ولم يبد أن يانيس كان
يسمعني، وأنّى له ذلك إن لم يكن هنا حتى؟ لكنه تخلص من شروده
وقال:

”لا، لم تكن هذه سماء مختلفة. بل نفس السماء القديمة. وهنا الخدعة،
وهي أن في استطاعتنا التنقّل بين تصورات لا نهائية للأشياء، ممكنة
ومستحيلة على السواء. فإذا كنت لا تحب البخار، فتزلج على الجليد
الصافي كالمرأة، وإذا كنت لا تحب الجليد، فاستمتع بجريان الدوجافا!
تمنحنا هذه المصطلحات المعزولة، صوراً لأحوال، جوهرها ثابت؛ ألا
وهو الماء.“.

(31)

لا يا جدي، أنا لست مُضَجَّرًا. حتى مع تلك الدوامة من المعلومات، فلا بدَّ أن يستمرّ الذهن في الدوران، شاء أم أبى.

وسواء تفتقت السماوات بفيضانات لا نظير لها، أو جفّت الأنهار والآبار على حين غفلة، فإن كمية المياه على الأرض لا تتبدل؛ يا للدهشة، وكأن الشيء نفسه لا يحدث مع كل شيء بالكون؟ ولذا، فإن من المستحيل اجتثاث الشر، ولا أن يصير الخير المادة الخام للعالم، لأن التغيير يحدث وفق لعبة من الامتزاجات.

بالفعل، عَرَفَ سليمان الحكيم أنه لا شيء جديد على الأرض. مثلما عرفت حيّة عدن التي منحت آدم وحواء إمكانية الاختيار، أن السم والترياق في متناول الذراع نفسها.

كلُّ حياةٍ هي مُحصلة أجيالها السالفة، كما أنها المادة الخام لأجيال لاحقة. وفي ما يتعلق ببراعة البناء، فإن برج إيفل لا شيء بالمُقارنة معي. تذكر ما حدث في كيب تاون في ديسمبر من عام 1967، عندما استأصل الجراحون القلب العليل للويس واشكانسكي في السادسة والخمسين من عمره، واستبدلوه بقلب امرأة ماتت في حادث سيارة. كانت تلك الزراعة الأولى من نوعها، لكن قلب المرأة الشابة كان صغيرًا بعض الشيء على واشكانسكي الذي توفي بعد ثمانية عشر يومًا من الجراحة، ليس لأن القلب كان صغيرًا، وإنما بسبب عدم التوافق البيولوجي. حيث

كان العلماء مهووسين بفكرة تحويل إنسان من مُحصلة نهائية خلقتها الطبيعة إلى تجميعة من الأجزاء، أكثر من اهتمامهم بحواجز عدم المُطابقة التي وضعتها الطبيعة أيضًا. بحثت مؤسسات لا حصر لها عن وسائل لمراوغة الدفاعات الطبيعية لجسم الإنسان. ووسط دهشة الجميع، تجسدت أبحاثهم في ملايين من الجثث المُتحللة، ثم ظهر الإيدز كذلك. فهل كان مصادفة أم عقابًا؟ وأنى للمرء حسم ذلك يا جدي.

ارتدى جدي قميصًا كتانياً أبيض اللون، وسروالاً رمادياً من القماش مطوية أطرافه. وقدماه عاريتان، بينما استقرت قبعة توناك فالمين فوق رأسه. وكان يُنصت إليّ، ناقرًا طرف سوطه الأسود على ساقه بانتظام. ”إنني أفكر، وأفكر. هل يُمكن تخيل سفينة تعوم على جانب واحد؟ لكنني توصلت إلى أهمية تذكر الكلمات الأخيرة لبودا: ‘كل ما هو مُركب مصيره التفكك’.”

نحن في القصر. وأخشى النظر، لأنني لا أرغب في رؤية أطلاله. لكن اتضح أن كل شيء كان في موضعه، وأن الشمس ساطعة وكل شيء يتلألأ كما لو أن يداً مرتعشة رسمته.

كما صنع صف أشجار الكرز المُزهرة على طول السور الحجري؛ موجةً بيضاء يُمكنك التزلج فوقها.

جلست البارونة جلستها المعتادة بحجرة المكتب. يُواجهها تلفزيون ياباني أو كوري مُتوسط الحجم. ويدل تعبيرها اللامبالي، على أنها لم تُعر انتباهًا لما يُعرض على الشاشة. ومن ثم فقد غَمَسَتْ ريشتها في المحبرة وشرعت في التدوين بدفتر الحسابات، في حين ألقت نظرة سريعة على التلفاز بين الحين والآخر. وقد دُهِشت من كونها لم تتقدم

في السن مُطلقًا، بل بدت شابة بشكل صادم.

وبمجرد رؤيتي، توقفت البارونة عن الكتابة. وبدت الريشة مُنسدّة.

”أحيانًا، تكون الأشياء البعيدة التي يعرضها التلفاز أقرب مما نتخيل“
ثم أضافت برزانة كبيرة: ” عندما تذهب الفئران إلى الجنة، فإن عليها
الانتباه لكيلا تنتهي بجنة اللقطط“.

”أنت مُخطئة يا يوهانا!“ لم يكن لديّ أدنى فكرة عن كيف انضم جدي
إلينا. لكن قبعته وكتفيه كانا مُبلّلين. لا بدّ أنها كانت تُمطر بالخارج.
”إنك تستعملين المنطق، وذلك خطأ كارثي، لأنه عاجلاً أم آجلاً، يسقط
المناطق في حبال الوهم. لأن نظام العالم ليس بسيطاً أو منطقيًا.
ونادرًا ما تحدث الأشياء التي نتوقعها“.

والآن، أستطيع رؤية يانيس بالغرفة. يلمع شعره الكثيف الذي كان
أسود ذات يوم. وقد خلع نظاراته، فبدا وجهه غريبًا بعض الشيء. أكثر
حتى من الغرابة التي تجعل الملامح اليابانية عصيّة على تمييز العُمر.
فلا يزال يانيس يبدو كمراهق، لكن كمراهق رمادي الشعر. ولين هناك
بجانبه، بصحبة زيله البالغة، وناميس الأخرق. ووراءها، تقف امرأة ذات
شعر مُتماوج، وشفاه رفيعة، وحواجب شبه مُستقيمة.

”من المرأة الواقفة خلف لين؟“ همست مائلًا على العمة ألما.

”أي امرأة؟“ ارتبكت العمة ألما لوهلة. ثم رمشت جفونها، وتفحصت
الغريبة ”إنها جونا من تشيكوركالنز! يا إلهي! بعد كل تلك السنين؟“.

”ليس بمقدورك اقتلاع أي شيء من حياتك. ألم تتعلم ذلك بعد؟“

انظر، ها هي الصغيرة إريب أيضًا. صغيرة وهشة مثل عصفورة“.

”لكن أليس الوقت عبارة عن حركة مُتقدمة عبر الأفق، تُواري كل شيء خلفها؟“.

”لكن ليس وأنت تعيشه. لأن عُمر المرء كالنهر، يتدفق للأمام مع كل ما تسرب إليه يومًا“.

وبالرغم من أن جدي كان ينظر في اتجاه آخر، إلا أن حديثه كان مُوجَّهاً إلينا دون شك.

”على الأرجح، كان الأفق مُنتجًا عَرَضِيًّا لجميع ما خلقه الرب، ولكون العالم مُستديرًا. فلو أن العالم كان مُكعبًا، ما طرحنا نفس الأسئلة. لكن عالمًا مُكعبًا كان سيتطلب المزيد من المادة الخام، أمَّا الجسم الكروي فأكثر اقتصادية..“.

ودون فاصل:

”لم أعد أخرج كثيرًا الآن، لذلك يُمكنك وصفي بأنني أصبحت خارج الأفق. لكنني لا أرى الأمر بتلك الطريقة. فلم يزل لدي الخيل والناس. إنها الكلمات: حي، ميت، قريب، بعيد. كما لو أن شيئًا ميتًا لم يعد مُساهمًا نشطًا في الطبيعة، وكأن شيئًا حيًّا لا يمكنه أن يجمد ويتعفن“.

”عندي لك أخبار جديدة يا جدي“ تكلم يانيس: ”سوف أتزوج ثانية“.

”خير ما فعلت. لأن العربة ذات الحصانين هي الأفضل. أمَّا العربة ذات الأربعة أو الستة أحصنة فإنها للاستعراض لا أكثر. وتصلح ذات الحصانين للأمور الجادة. قد فعل الرب خيرًا بذلك. فالإنسان هو عربة ذات حصانين. إن أحب ذكرياتي إليّ ارتبطت جميعًا بها“.

أخفضت البارونة عينيها ناظرة إلى التلفاز. وقالت ”شيء ما سوف يحدث. إنهم ينقلون من وسط المدينة. هنالك حشد عند المحطة المركزية“.

ظلت إيريته هادئة، بينما استمرت لين في هدهدة الطفل بنشاط على فخذها. وفتحت تعابير يانيس باباً للفضول، رغم أن عينيها كانتا نصف مغلقتين، إلا أنهما لا تزالان تعكسان إثارة الترقب وبهجة الأمل. في حين خلع جدي قبعته، مملساً شعره الخفيف.

”ماذا يجري هنالك؟ الشرطة... أناس يحملون وروداً... وجوه مُنفعة... أجساد مُتحفزة..“.

سبح ثلاثة رجال شرطة على الأقل في القناة بين البجع وأوراق عشبة السعال الطافية. في حين ركض ثلاثة رجال في دوائر حول كشك الصحف. لم يكن واضحاً مَنْ يُطارِد مَنْ، ومَنْ يركض مِمَّن. بينما كانت فروع أشجار الزيزفون المقابلة للمحطة مُثقلةً بالناس، وناضحة بالزهور.

وفجأة، علت صرخة بين دمدمة الحشد ”إنهم قادمون، إنهم قادمون!“.

وانجرفت الأجساد مثل كومة من الأطباق أو صينية مُزدحمة بالأكواب. وركض الجميع باتجاه السوق المركزي. وحاولت الشرطة إبقاءهم على الأرصفة، لكنهم شقوا طريقهم لأسفل. ذائبين، وأخيراً مجروفين كالبوابات المخلوعة في خضم فيضان، ومثل عصي السياج المقتلعة في الإعصار. واختفى الحشد في جميع الاتجاهات، دون أن ينحلّ. فقد ظلّ دبيب الأقدام الراكضة، وبريق الأيدي، وبياض الأعين. بينما توقفت

عربات الترامات وتحوّلت إلى جزر منعزلة بين الجماهير المتكاثفة. وعلقت السيارات، وتوقفت محركاتها.

”إنهم قادمون، إنهم قادمون!“ ركض حسان شرطة دون راكب. كان يصله ويرفس مُحاولاً العثور على مخرج، بينما كان أنفه ينزف. ولم تكن مكبرات الصوت متوافقة بعضها مع بعض، فاختلطت أصداؤها هنا وهناك. مُشجعة الجميع على البقاء هادئين ومُنظّمين. لكنها لم تكن أكثر من ضوضاء أخرى، أشبه بأضواء المدينة الساطعة ليلاً، أشبه بالثَّمَل، والمروج الخضراء على طول القناة. وفي الطليعة تصرخ أفواه ”إنهم هنا، إنهم هنا!“، وأذان وحيدة تسمع تلك الكلمات.

ثم أطلت سيارة لاند روفر فخمة وعملاقة من ناحية الجسر، ثقيلة كدبابة، سوداء الزجاج، وبيضاء كغبار الطريق. وأشبه بالصندوق، لها محرك توربيني، لا يقل عن 25 حصاناً. كما أن لها مصدّات أمامية مطلية بالنيكل وسميكة مثل أنابيب الصرف، وقد تُبّت كشاف كبير فوق سطحها.

وقد رافقتها عربة واحدة مُزينة بعلم مُتدل في الهواء الساكن. وقد تبدّلت ألوانها مثل العلامة المائية على ورق النقود. فأومضت بأزرق لبني، ثم بأحمر ناري، وربما حتى بالأبيض المُحايد.

ثم ركضت امرأة شابة نحو اللاند روفر حاملة وروداً، وتبعها رجل شاب بكُم ممزق. ثم سقطوا على ركبهم بجانب الإطار الضخم، مُداعبينه ومُقبلين إياه. ’لقد كنا في انتظارك! كنا في انتظارك!‘ وينقض الحشد على السيارة مثلما ينقض كلب البُدوج على العظمة. حتى استغرق الركاب بعض الوقت لفتح الأبواب.

ويتحدث مُراسل بنظارات منزلقة على وجهه النحيف ”تبدأ القناة الوطنية بثها الحي ..“. فتملاً موسيقى مُقدسة الأجواء، ويغني الكورال، وتنتقل الكاميرا إلى باقة من الورود.

ابيضّ وجه جدي، وتثاقلت أنفاسه في الغرفة الحارة، فأخذ يُهوي نفسه باستعمال القبعة.

”اسمع“ قال: ”أنا لا أفهم. هل بإمكان أحد تفسير ما ظهر بالنهاية؟“.

وقد لمحت للتو رجلاً طويلاً واقفاً خلف خزانة مُزينة بموجتين منحوتتين وعلى وشك الارتطام ببعضهما ببعض. كان يرتدي قميصاً قطنياً، وسروالاً رمادياً من القماش، وأحذية فارس ثقيلة مطوية عند ركبتيه. كما كان شعره مفروداً حتى كتفيه، ومفروقاً من المنتصف، وشاربه مفتولاً بطريقة شيطانية. لكن أنفه كان بارزاً وحاداً ومشحوناً مثل حجر.

”من هذا الذي ظهر؟“ فاجأ السؤال الفريهر. ”ماذا، إنه كاليوسترو! الكوبتا الأعظم! ..“. كانت الخاتمة مُختصرة، والبداية بالفعل هنا. والنهاية هي أنه ليس ثمة نهاية.